الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني

(٧٨٤- ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢- ١٥١٧ م)

إعداد

مقبولة حسن خليل الحاج خليل

المشرف

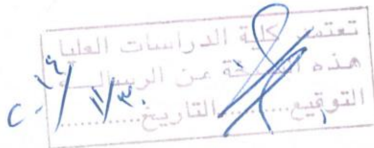
الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات

قدمت هذه الاطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

تشرين ثاني، ٢٠١٤



قرار لجنة المناقشـــــــــــة

نوقشت هذه الأطروحة (**الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني (٧٨٤ – ٩٢٤هـ/١٣٢٨/١٥١٧م)** وأجيزت بتاريخ ٢٠١٤/١٠/١٤م.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور محمد عبد القادر خريسات، مشرفاً أستاذ – تاريخ إسلامي	....
الدكتور يوسف بني ياسين، عضواً أستاذ – تاريخ إسلامي	....
الدكتور مهند أحمد مبيضين، عضواً أستاذ مشارك – تاريخ العرب الحديث	....
الدكتور سليمان عبدالله الخرابشة، عضواً أستاذ – تاريخ إسلامي	....

جامعة اليرموك

نموذج ترخيص

أنا الطالبة: مقبولة محمد حسين الحاج حسين أمنح الجامعة الأردنيــة و/ أو من تفوضه ترخيصاً غير حصري دون مقابل بنشر و / أو استعمال و / أو اســتغلال و / أو ترجمة و / أو تصوير و / أو إعادة إنتاج بأي طريقة كانت سواء ورقية و / أو إلكترونيــة أو غير ذلك رسالة الماجستير / الدكتوراه المقدمة من قبلي وعنوانها.

الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني (784 - 923هـ / 1382 - 1517م)

وذلك لغايات البحث العلمي و / أو التبادل مع المؤسسات التعليميــة والجامعــات و / أو لأي غاية أخرى تراها الجامعة الأردنية مناسبة، وأمنح الجامعة الحق بالترخيص للغير بجميــع أو بعض ما رخصته لها.

اسم الطالب: مقبولة محمد حسين الحاج حسين

التوقيــــع: [توقيع]

التاريـــخ: 16 / 10 / 2014

الإهـــــداء

إلى أمي وأبي رحمهما الله، وإلى زوجي الذي رافقني مشواري هذا

منذ البداية، وقاسمني تعبي ومعاناتي وطموحاتي،

وإلى أولادي وإخوتي . . .

وإلى مدينة دمشق قصبة الشام فرّج الله كرب أهلها وأعادها إلى

سابق عزها ومجدها أقدم هذه الدراسة .

شكر وتقدير

أشكر الله سبحانه وتعالى أولاً على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى وخيراته الجمة ومنها إتمام كتابة هذه الأطروحة، كما وأتقدم بالشكر وخالص الامتنان لكل من ساهم في إخراج هذا النتاج العلمي بالصورة الحالية والتي آمل أن تكون على قدر تعب معدها ، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات الذي كان لتوجيهاته ونصائحه القيمة ومتابعته الحثيثة الفضل الكبير في اختيار موضوع الرسالة وإنهاء إعدادها .

وأوجه كلمات الثناء والعرفان إلى أخي الأستاذ خليل وإلى أختي العزيزة نداء وإلى صديقتي الغالية الدكتورة آمنة البدوي على مساندتهم لي طوال فترات كتابة الدراسة، والشكر موصول إلى كل من تكرم بتخصيص جزء من وقته الثمين لقراءة ما خطته يدي، والحمد لله الذي بفضله تدوم النعم وبكرمه تزول الغمم .

فهرس المحتويات

"الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني"

(٧٨٤- ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢- ١٥١٧ م)

إعداد

مقبولة حسن خليل الحاج خليل

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات

الملخص

عالجت هذه الرسالة الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في عهد المماليك الجراكسة في فترة زمنية قاربت قرناً وثلث، فامتدت من الربع الأخير للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وهو موضوع لم ينل ما يستحقه من الدراسة رغم أهميته وذلك لأننا بصورة خاصة متأثرين في ثقافتنا وتفكيرنا وحتى عاداتنا وتقاليدنا بما كان موجود في نيابة دمشق اجتماعياً آنذاك.

أما اختيار دراسة نيابة دمشق اجتماعياً فمرجعه قلة المؤلفات الحديثة التي تناولت البحث فيها، إضافة إلى أهميتها في الفترة المدروسة كونها قصبة الشام ولها الأفضلية والتميز على باقي النيابات والعاصمة الثانية للمماليك بعد مصر.

تحدث الباحث في التمهيد عن نشأة نيابة دمشق في العصر المملوكي وعلاقتها بالسلطنة المملوكية في مصر وأفضليتها على باقي النيابات والمناطق التي كانت تشملها وتخطيطها. وتناول في الفصل الأول الفئات الاجتماعية في نيابة دمشق في عهد المماليك الجراكسة فقسمها إلى مماليك ومن يقعون ضمن شريحتهم كأرباب السيوف وأصحاب الوظائف الديوانية ورجال الجيش ومماليك الأمراء، والمتعممين وقُصد بهم القضاة والأشراف والمحتسبين والمدرسين والوعاظ والخطباء، والعامة وهم التجار والفلاحون والزعر والحرافيش والرقيق والعربان والأكراد والتركمان وأهل الذمة. وعمد الباحث في هذا الفصل إلى تعريف كل فئة والحديث عن علاقتها بغيرها من الفئات ومستواها الاقتصادي وموقعها الوظيفي ومساكنها وملابسها وعاداتها وتقاليدها.

وفي الفصل الثاني اهتم الباحث بعرض مظاهر النشاط الاجتماعي في نيابة دمشق، فبدأ حديثه عن الأسرة والنواة الأولى لتشكيلها أي الزواج ثم إنجاب الأطفال وما يتعلق بهم من نمو وتطور ومكونات البيت الدمشقي وعلاقته بالبيوت الأخرى، والعادات والتقاليد التي كانت

موجودة في الفترة المدروسة، سواء ما كان منها خاصاً أو عاماً، والأعياد والمناسبات والولائم والأطعمة وألعاب التسلية ووسائل الترفيه.

وخلص إلى أن الدمشقيين قد اهتموا بأسرهم، فشجعوا الزواج ولكنهم ميّزوا فيما بينهم زواج الأكابر من زواج غيرهم اقتصادياً واجتماعياً. وكان الأطفال وهم ثمرة الزواج قد وجدوا في الأسر الدمشقية عناية منذ مراحلهم الأولى، كما كانت بيوتهم في تخطيطها وعلاقتها بالبيوت الدمشقية قد أضافت جمالاً إلى جمال أخلاقهم وحسن عاداتهم وتقاليدهم. إلا أن النظام الطبقي قد بقي قائماً في كل نواحي الحياة، فعادات وتقاليد الخاصة قد اختلفت عن العامة، كما اختلفت طبيعة الاحتفالات بين هاتين الشريحتين في الأعياد والمناسبات والولائم والأطعمة وألعاب التسلية ووسائل الترفيه. أما البون الشاسع بين الفئتين فبرز أكثر من غيره في مظاهر الظلم الاجتماعي، فالفئة الخاصة كانت أشبه ما يكون بالجلاد في حين أن الفئة العامة كانت الضحية. وقد وصف الباحث أشكال الظلم الاجتماعي في الفصل الثالث، فأشار ألى أسماء السجون ومواقعها والأوضاع السيئة التي كان يعيشها المسجون، وانواع العقوبات التي كان يتلقاها فيها وفي غيرها من مناداة وتعزير وتسمير وصلب وتوسيط. كما تحدث عن الرميات والمصادرات والفساد الإداري من تزوير وبرطيل ورشوة وتعدي على الأوقاف والفساد الأخلاقي.

وتوصلت الدراسة إلى أن نيابة دمشق نشأت عقب انتصار المماليك على التتار في معركة عين جالوت وبعد أن ضمُّت إلى مصر سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م)، فحظيت بمنزلة ومكانة رفيعة فاقت سائر النيابات. وكان تخطيطها وجغرافيتها قد ساهما في رفعتها وزيادة مكانتها لدى الخاصة والعامة. فقد سلب جمال نيابة دمشق وإقطاعاتها لُب طبقة الأكابر (المماليك) الأمراء وموظفي الجيش وموظفي الديوان فجعلهم يتنافسون على نيل المناصب حتى ولو دفعهم ذلك إلى تقديم الأموال الهائلة والهدايا للسلطان في سبيل الحصول على هذه المناصب، وكان السلطان بالمقابل يغدق عليهم الإقطاعات والمنح والرتب ليضمن بقاء ولائهم له، إلا أن طمعهم وحبهم للمزيد من العلو والمكاسب كان يدفعهم غالباً لعصيان السلطان.

وعلى العموم فإن ما يميز هذه الفئة الترف والبذخ الشديدين إضافة إلى الملابس والعادات والتقاليد، فشكلت منهم كل هذه العوامل طبقة خاصة اختلفت عن بقية الفئات. وضمت الفئة الثانية "المتعممين" وهم الفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب وأهل التصوف وطلاّب العلم والمدرسين والقضاة والوعّاظ والمحتسبين، وقد اقتصرت المناصب في هذه الفئة على أهالي الشام من العرب، وحظيت باحترام السلاطين والأمراء وبقية أفراد المجتمع الشامي. وتميز قسم منها بالترف والبذخ الذي تمثل في هداياهم وتقادمهم للسلاطين وفي ملابسهم، وكان مصدر

ثرواتهم من الأوقاف المرصودة على المؤسسات العلمية والدينية إضافة إلى المرتبات والأرزاق العينية التي كانوا يحصلون عليها من أولياء نعمهم سواء السلاطين أو النواب، وكان لبعضهم دور سياسي في الأحداث الجارية آنذاك، كما كان لآخرين دور اجتماعي في توطيد العلاقات بين المماليك والعامة.

واحتلت فئة العامة المنزلة الثالثة في المجتمع الدمشقي فكان منها التجار والفلاحون والزعر والحرافيش والرقيق والعربان والأكراد والتركمان وأهل الذمة، وقد وقع على كاهل هذه الفئة أكثر من غيرها الظلم والتعسف من جراء الضرائب، ونُفذ في حقها أنواع العقوبات المختلفة كالمناداة والتعزير والعصر والتسمير والصلب والتوسيط، ولم تسلم أيضاً من الرميات والمصادرات. ويبدو أن ذلك انعكس سلباً على أداء بعض أفرادها فقادهم إلى ممارسة التزوير والبرطيل والرشوة والتعدي على الأوقاف في محاولة لمحاربة الظلم ولكن بطرق سلبية لا ايجابية.

المقدمة

ازداد الاهتمام في الآونة الأخيرة بدراسة التاريخ الاجتماعي، وأخذت هذه الدراسات تشق طريقها وتثبت حضورها أمام غيرها من الدراسات الأخرى، معلنة أن التاريخ ليس حكراً على الجانب السياسي والعسكري، أو حتى الاقتصادي، بل فيه جوانب اجتماعية عالجت مختلف أشكال النشاط الإنساني، فكانت هذه الأطروحة وسيلة لإظهار هذا الجانب وإزالة اللثام عن خفاياه وأخباره المتناثرة هنا وهناك.

وقد اختارت الباحثة دراسة نيابة دمشق اجتماعياً في عهد المماليك الجراكسة في فترة زمنية قاربت قرناً وثلث فامتدت من الربع الأخير للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. والحقيقة أن دراسة الجانب الاجتماعي لدمشق في العصر المملوكي الثاني يُعد أكثر إلحاحاً وحاجة وذلك لأننا بصورة خاصة متأثرين في ثقافاتنا وتفكيرنا وعاداتنا وتقاليدنا بما كان موجود في نيابة دمشق اجتماعياً آنذاك، كما أن دمشق في عهد المماليك الجراكسة نالت منزلة ورفعة فاقت غيرها من النيابات حيث عُدّت العاصمة الثانية بعد مصر.

إن ما يميز دراسة الباحثة عن الدراسات السابقة تناولها الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني خاصة فقد عالجت الدراسات التي سبقتها دمشق من مختلف الجوانب في عصر دولة المماليك الثانية كمؤلف الدكتور يوسف غوانمة "دمشق في عصر دولة المماليك الثانية"، ومؤلف أكرم العلبي "دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين"، أو قامت بالحديث عن بلاد الشام كلها لا عن إحدى نياباتها كمؤلف الدكتور مبارك الطراونة "الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة"، كما تميزت الدراسة باعتمادها على مصادر جديدة معاصرة لم ترد لدى الدراسات السابقة لاسيما مؤلف ابن طوق "التعليق" بأجزائه الأربعة.

أهداف الدراسة:

١- تزويد المكتبة العربية التاريخية بمعلومات جديدة عن الحياة الاجتماعية لنيابة دمشق أغفلها كثير من الباحثين.

٢- إبراز المظاهر الاجتماعية لنيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني بمعظم أشكاله وجوانبه.

٣- تشجيع الدارسين على البحث في جوانب العصر المملوكي الثاني لا سيما الجانب الاجتماعي في نيابة دمشق.

صعوبات الدراسة:

١- اشكالية تحديد أفق الحياة الاجتماعية بين مرجع وآخر.

٢- قلة المؤلفات الأولية التي تناولت الحديث عن التاريخ الاجتماعي في نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني بشكل خاص في مكتباتنا العربية.

٣- تشابه وتكرار المعلومات ما بين المصدر والآخر مما يدل على النقل دون الإضافة.

٤- قراءة المصادر كاملة وبمختلف أنواعها وأجزائها من أول صفحاتها إلى نهايتها للعثور على إشارة تتحدث عن الجانب الاجتماعي.

٥- ضعف اللغة العربية وركاكة ألفاظها في تلك الفترة، أو حتى غموضها أحياناً في بعض المصادر الأولية المعاصرة للأحداث، واستخدام أسلوب السجع في بعضها الآخر مما أثر سلباً على عرضها التاريخي.

٦- سوء ورداءة تحقيق بعض المصادر الأولية.

٧- عدم دقة التوثيق والأخطاء المطبعية.

منهجية الدراسة:

اعتمدت في استخلاص كتابة متن البحث على المصادر الشامية الأولية المعاصرة والمصادر المصرية المملوكية التي تحدثت بشكل مباشر أو غير مباشر عن نيابة دمشق اجتماعياً خلال العصر المملوكي الثاني. فقمت بدراستها جيداً، ثم قابلتها بالتواريخ المختلفة آنذاك فانتقيت ما اتفقت عليه المصادر أو ما كان مناسباً لسياق الأخبار، أو ما ارتأيت صوابه وقربه من العقل والمنطق. وقبل الانتقاء كنت أضع نصب عينيَ ميول المؤرخ ومعاصرته للأحداث، واستعنت أثناء الكتابة بالمراجع الشامية الحديثة والمراجع الأخرى التي لها صلة بالموضوع.

اعتمدت الباحثة في دراستها على المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث وعلى المؤلفات الحديثة الجادة لاسيما كتاب الدكتور مبارك محمد الطراونة "الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة" حيث كان للمؤلف الفضل الكبير في اختيار عناوين الأطروحة، كما استعانت بمؤلف الدكتور يوسف غوانمة "دمشق في عصر دولة المماليك الثانية" لاسيما في فصل مظاهر الظلم الاجتماعي، إضافة لمؤلف أكرم العلبي "دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين"، فقد كان لهذا المؤلف الدور الأهم في إثراء البحث بالمعلومات الضرورية الخاصة بالحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في فترة الدراسة.

كما استفدت من المراجع تلك في التعرف على أساليب وطرائق المؤلفين في تناول الأخبار ومقارنة حكمي عليها بأحكامهم، ولما كان يتعارض رأيي مع آرائهم كنت أسوق الأدلة التي تؤيد ما ذهبت اليه في بعض الأحايين. ولجأت إلى اقتباس بعض الفقرات أو الجمل فوضعتهما بين معقوفتين " " وكان غرضي من الاقتباس إبراز أهمية الخبر بعرضه كما هو خوفاً من الانتقاص والتقليل من شانه فيما لو تم شرحه أو التصرف فيه بلغتي الخاصة. وكانت الجمل المعترضة في ثنايا البحث كفيلة هي الأخرى في توضيح ما غمض من ألفاظ، لا سيما وأن هناك كم هائل من الألفاظ الأعجمية التي شاع استخدامها في ذلك الوقت.

أما في الحواشي (الهوامش) فقد عمدت إلى اختصار اسم المؤلف والكتاب بعد ايراد ذلك كاملاً في المرة الأولى، فكان الحرف (م) يعني مجلد و(ج) جزء و(ع) عدد و(ق) قسم و(ط) طبعة و(ص) صفحة و(ت) توفي. وقمت بتعريف ما أُبهم من مصطلحات كما أثبت الرسم المختلف للمفرد قاصدة بلوغ الدقة والأمانة العلمية. والتزمت بمطابقة المتن مع الهوامش والتسلسل الرقمي لهما، ووجدت أن توضيح وإبراز جوانب الدراسة يتطلب تقسيمها إلى فصول وعناوين رئيسية وفرعية، فوضعت مقدمة وتمهيداً وثلاثة فصول وخاتمة وملاحق. فتحدثت في المقدمة عن أهمية الدراسة وأهدافها وصعوباتها ومنهجيتها. أما التمهيد فقد تضمن نشأة نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني وعلاقتها بالسلطنة المملوكية في مصر وأفضليتها على باقي نيابات الشام والمناطق التي كانت تابعة لها وتخطيطها. وتحدث الفصل الأول عن الفئات الاجتماعية التي كانت متواجدة حينذاك، حيث تم تصنيف هذه الفئات إلى: ١- المماليك ومن يقعون ضمنهم من موظفي أرباب السيوف وأصحاب الوظائف الديوانية ورجال الجيش ومماليك الأمراء، ٢- المتعممون، وقصد بهم القضاة والفقهاء والأشراف والمحتسبون والمدرسون والعلماء والأدباء والكتّاب وأهل التصوف والأئمة والقرّاء والوعّاظ والخطباء، ٣- العامة، وهم الخارجون عن الفئتين السابقتين – أي من ليسوا بمماليك ولا متعممين كالتجار والحرفيين والفلاحين والزعر والحرافيش والرقيق والفئات المستألفة (العربان، التركمان، الأكراد) وأهل الذمة. وقد تم تناول كل فئة من حيث تعريفها وعلاقتها بغيرها من الفئات ومستواها الاقتصادي وموقعها الوظيفي ومساكنها وعاداتها وتقاليدها.

أما الفصل الثاني فقد اهتم بمظاهر النشاط الاجتماعي في نيابة دمشق في الفترة المملوكية، وشملت هذه الأسرة بدءاً من النواة الاولى لها وهي الزواج، ثم انجاب الأطفال وما يتعلق بهم من نمو وتطور وكيفية تكوين البيت الدمشقي وعلاقته بالبيوت الأخرى، وتطرق

الفصل إلى العادات والتقاليد التي كانت موجودة آنذاك سواء ما كان منها خاصاً أو عاماً، كما وضح طبيعة الأعياد والمناسبات للمماليك والولائم والأطعمة وألعاب التسلية ووسائل الترفيه.

وفي الفصل الثالث تحدث البحث عن مظاهر الظلم الاجتماعي في نيابة دمشق، فأشار إلى أشكال السجون والأوضاع السيئة التي كان يعيشها المسجون وأنواع العقوبات التي كان يتلقاها فيها ويتلقاها في غيرها من مناداة وتعزير وعصر وتسمير وصلب وتوسيط، وتطرق كذلك إلى الرميات والمصادرات والفساد الإداري الذي أبرز ما فيه التزوير والبرطيل والرشوة والتعدي على الأوقاف وأخيراً الفساد الأخلاقي.

وبعد فأرجو أن أكون قد أضفت حقائق جديدة عن الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني، مع الاعتراف بالتقصير مبدئياً، لأن من طبع البشر الخطأ والنسيان كما أن ادعاء الكمال بداية الفشل، والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

التمهيد

قيام دولة المماليك في مصر ونيابة دمشق

تمكن المماليك[١] من الوصول إلى الحكم سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) بعد مقتل تورانشاه[٢] آخر سلاطين الأيوبيين في مصر وخلع شجرالدر[٣]، وقاموا بتنصيب عز الدين أيبك[٤] الجاشنكير الصالحي سلطاناً، فكان أول ملوك الترك بمصر[٥]، إلا أن الأيوبيين والأمراء القيمرية[٦] في دمشق لم يرق لهم هذا الأمر، فرفضوا الاعتراف بما جرى في القاهرة وسعوا لإعادة مصر إلى حكمهم، وتخليصها من أيدي المماليك، فعمدوا إلى مبايعة الملك الأيوبي

---

(١) المماليك غلب عليهم اسم الترك لكثرتهم، وأصلهم من بلاد القفجاق، سيقوا إلى الديار المصرية والبلاد الشامية في آخر الدولة الأيوبية من قبل التتار فاشتراهم ملوك بني أيوب وقد استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل واعتمد عليهم، انظر الدوادار، ركن الدين بيبرس (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ط١، تحقيق دونالدس، ريتشاردز، بيروت (١٤١٩هـ /١٩٩٨م)، ص٢-٣، وكذلك ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ /١٤٠٥م) تاريخ بن خلدون، ٦ج ، مؤسسة الأعلمي – بيروت، (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ج٥، ص٣٧٣

(٢) أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع – المعروف بـ الذيل على الروضتين، دار الجيل، ط١، (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)، ط٢ (١٣٩٤هـ ١٩٧٤م)، ص١٨٥، ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، ١٤ ج، مكتبة المعارف – بيروت، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ج١٣ص ١٧٧، ١٨٠،

(٣) أبو شامة، الذيل، ص١٨٥، أبو الفداء، عماد الدين بن أيوب (ت٧٣٢هـ/١٣٢١م)، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ٤ج، ج٣، الصفحات ١٨١-١٨٣، ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٣، وزارة الثقافة والارشاد القومي، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، ج٧، ص٣، وللمؤلف نفسه تاريخ الخلفاء والسلاطين، شريط رقم (٥٦٣)، الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات ورقة ٤٩، وقد ذُكر في عنوان المخطوط أنه لمؤلف مجهول، غير أننا وجدنا في أخباره ما يشير إلى أنه من تأليف ابن تغري بردي، فقد قال: ذكرناها في النجوم وفي تاريخنا النجوم الزاهرة، انظر الورقات ٥٨، ٦٥، ٧٦

(٤) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، دول الاسلام، ج١، تحقيق فهيم محمد شلتوت محمد مصطفى، الهيئة المصرية (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص١٥٤، ابن كثير، البداية ج١٣، ص١٩٨-١٩٩، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، دول الاسلام، ج١، تحقيق فهيم محمد شلتوت محمد مصطفى، الهيئة المصرية (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص١٥٤، الخالدي، محمد بن لطف الله العمري، (ت بعد ٩ هـ/١٥م) المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى ديوان الانشا، مخطوط مصورميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ١٠٢٧، ورقة ٦٦،

(٥) أبو شامة، الذيل، ص١٨٥، العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكاتب العربي – القاهرة، (١٣٨٥ـ١٣٨٦هـ /١٩٦٦ـ ١٩٦٧م)، ص٤٥، ابن اياس محمد بن أحمد اياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ٥ج، ج١ق١، ط٢، الهيئة المصرية – القاهرة (١٤٠٢هـ /١٩٨٢م)، ص ٢٨٨

(٦) الأمراء القيمرية، ينسب هؤلاء إلى قلعة قيمر بين الموصل وخلاط وهم أكراد، انظر ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان ٤م، م٤، دار احياء التراث – بيروت، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص١٠٩ وابن كثير، البداية، ج١٣، ص١٩٥، ابن طولون: شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، ق١، ط٢، دمشق، (١٤٠١هـ /١٩٨٠م)، ص ٣٤٦ العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ط ١، الشركة المتحدة – دمشق، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص١٧

الناصر يوسف (ت٦٥٩هـ/١٢٦٠م)[١] صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ملكاً على دمشق، فتوجه هذا بهم إلى مقاتلة عز الدين أيبك، لكنه هُزم في العباسية[٢]، وبعد هزيمة الملك الأيوبي الناصر يوسف صاحب الشام، استقر الصلح بينه وبين المصريين سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) على أن يكون لهؤلاء الديار المصرية وغزة والقدس، وما بقي بعد ذلك من البلاد الشامية للملك الناصر صلاح الدين يوسف، ثم عُدّلت الحدود، وجعلت العريش آخر حدود بلاد الشام مع مصر، واستمر الأمر على هذا الحال، المعز أيبك وأنصاره في مصر، والناصر يوسف الأيوبي والمماليك القيمرية معه بدمشق[٣]، وتلا الصلح بأربع سنوات (٦٥٥هـ/١٢٥٦م) مقتل السلطان عز الدين أيبك من قبل خدمه وبتحريض من زوجته شجر الدر، وتولى السلطنة ابنه الملك المنصور نور الدين علي، وكان عمره خمس عشرة سنة[٤] فدبر ملكه الأمير علم الدين سنجر الحلبي (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)[٥]، وأعقب ذلك تحرك هولاكو[٦] ملك التتار[٧] الى الى بغداد ومن ثم استيلائه عليها سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، فقرر الأمراء والأكابر وأعيان العساكر اقامة المظفر سيف الدين قطز المعزي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)[٨] سلطاناً على مصر[٩]، مصر[٩]، ووصلت الأخبار بتحرك التتار إلى دمشق مما دفع قطز إلى التوجه بجيوشه نحوهم فالتقوا على عين جالوت[١٠]، وهُزم التتار[١١]. وبعدها ضم قطز الشام إلى مصر، وعهد للأمير

---

(١) المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق٢، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) تصحيح مصطفى زيادة ص٤٦٦

(٢) العباسية: قرية بكورة الحرجة من الصعيد انظر ياقوت: معجم، م٣، ص٢٩٢، أبو شامة، الذيل، ص١٨٦، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٨٤.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٨٦، المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ص٣٨٥، العلبي، دمشق، ص١٨

(٤) أبو شامة، الذيل، ص١٩٦، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٩٢، ابن كثير، البداية، ج١٣، ص١٩٥-١٩٦، المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ص٤٠٤-٤٠٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٤١، ٥٦

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٩٢، ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٣٣٤

(٦) هولاكو بن جنكز خان مقدم التتار وقائدهم، مات سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠م، ط١، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ج٥، ص٣١٦

(٧) التاتار: اسم لشعب يختلف مدلوله باختلاف المصدر وهو مشتق من شعب Ta Ta الذي سكن الجزء الشمالي الشرقي من صحراء جوبي Gobi، والكلمة معناها تائهين وأصول التتار ثلاثة أولاد هم: جنكز خان وأغز خان وأطن خان من جبل قرت قراطاغ من بلاد التبت وأول اقليم تملكوه بلاد الصين انظر الدوداري المنصوري، أبو بكر بن عبد الله (ت٧٣٦هـ/١٣٢٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، (١٣٩٢هـ /١٩٧٢م)، م٧ حوادث سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م)، ص،٢٢٧-٢٣٠، ٢٣٧. التونجي، محمد، بلاد الشام إبان الغزو المغولي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٢.

(٨) الدودار، كنز الدرر، م٧، ص٤٦، ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص٢١٦، ٢٢٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٦٠، ٧٢

(٩) الدودار ، كنز الدرر، م٧، ص ٤٦، المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ص٤٦٧

(١٠) عين جالوت: بليدة تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بيسان على مسافة عشرة كيلومترات على نهر الجالود بجوار عين ماء يطلق عليها الاسم نفسه، ياقوت الحموي، معجم، م٣، ص٣٦٩

(١١) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢٠٥، أبو شامة، الذيل، ص٢٠٧- ٢٠٨

علم الدين سنجر الحلبي التركي بنيابة السلطنة في دمشق سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م)، ليكون أول نائب مملوكي يحظى بهذه المكانة[١].

استمرت دولة المماليك قائمة حتى مقتل آخر سلاطينها طومان باي[٢] على يد السلطان العثماني سليم الأول (ت ٩٢٦هـ/١٥٢٠م) سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)[٣].

مرت الدولة المملوكية في عصرين أثنين الأول أطلق عليه دولة المماليك الأولى أو الدولة البحرية[٤]، وامتد الحكم فيه من سنة (٦٤٨ــ٧٨٣هـ) / (١٢٥٠-١٣٨٠م)[٥]، وبلغ عدد عدد سلاطينه أربعة وعشرون كان آخرهم السلطان زين الدين أبو الجود ابن الأشرف شعبان الأمجد حسين[٦]. وقد تضافرت عدة عوامل في الاسراع في سقوط دولتهم أهمها:

١- مؤامرات الأمراء في بلاد الشام ومصر ضد السلاطين والخلفاء العباسيين والفتن الداخلية

٢- تحركات التركمان ضد السلطنة في بلاد الشام

٣- تحركات العربان في بلاد الشام ضد السلاطين والأمراء المماليك

٤- قرصنة الفرنج على سواحل بلاد الشام ومصر

٥- الكوارث الطبيعية من (حرائق – فيضانات – زلازل – طاعون – جراد)[٧]

---

(١) أبو شامة، الذيل، ص٢١٠، المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ص٤٣٣، ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٧٩، ص٧٩، ٨٣

(٢) ابن اياس، بدائع،ج٥، ص ١٠٢-١٠٥، ١٧٦، قارن بما ذكره العيدروسي من أن السلطان طومان باي فُقد ولم يظهر له خبر، محي الدين عبد القادر بن عبد الله (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٩م)، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٠٠، ، قساطلي، نعمان أفندي (ت بعد ١٣٠١هـ/١٨٨٣م)، الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء، بيروت، (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م)، ص٧٧

(٣) ابن اياس، بدائع، ص١٥١-١٥٢، ص٣٦٠، العيدروسي، النور، ص١٠٠، الجزيري، عبد القادر بن محمد محمد الأنصاري، (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، تحقيق محمد حسن إسماعيل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج١، ص٤٩٢، ٤٩٦.

(٤) الدولة البحرية أو المماليك البحرية سُموا بهذا الاسم نسبة إلى جزيرة الروضة بمصر التي بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل بن العادل، بين شعبتي النيل انظر ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ص٣٧٣، ابن اياس، بدائع، ج١، ق١، ص٢٨٩

(٥) ابن اياس، بدائع، ج١، ق١، ص ٢٨٨، ج١، ق٢، ص٢٨٥

(٦) السلطان زين الدين أبو الجود ابن الأشرف شعبان بويع بالسلطنة بعد موت أخيه المنصور سنة (٧٨٣هـ/١٣٨٠م)، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٨٥، ٣١٨

(٧) الشلي فيصل ، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية (١٣٨١ــ١٥١٧م)، ط١، دار الزمان- دمشق، (١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م)، ص٢٩- ٣٠

ومن جانب آخر شكلت هذه العوامل دافعاً قوياً لظهور العصر المملوكي الثاني أو ما يطلق عليه بالدولة الجركسية[١] أو دولة المماليك البرجية[٢]، التي امتد الحكم فيها من سنة (٧٨٤-٩٢٣هـ)/ (١٣٨٢- ١٥١٧م)[٣].

وتولاها ثلاثة وعشرون سلطاناً أولهم السلطان الظاهر برقوق ابن آنص العثماني (ت٨٠١هـ/١٣٩٩م)[٤]، وآخرهم السلطان طومان باي[٥]. امتازت دولة المماليك الثانية الثانية – الأطار الزمني للدراسة – بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسي[٦] ما عدا اثنين هما خشقدم[٧] وتمربغا كانا من أصل رومي[٨]. إضافةً إلى أن مبدأ الحكم الوراثي لا نجد أثره في دولتهم، كذلك فإن نجاح السلطان المملوكي كان يتوقف على مدى قدرته في توجيه كبار الأمراء وضرب طوائف المماليك ببعضها البعض ليخلو الجو له ولمماليكه التحكم بالبلاد والناس وجعلهم طوع أمره[٩].

---

(١) الدولة الجركسية: سميت بهذا الاسم نسبة إلى طائفة الترك الجراكسة، وأصلهم أربع قبائل إحداها جركس ويسكنون قرب جبال القوقاس، ابن اياس، نشق الأزهار في عجائب الأقطار، مخطوط، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٣٥٨، ص٦١، العيني، السيف، ص٢٦، الكوثري، محمد زاهد ، مادة جركس، دائرة المعارف الاسلامية، أحمد الشنتناوي وآخرون، م٦، ع١، ص٣٤٨

(٢) المماليك البرجية: جيء بهم إلى مصر بعد البحرية، ومعظمهم ارقاء شراكسة، وسموا بالبرجية لأنهم كانوا يقيمون في أبراج القلعة، المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٢ج، دار= =صادر– بيروت، ج٢، ص٢٤١، ابن اياس، بدائع، ج١، ق١، ص٣٦٢، ابن طولون، تاريخ المزة وآثارها، تحقيق محمد عمر حمادة ، ط ١، دار قتيبة – دمشق، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ص٩

(٣) ابن اياس ، بدائع، ج١، ق٢، ص٣١٢

(٤) ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٣١٨-٣١٩، ٥٢٦، نشق الأزهار، ص٦١، ابن تغري بردي، تاريخ الخلفاء، ورقة ٦٥، الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ج١، ص٤٤، القرماني، أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط، فهمي سعد، ٣م، ط١، عالم الكتب، بيروت، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج٣، ص٢٩٣

(٥) ابن اياس، بدائع ،ج٥، ص ١٠٢

Nicolle PHD, David, Men – At – Arms series the mamluks 1250-1517, London, 1414/1993, p5.

انظر الملحق رقم (١)، ص ١٧٥.

(٦) عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النهضة العربية– القاهرة، (١٣٩٠هـ/١٩٧٦م)، ص١٠٨

(٧) خشقدم الناصري المؤيدي الرومي، أول ملوك الروم بمصر تولى السلطنة سنة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م)، ابن اياس، بدائع ج ٢، ص ٣٧٨ ــ ٣٧٩، ٤٥٥.

(٨) تمربغا: هو تمربغا الظاهري الرومي أبو سعيد، تولى السلطنة سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، وتوفي سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م). المصدر السابق، بدائع، ج ٢، ص٤٧٦، ج٣، ص١٠٥

(٩) عاشور، العصر المماليكي، ص ١٠٨ــ ١٦٠

نيابة دمشق

قسمت بلاد الشام في العصر المملوكي إلى ست نيابات هي: نيابة دمشق، نيابة حلب، نيابة الكرك، نيابة صفد، نيابة طرابلس، نيابة حماة[١]. لم يكن هذا الإجراء من قبل المماليك بمستحدث فقد قسمت بلاد الشام[٢] في عهد صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)[٣] إلى عدة أقسام بغية إحكام السيطرة عليها وضبط الأمور فيها نظراً لاتساع الرقعة الجغرافية التي كانت تشملها، غير أن المماليك عدّلوا في حدودها تبعاً للضرورات الإدارية التي استدعت ذلك[٤]. من الملاحظ أن النيابات الست المذكورة لم تستمر طوال فترة الدراسة بعددها وبوضعها، وبوضعها، فقد أصبح عدد النيابات سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) سبعة بإضافة غزة للنيابات الست، وعادت النيابات ستة سنة (٨٦٣هـ/١٤٥٩م) لكن باستبدال الكرك بغزة، ووُجدت نيابات أخرى سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٤م) كنيابة القدس، بينما في سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) نراها تعود إلى عددها السابق لكن بجمع غزة إلى الكرك والقدس[٥].

كما أننا نلحظ في هذه النيابات أنها لم تنشأ في وقت واحد بل في سنوات متباينة فلقد نشأت نيابتي دمشق وحلب سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)[٦] ونيابة الكرك سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م)[٧]

---

(١) الخالدي، المقصد، ورقة ٨٧، اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، نزهة الناظر في في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، ط١، عالم الكتب – بيروت، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ٦٢، ابن فضل الله العمري، أبو العباس أحمد بن يحيى (٧٤٢هـ /١٣٤١م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: سمير الدروبي جامعة مؤتة – الكرك، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٨٨، القلقشندي: أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ج، المؤسسة المصرية، ج٤، ص١٨٠، ٩١، ١٦٣، العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث (٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤١٢-١٤٢١م)، تحقيق عبد الرازق الطنطاوي القرموط، (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م)، ص١٦٠، قارن بما ذكره شيخ الربوة في نخبة الدهر، شيخ الربوة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي (ت٧٢٧هـ/١٣٢٧م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص١٩٣، الصيرفي، نزهة، ج٢، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٨-٩.

(٢) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٢٢٤- ٢٢٥، أبو الفداء، المختصر، المختصر، ج ٣، ص ٨٧، العلبي، دمشق، ص٢٤

(٣) للمزيد حول هذه الأقسام انظر: أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٤٥، ٨٦، ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٦

(٤) فقد أضيفت بعلبك إلى نيابة دمشق، وكذلك جعبر وحمص، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٩٧، العلبي، دمشق، ص٢٤ – ٢٥، ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق كمال الدين عز الدين، ط١، عالم الكتب- مصر، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج١، ص١٣٤. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٩٧، العلبي، دمشق، ص٢٤ – ٢٥

(٥) ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص ٥٢٧-٥٢٨، ج٢، ص٣٥٢، ج٤، ص٣٤، ج٥، ص٤، ٩٣، وللمزيد حول حول عدد النيابات لا مسمياتها انظر العيني، عقد، حوادث (٨٢٤هـ/١٤٢١م)، ص٨٧، وفي حوادث (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) صارت ثمانية بإضافة غزة والقدس، ص٥٥٨

(٦) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص٢٠٧، ابن اياس، بدائع، ج١، ق١، ص٣٠٧

(٧) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ٢١٧، البخيت، محمد عدنان، مملكة الكرك في العهد المملوكي، وزارة الثقافة – – عمان، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص٢٢

ونيابة صفد سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، ونيابة طرابلس سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٨م)[١] ونيابة حماة سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)[٢].

كانت النيابة صورة مصغرة لنظام السلطنة في الديار المصرية[٣]، يعلو قمتها نائب يعرف بنائب السلطنة[٤] أو الكافل أو ملك الأمراء[٥]، يختار من بين كبار الأمراء، وكانت كل من النيابات تمتد لتشمل مساحة كبيرة، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانئ أو القلاع الهامة، وقد قسّمت كل نيابة أقساماً إدارية صغيرة أطلق عليها اسم النيابات الصغار[٦]. وقد أُطلق على النيابات في الفترة المملوكية عدة أسماء مثل: قواعد، وممالك[٧]، وكفالات[٨].

أما نيابة دمشق فكان يقال لها كذلك: نيابة الشام[٩]، المملكة الشامية[١٠]، الأمرة الكبرى[١١]، تمييزاً لها عن باقي النيابات الشامية، واعتبرت أهم النيابات ولها الأفضلية فهي العاصمة الثانية في دولة المماليك المترامية الأطراف، وهي الممر الرئيسي لقوافل الحجاج، أو للمتجهين إلى القاهرة عاصمة السلطنة[١٢].

وفوق ذلك فقد كانت بديلاً عن مصر لبعض الأمراء في إعلان سلطنتهم[١٣]، أو عصيانهم أو تخلصهم من ضرر المماليك في مصر[١٤]، أو منفى لاستقبال الآخرين منهم والمرسلين من قبل سلاطين مصر بغية التخلص من بلاهم وآذاهم[١٥].

---

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٣، ٢٣
(٢) ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ص٤٢٧، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٧٤
(٣) اليوسفي، نزهة، ص٦٣
(٤) القلشقندي، صبح، ج٤، ص١٩٩، ج١٢، ص٢٨٠
(٥) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٨٥، ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٤٠٦
(٦) اليوسفي، نزهة، ص٦٢
(٧) القلشقندي، صبح، ج٤، ص٩١، ١٦٣، ١٨٠، الخالدي، المقصد، ورقة، ٨٧
(٨) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٨٦، القلشقندي،صبح، ج ٤، ص١٨٤، ج١٢، ص٢٢. ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٢٠١، العيني، عقد، حوادث (٨١٥هـ/١٤١٢م)، ص١٧٤
(٩) ابن اياس، بدائع، ج١، ق١، ص٣٤٤، ٣٤٨
(١٠) القلشقندي، صبح، ج١٢، ١٦٨. ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، حققه بولس راويس/باريس المطبعة الجمهورية، (١٣١٢هـ/١٨٩٤م)، ص٤٤، الصيرفي، إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق: حسني حبشي، دار الفكر، (١٣٨٩هـ/١٩٧٠م)، ص٢١٨، العلبي، دمشق، ص٢٧
(١١) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص١٨٨، ابن طولون، اعلام الورى لمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، (١٣٨٣هـ/١٩٦٤م)، ص١٧٧
(١٢) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٨٨، العيني، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق هانس أرنست، دار إحياء الكتب العلمية، (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م)، ص٣٨، العلبي، دمشق، ص٤٣
(١٣) العيني، الروض، ص٣٩-٤٠، ابن اياس، بدائع، ج١، ق١، ص٣٥٠، ٣٥٥، ج١، ق٢، ص٨٢٣، ج٢، ص٧١
(١٤) ابن اياس، ج١، ق٢، ص٨١٢، ج٣، ص٣٦٠، ٣٨١
(١٥) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص١٧٧، ج٤، ق٣، ص١٢١٢. ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٣٢٩

وقد نال نائب دمشق حظوة عند السلطان[١]؛ فقد انفرد بالعزل والولاية وتوزيع الإقطاعات والإمريّات لمن يريد ويختار في البلاد الشامية من غير مراجعة السلطان[٢]، وربما أوجد هذا الأمر تذمراً لدى نواب الشام لا سيما حينما كانوا يشعرون بتسلطه فتحصل بينهم وبينه المنافسات والاستفزازات فينفرون من تنفيذ أوامره وتعليماته، فهم لا يرون فيه سوى القرين والند وبالتالي لا يرون استعلاءه عليهم[٣].

استخدم تعبير الشام وأريد به دمشق، يقول ابن فضل العمري "فإنه إذا قال سلطاننا بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دمشق ونائبها"[٤]. وبشكل مجمل فقد تمت الإشارة إلى حدود الشام المقسمة إلى ست نيابات بدءاً من العريش[٥] أو غزة[٦] وانتهاءً إلى الفرات[٧]، بينما ذكرت ذكرت نيابة دمشق مفصلة بأعمالها[٨] وقراها وأقاليمها لدى شيخ الربوة ما مقداره تسعون إقليماً[٩]، لكن ابن فضل الله العمري كان أكثر تحديداً لمناطق نيابة الشام من شيخ الربوة، فقال: "وولاياتها – دمشق – من لدن العريش من بلاد مصر إلى آخر سلمية[١٠] مما هو شرق شمال وإلى الرحبة[١١] مما هو شرق محض"، وبلاد جعبر[١٢]، وتشتمل على ولاية بر وأربع صفقات،

---

(١) اليوسفي، نزهة، ص٦٣ – ٦٤. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٣٧، ٢٤٢، ٣٠١، ٣١١، ج١٢، ص٧٦

(٢) العيني، عقد، حوادث (٨١٥هـ/١٤١٢م)، ص١٢٤– ١٢٥، ابن تغري بردي، ج١٣، ص٢٠١. ابن اياس، اياس، بدائع، ج٣، ص٥٩

(٣) اليوسفي، نزهة، ص ٦٤. ابن تغري بردي، ج١٢، ص٧٦، ج١٣، ص١١٨

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف، ص٢٥٢

(٥) العَريش: مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم – المتوسط، وهي أول أعمال أعمال الشام، ياقوت، معجم، م٣، ص٣٢٠–٣٢١

(٦) غَزَّة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل، ياقوت معجم، م٣، ص٣٨٨

(٧) الفرات: نهر بجانب دجلة ومخرج الفرات من أرمينية ويخرج إلى ملطية ويلتقي نهر دجلة والفرات حتى يصبان في بحر الهند، ياقوت، معجم، م٣، ص٤١٩، المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ص٤٣٣، ابن تغري بردي، نجوم، ج١٣، ص٢٠٠، المنهل، ج٤، ص٥١، تاريخ الخلفاء، ورقة ٦٨، ابن أجا، شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الجلبي (ت ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م)، تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي – مصر، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٥٤. ابن اياس، بدائع، ج١ ق٢، ص٦٢٩، القرماني، تاريخ، ج٣، ص٣٦٣

(٨) الأعمال: وحدات إدارية يُعيّن عليها ولاة من قبل السلطان أعتبرت جزءاً من النيابة في العهد المملوكي، انظر: الحاج خليل، مقبولة حسن، مدينة القدس في العهد الأيوبي، وزارة الثقافة – عمان، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص٢٧

(٩) شيخ الربوة، نخبة، ص١٩٨

(١٠) سَلَمْيَة: هي بلدة في ناحية البرية من أعمال حماة، وكانت تعد من أعمال حمص، ياقوت، معجم، م٣، ص٦١

(١١) الرُّحبة: ناحية بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى وفي طرف اللجاه من أعمال صلخد، المصدر السابق، م٢، ص٣٩٤

(١٢) جَعْبَر: على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، المصدر السابق، م٢، ص٥٩

فأما البر فهو ضواحي دمشق، وحَدّها من القبلة قرية الخَيّارَة[1] المجاورة للكُسْوة[2] وما هو على على سمتها طولاً من الشرق الجبال الطوال إلى النبك[3]، وما وقع على سمتها، ومن الشام ما هو هو على سمت النبك من القرى آخذاً على عسال[4] وما حولها من القرى إلى الزبداني[5] ومن الغرب ما هو من الزبداني إلى قرى القران المسامته للخَيّارَة المقدمة الذكر، وفي هذا مرج دمشق وغوطتها[6].

أما الصفقات الأولى فالساحلية والجبلية، وأهم هذه البلاد مدينة غزة، وأما الصفقة الثانية، وهي المعروفة بالقبلية ومدينتها بُصرى[7]، والصفقة الثالثة وهي المعروفة بالشمالية وبها من المدن المعروفة بَعْلَبَك[8]، وأما الصفقة الرابعة وهي الشرقية ومدينتها حِمَص[9] وقد نقل القلقشندي ما جاء عند ابن فضل الله العمري، أما ابن شاهين الظاهري فعدد بعض الأعمال التي شملتها نيابة دمشق فقط[10]. ويبدو أن تحديد ابن فضل الله العمري للمناطق المكونة لنيابة دمشق هو أقرب التعاريف وأدقها لموضوع الدراسة. ولعله قصد بنيابة دمشق ما يعرف اليوم بالمنطقة المحصورة بين قرية الكسوة جنوباً والنبك شمالاً، وبين بادية الشام شرقاً والزبداني غرباً، ويدخل في هذا النطاق مرج دمشق وغوطتها ومدينة دمشق أيضاً[11]، وعلى ذلك فقد حصر ابن فضل الله العمري أعمال دمشق في ثمانيـــة وعشرين عملاً[12] هي:

---

(١) الخِيارَة: قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين، المصدر السابق ، م٢، ص٢٦٣
(٢) الكُسْوَة: قرية هي أول منزلة تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، المصدر السابق، م٤، ص١٣٨ ص١٣٨
(٣) النَّبْكُ: قرية مليحة بين حمص ودمشق، المصدر السابق، م٤، ص٣٦٦
(٤) عَسّال: ذكرت عند ابن فضل الله العمري في التعريف ص ١٨٧ بـــ (جبة عسيل)، وهي ناحية بين دمشق دمشق وبعلبك وتشمل على عدة قرى، المصدر السابق، م٢، ص٣٤
(٥) الزَّبَداني: كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك منها خرج نهر دمشق، المصدر السابق، م٢، ص٤٦٧
(٦) غُوطَة دمشق: هي الكورة التي فيها دمشق استدارتها ثمانية عشر ميلاً، يحيط بها جبال عالية جداً ولا سيما سيما من شمالها ومياهها خارجة من تلك الجبال وتمتد فيها أنهار تسقي بساتينها، والغوطة كلها أشجار، المصدر السابق، م٣، ص٤٠١
(٧) بُصْرَى: مدينة بالشام من أعمال دمشق قصبة كورة حوران، ياقوت، معجم، م١، ص٣٤٨. ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٧٩٦
(٨) بَعْلَبَكُّ: مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل: اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل، ياقوت، معجم، م١، ص٣٥٨
(٩) حِمَصُ: بلد مشهور بين دمشق وحلب، المصدر نفسه، م٢، ص١٨٢. العمري، التعريف، ٢٥٢ – ٢٥٧. القلشقندي، صبح، ج٤، ص ٩٧
(١٠) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص٤٦ – ٤٨
(١١) العلبي، دمشق، ص٣٥ – ٣٦، العملة، عبد الجبار أحمد محمد، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري (٧١٢ –٧٤٠هـ / ١٣١٢– ١٣٣٩/١٣٤٠م)، رسالة ماجستير، اشراف، محمود علي عطا الله، جامعة النجاح الوطنية – نابلس، (١٤٢١ هــ / ٢٠٠ م)، ص٤٩ – ٥٠
(١٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الاسلامي للبحوث، بيروت، ط١، (١٤٠٧هــ / ١٩٨٦م)، ص١٨٧، التعريف، ص٢٥٣، ابن اياس، نشق، ص١١٨– ١٢٣،

غَزَّة، الرَّمْلَة[١]، اللُدّ[٢]، قَاقُون[٣]، القُدُس[٤]، الخَلِيل[٥]، نَابُلُس[٦]، بَيْسَان[٧]، بانِيَاس[٨]، بانِيَاس[٨]، الشَّعْرَا[٩]، نَوَى[١٠]، أذْرَعَاتَ[١١]، عَجْلُــونَ[١٢]، البَلْقَــاء[١٣]، صَرْخَد[١٤] ، بُصْرَى، زُرَع[١٥]، بعْلَبَك، البِقاع البَعْلَبَكِّي[١٦]، البِقاع العَزِيزي[١٧]، بَيْروت[١٨]، صَيْدا[١٩]، حِمْص،

---

(١) الرَمْلة: وهي قصبة فلسطين وبينها وبين القدس مسيرة يوم، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٩

(٢) اللُدّ: بلدة من جند فلسطين بينها والرملة ثلاثة فراسخ، المصدر السابق، ج٤، ص١٠٠، ابن اياس، نشق، ص١٢١

(٣) قَاقُون: مدينة بينها وبين لد مسيرة يوم، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٠٠

(٤) القُدُس: مدينة من جند فلسطين، تحتل موقع القلب من فلسطين فهي تتوسط اقليم المرتفعات الوسطى من جبال نابلس في الشمال، وجبال الخليل في الجنوب، المصدر السابق، ج٤، ص١٠٠، تيسير جبارة وآخرون، تاريخ القدس، جامعة القدس المفتوحة – عمان، (١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م)، ص٨

(٥) اسم موضع بقرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم، ياقوت، معجم، ج٢، ص٢٤٦، ابن اياس، نشق، ص١٢٠ ص١٢٠

(٦) نابُلُسُ: مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ. ياقوت، معجم ، ج٤، ص٣٥٩، ابن اياس، نشق، ص١١٩

(٧) بَيْسَان: مدينة بالأردن بالغور الشامي وهي بين حوران وفلسطين، ياقوت، معجم، ج٤، ص٤١٤

(٨) بانِيَاس: وهي مدينة الجولان، وبها قلعة الصبيبة، على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميله إلى إلى الجنوب. ابن فضل الله العمري، مسالك، ص١٨٧، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٠٤

(٩) الشَّعرَا: وهي عن بانِيَاس شرق بجنوب والولاية بها تارة بقرية حسان وتارة بقرية القنيطرة. القلقشندي، ج٤، ص١٠٤

(١٠) نَوَى: وهي بلدة صغيرة عن دمشق من جهة الغرب إلى الجنوب على نحو مرحلة، وهي مدينة قديمة من أعمال دمشق. المصدر السابق، ج٤، ص١٠٥

(١١) أذْرَعَاتَ: مدينة من أعمال دمشق، في أطراف الشام تجاور أرض البلقاء وعمَّان، ياقوت، معجم، ج١، ص١١٠، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٠٥

(١٢) عَجْلُونَ: قلعة من جند الأردن، مبنية على جبل يعرف بجبل عوف وهي محدثة البناء بناها عز الدين أسامة بن منقذ. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٠٥

(١٣) البَلْقَاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قبتها عمَّان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة وبجودة حنطتها يضرب المثل. ياقوت، معجم، ج١، ص٣٨٥

(١٤) صَرْخَد: مدينة حوران العليا، قديمة، قلعتها محدثة بنيت قبيل عهد نور الدين زنكي بقليل. ابن فضل الله العمري، مسالك، ص١٨٩

(١٥) زُرَع: بلدة من بلاد حوران لها عمل مستقل، وقد يتصل عمل بُصْرى بأذْرَعَاتَ لوقوع زُرَع بينهما. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٠٨

(١٦) البِقاع البَعْلَبَكِّي: يوصف البقاع بالبعلبكي نسبة إلى بعلبك لقربه منها وليس له مقر ولاية، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١١٠، كان لبنان مقسماً إلى عدة أقسام، فلبنان الشمالي وكسروان تابعين لنيابة طرابلس، والبقاع وبعلبك والشوف والغرب وبيروت وصيدا تابعة لنيابة دمشق، أما لبنان الجنوبي وصور فكانا تابعين لنيابة صفد، ابراهيم عواد، لبنان في عهد المماليك، مجلة المشرق، م٤٠، (١٣٦١–١٣٦٢هـ/١٩٤٢–١٩٤٣م)، ص٢

(١٧) البِقاع العَزِيزي: يوصف البقاع بالعزيزي نسبة إلى العزيز عكس الذليل، وكأنه نسبة إلى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومقر الولاية به كرك نوح وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بعلبك، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١١٠

(١٨) بَيْرُوت: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام، تعد من أعمال دمشق بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ، ياقوت، معجم، ج١، ص٤١٢، ابن اياس، نشق، ص١٢١

(١٩) صَيْدا: مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ، المصدر السابق، ج٣، ص٢١٣، ابن اياس، نشق، ص١٢١

مِصْيَاف[١]، قَارَا[٢]، سَلَمِيَّة، تَدْمُرَ[٣]، الرَّحْبَة، دِمَشق. هذه هي الأعمال التي تتألف منها نيابة دمشق وتمتد إليها سلطة النائب[٤]، على أن بعض هذه الأعمال كان يصيبها في بعض الأحيان تعديل، فقد يضاف بعضها إلى آخر وقد يقسم العمل فيصير عملين[٥].

أحيطت نيابة دمشق – قصبة الشام وعاصمة الأعمال الآنفة[٦] – بسورين، ارتفاع الأول الأول حوالي ثلاثين ذراعاً وهو خارج الخندق، وارتفاع الآخر نحو أربعين ذراعاً وهو يبعد عن الأول من ١٥ – ١٦ ذراعاً، وحول السورين يوجد خندقان: داخلي وخارجي. ويبدو أن المدينة ومنذ نشأتها كانت محاطة بسور، وبقي الحال مستمراً حتى الفتح الاسلامي، إلا أن السور تم ترميمه في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وتم بناء سور آخر جديد أمامه على الجهة الشمالية في أوائل القرن الساع الهجري/الثالث عشر الميلادي[٧].

وقد جعلت الأسوار والخنادق والقلعة الواقعة غربي المدينة من دمشق قوةً دفاعيةً بحيث عُدّت خط الدفاع الأمامي لدولة المماليك، إذ إنّها قطب دائرة الممالك الشامية ومنها تمتد هذه الممالك[٨]، كما أن موقع المدينة وطبيعتها ساهما إلى حد بعيد في زيادة صمودها أما الغزاة، فهي فهي تقع على خط طول ٣٦ ١٨ شرق غرينتش وخط عرض ٣٣ ٢١ شمالاً، وترتفع عن سطح البحر ٢١٣٠ قدماً، وتقع على حافة الصحراء العربية خلف جبال لبنان وجبال لبنان الشرقية،

---

(١) مِصْيَاف: وهي بلدة جليلة ولها قلعة حصينة في لحف جبل اللُّكام الشرقي عن حماة وطرابلس، في جهة الشمال عن بارين على مسافة فرسخ، وفي جهة الغرب عن حماة على مسيرة يوم. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١١٣

(٢) قَارَا: قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وهي كانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق وأهلها كلهم نصارى، ياقوت، معجم، ج٤، ص٩

(٣) تدْمُر: مدينة قديمة مشهورة في برّية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام، المصدر السابق، ج١، ص٤٣٣

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك، ص١٨٧ – ١٩٥، ٢٠٨ – ٢١٢، ٢١٦ – ٢٢٣، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٨–١١٦، محمد أحمد دهمان، ولاة دمشق في عهد المماليك، ط٢، دار الفكر–دمشق، (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص١٥– ١٦

(٥) ابن تغري بردي، حوادث، ج١، ص١٣٤، دهمان، ولاة دمشق، ص١٦

(٦) البدري، أبو البقاء عبد الله بن محمد (ت٨٩٤هـ/١٤٨٩م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية – مصر، (١٣٤١هـ/١٩٢١م)، ص٢٢

(٧) سوفاجيه، جان، دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر، مجلة المشرق، ج١، ج١، سنة ٣٤، نيسان – حزيران، (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، ص١٧٦، ١٩١، خريسات، محمد عبد القادر، التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي لبلاد الشام، مؤتمر بلاد الشام في العصر العباسي، القسم العربي، عمان، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٣٩٤، العلبي، دمشق، ص٤٩، زيادة نقولا ، دمشق في عصر المماليك، مؤلف ومترجم، نُشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر– بيروت، نيويورك، مكتبة لبنان، (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ص٩٦

(٨) ابن كنان الصالحي الدمشقي، محمد بن عيسى (ت١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، ٢ق، ق٢، تحقيق حكمت اسماعيل، وزارة الثقافة – دمشق، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م). ص٥

وتعتبر المركز التجاري لشمال سوريا والعراق وأرض الجزيرة العربية وبابل من جهة والبحر المتوسط ومصر من جهة أخرى بفضل الطرق الطبيعية الممتدة في شمالها ثم جنوبها(١).

وللمدينة أبواب وهي: (الباب الصغير) وسمي بهذا الاسم لأنه كان أصغر أبوابها حين بنيت، وسمي (باب الجابية الصغير) وهو يقع في قبلة البلد. و (باب كيسان) وهو يقع شرقي الباب الصغير، وينسب إلى كيسان مولى معاوية لنزوله عليه. و(الباب الشرقي) وسمي بذلك لوقوعه شرقي البلد ومنه دخل (خالد بن الوليد)– رضي الله عنه– فاتحاً، و(باب توما) ويقع شمالي البلد وينسب إلى عظيم من عظماء الروم اسمه توما، و(باب الجينيق) المنسوب إلى محلة (الجينيق) الواقعة خارج البلد، و(باب الفراديس) شمالي البلد، والفراديس بلغة الروم البساتين، وهو منسوب إلى محلة الفراديس الواقعة خارجه، و(باب الجابية)المنسوب إلى قرية الجابية غربي البلد، وهو عبارة عن ثلاثة أبواب: الأوسط منها كبير ومن جانبيه بابان صغيران، ويتفرّع من الأبواب الثلاثة ثلاثة أسواق تمتدّ من الباب الشرقي إلى باب الجابية(٢). وخصّص الأوسط منها للمشاة، بينما خصّص السوقان الآخران أحدهما لمن يشرّق بدابة والآخر لمن يغرّب بها حتى لا يلتقي فيهما الراكبان(٣). والأبواب صوّروها على الكواكب فزحل على باب كيسان، وعلى الباب الشرقي صورة الشمس، وعلى باب توما الزهرة، وعلى باب الجينيق القمر، وعلى باب الفراديس عطارد، وعلى باب الجابية المشتري، وعلى الباب الصغير المريخ(٤).

وقد بنى نور الدين زنكي باباً سماه باب السلام ، كما بنى باب الفرج وسماه بذلك تفاؤلاً لما وجد من التفريج بفتحه. وكان بقربه باب يسمى باب العمارة فتح عند عمارة القلعة ثم سُد، ويليه الباب الجديد وهو خاص بالقلعة، ومن الغرب باب السر، وكان المماليك يستخدمونه سراً للدخول إلى القلعة والخروج منها(٥).

وعُرف في دولة المماليك الجراكسة أن من يتولى نيابة دمشق يصلي عند هذا الباب ركعتين مستقبلاً القبلة بحيث يبقى الباب على يساره، ويقف أجناد القلعة وأرباب الوظائف

---

(١) هارتمان، دمشق، دائرة المعارف الاسلامية، م٩، ع١، خوارزم، خوست، ص٢٦٤– ٢٦٥

(٢) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت٥٧١هـ/١١٧٦م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبيرة، عبد القادر بدران، ط١، دار المسيرة ــ بيروت، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٧ج، ج١، ص٢٦٣ ــ ٢٦٤، ابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٥٨م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سامي الدهان، دمشق، (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) ص٣٤– ٣٦، البدري، نزهة الأنام، ص٢٤ – ٢٥، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٢، العلبي، دمشق، ص٥٠ – ٥١، سوفاجيه، دمشق، ص١٧٦

(٣) ابن شداد، الأعلاق، ص٣٦، البدري، نزهة الأنام، ص٢٥ ،

(٤) ابن شداد، الأعلاق، ص٣٠، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٢، البدري، نزهة الأنام، ص٢٥ – ٢٦

(٥) ابن عساكر، تاريخ، ج٢، ص٤٠٨. ابن دقماق، ابراهيم بن محمد ايدمر العلائي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين، ج١+٢، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٤١، البدري، نزهة الأنام، ص٢٦ – ٢٧، ص٢٧

والأتراك في أماكنهم حاملين السلاح إلى أن ينتهي من صلاته، فإن أريد به شر قبضوا عليه ودخلوا به من ذلك الباب وأقفلوا الجسرالذي يحول بينه وبين معاونيه بلوالب، وإن أريد به خير سار وكبار الدولة في خدمته[١]، إلى أن ينزل دار العدل (دار السعادة)[٢] التي أنشأها نور الدين[٣] وموقعها قرب باب السرور وفيها باب النصر الذي فتحه الملك الناصر بن أيوب للمدينة. وهذه الأبواب الخمسة جديدة إلا باب السلام. وفي السور أبواب أخرى صغار تفتح عند الحاجة، وغالب هذه الأبواب بنيت عليها منائر على صورة مساجد، وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع، فإذا حُصّنت المدينة وقفلت الأبواب كان كل صاحب حانوت يبيع ويشتري بما عنده.

ومن جانب آخر فليس في دمشق شارع يخترقها من الشمال إلى الجنوب وهذه ظاهرة لا نراها في غيرها، وشارعها الرئيسي هو الشارع المستقيم الذي بني فيها منذ عصر الرومان والذي يخترقها من الشرق إلى الغرب[٤]. وغالب بناء نيابة دمشق بالحجر المزخرف والرخام بها قليل ولكنه من أحسن الأنواع، وعناية أهلها بالمباني كثيرة ويستعمل في عماراتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل إلا أنه لا يغشى بالبياض ولهم في بساتينهم منها ما يبهر الناظرين لوفرة المياه[٥].

ومن محاسن نيابة دمشق غوطتها التي شبّه فضلها على غيرها كفضل الجنة على الأرض[٦]، و الربوة وهي كهف في فم واديها الغربي الذي تتقسم فيه مياهها[٧]، وهي مرتفعة

---

(١) البدري، نزهة الأنام، ص٢٧ – ٢٨، ابن طولون، إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، (١٣٨٣هـ/١٩٦٤م)، ص٥٤، ٨٦

(٢) دار العدل: أول من بنى هذه الدار لكشف الظلامات وسماها دار العدل (نور الدين الشهيد)، وفي العهد المملوكي أضيفت هذه الدار إلى دار السعادة وأصبحت دار العدل مركزاً للحكومة يجلس فيها النائب وأركان الحكومة لبحث الأمور المتعلقة بادارة البلد ومحاكمة كبار الموظفين. انظر ابن طولون، اعلام، ص٥٥، العلبي، دمشق، ص٥٥، الشلبي، بلاد الشام، ص٧٥

(٣) دار السعادة: كانت داراً للملك الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك ثم امتلكها الملك الأشرف، وفي العهد المملوكي أصبحت قصراً لنواب دمشق. ابن طولون، إعلام، ص٨

(٤) البدري، نزهة الأنام، ص٢٨، العلبي، دمشق، ٥١

(٥) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار، ط١، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، ص٢٥١، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٣، قارن كذلك بما كتبه ابن فضل الله العمري، مسالك، ، ص١٧٩

(٦) ابن فضل الله العمري، مسالك، ص١٧، ابن اياس، نشق، ص١٢١، الحسيني محمد بن عبد الله (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٩م)، رحلة الشتاء والصيف، ط١، دار السويدي، أبو ظبي، المؤسسة العربية، بيروت، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ٢٣٨-٢٣٩

(٧) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢ج، ج١، المكتبة العصرية – بيروت، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م)، ص٩٤-٩٥، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٢

مشرفة على غوطة دمشق، وبها مدارس ومساجد وقاعات وخوانق[١] وقواسير[٢] – جمع قيسارية – وجوامع كجامع بني أمية[٣] وزوايا وأسواق منظمة، ورُبُط وحمامات[٤]، ومن الأماكن الأماكن الجميلة فيها الحواكير وهي كالحدائق في سفح جبل قاسيون[٥]. ومياه دمشق تأتي من نهر يسمى بردى، يخرج منه عينا ماء: البعيدة منهما دون قرية تسمى الزبداني[٦]، ودونهما عين عين بقرية تسمى الفيجة[٧]، بذيل جبل يخرج الماء من صدع في نهاية سفله قد عقد على مخرج الماء منه عقد رومي البناء، ثم ترفده منابع في مجرى النهر ثم يقسم النهر على سبعة أنهر: أربعة غرب المدينة وهي: نهر داريا[٨]، ونهر المزة[٩]، ونهر القنوات، ونهر بانياس، واثنان شرق المدينة وهما: نهر يزيد[١٠] ونهر ثورة، ونهر بردى ممتد بينهما[١١]. لذلك فقد حظيت نيابة دمشق بنظام مائي متكامل وواسع ، فالأنهار بردى والقنوات وبانياس كانت تزود المدينة بواسطة مجموعتين من الترع، واحدة للماء الصافي، وأخرى للمياه المصرفة. ومنها كانت المياه تُجلب إلى المساجد والمدارس، والحمامات والنوافير العامة والمنازل الخاصة. وقد مدت الأقنية إلى أحياء جديدة في العام (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) وحصلت إصلاحات أخرى وتحسينات حوالي ذلك التاريخ. وأنشئت خلاف ذلك نوافير عامة بين الحين والآخر لتزيين المدينة، وقد جرى تجديدها أو ترميمها من قبل الأمراء والموظفين الرسميين[١٢].

---

(١) البدري، نزهة الأنام، ص٨٢-٨٣

(٢) القواسير، مفردها قيسارية، تشبه دور الخانات قسم للنوم وقسم للتجارة، ابن كنان، المواكب، ق٢، ص٦

(٣) انظر الحديث عن جامع بني أمية، ابن عساكر، تهذيب، ج١، ص٢٠٠ــ ٢٠٥، ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٨٣-٨٧، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٦

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك، ص١٨٣، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٢، ابن كنان، الموكب، ق٢، ص٦

(٥) الخانقاة: مفرد خوانق، وهي كلمة فارسية معناها بيت وقد وجدت الخوانق في الإسلام في حدود سنة الأربعمائة من سني الهجرة، وجعلت مكان عبادة للمتصوفيين. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤١٤. البدري، نزهة الأنام، ص١٠٢

(٦) الزَّبَدَانِي: كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك منها مخرج نهر دمشق، ياقوت، معجم، ج٢، ص٤٦٧ ص٤٦٧

(٧) الفِيجَة: قرية بين دمشق والزبداني عندها مخرج نهر دمشق بردى وبحيرة، المصدر السابق، ج٣، ص٤٥٠ ص٤٥٠

(٨) دَاريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة، ، ياقوت، معجم، ج٢، ص٢٨٢، ويسمى أيضاً النهر الداراني، صلاح الدين المنجد، خطط الشام، أنهار دمشق، مجلة المشرق، السنة ٤٢، كانون الثاني، آذار ١٩٤٨، ص٤٦

(٩) المِزّة: قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق نصف فرسخ، المصدر السابق، ج٤، ص٢٦١

(١٠) يعود تسمية هذا النهر إلى يزيد بن معاوية (ت٦٤هـ/٦٨٤م) حيث كان مهندساً فنظر إلى النهر فوجده صغيراً فأمر بحفره، فمنعه من ذلك أهل الغوطة، فلطف بهم وشرط أن يضمن لهم خراج سنتهم من ماءه، فوافقوا فحفر النهر مقدار ستة أشبار وعرضه وعمقه ستة أشبار، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، دار الفكر، بيروت- لبنان، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص٣٦٩، ٣٧٣

(١١) ابن عساكر، تاريخ، ج٢، ص٣٧١، ٣٧٤. القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٥، المنجد، أنهار، ص٤١ – ٤٩

(١٢) ايرا لابدوس، مدن اسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية، علي ماضي، الأهلية – بيروت- (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص١٢٣

الفصل الأول

الفئات والرتب الإجتماعية في نيابة دمشق

استطاع مؤرخو العصر المملوكي تقسيم المجتمع إلى شرائح وفئات مختلفة، فقد تحدث ابن فضل الله العمري[١] والقلقشندي[٢] عن هذه الفئات تحت مسميات: أرباب السيوف أو الوظائف الكبار وأرباب الأقلام أو الديوان ومن ثم الوظائف الدينية[٣]. وسلك ابن شاهين الظاهري[٤] مسلكاً وسطاً في حديثه عن هذه الوظائف حيث تناول رتب أرباب الوظائف فسردها مرتبة حسب مكانتها ومنزلتها في المجتمع، وبعد ذلك عرج على كل مملكة من ممالك الشام فعدّد الوظائف فيها من غير تعريف ولا تفصيل وقلده ابن كنان[٥]. وقام السبكي[٦] وابن طولون[٧] بتعريف كل وظيفة ومهام صاحبها وما ينبغي عليه أتباعه أو تجنبه في حياته العملية، وكان عرضهما مختصراً مقارنةً بابن فضل الله العمري والقلقشندي. أما المقريزي[٨] فسار طريقاً مغايراً عمن سبقه حيث قسّم فئات المجتمع إلى سبعة أصناف من منظور اقتصادي[٩] – إن جاز التعبير – فذكر أهل الدولة وأهل اليسار من التجار ثم الباعة وهم متوسطو الحال فأصحاب المعايش – السوقة – وأهل الفلح أي الفلاحون سكان القرى والريف، ثم الفقراء وهم غالب الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، وأرباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن، وأخيراً ذوو الحاجة الذين يسألون الناس ويعيشون على فضلهم. ولجأ ابن خلدون[١٠] إلى حصر الفئات الإجتماعية في فئتين اثنتين لا غيرهما: السلطان والرعية، فقصد بالسلطان الطبقة الحاكمة – المماليك – والرعية المحكومين المغلوبين على أمرهم وهم أهل مصر، وأيده ابن

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي– القاهرة، ص٥٣–٦٢

(٢) القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٤–٤٣، ١٨٣–١٩٤

(٣) سار على طريقهما أيضاً ابن كنان، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، ط١، دار النفائس، بيروت– لبنان، (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص١٠٧–١٨١

(٤) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١١١– ١١٦، ١٣١

(٥) ابن كنان، المواكب،٢ق، ق٢، ص٨– ٢١

(٦) السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص١٣–١٤٧

(٧) ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق محمد أحمد دهمان، خالد محمد دهمان، ط١، دار الفكر المعاصر – بيروت، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٢٤–١٩٦

(٨) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق جمال الدين الشيال، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٩٨، وقد اتبع في الخطط أسلوباً آخر كان أشبه ما يكون بالسبكي مع اهتمامه بتطور المناصب تاريخياً، انظر ج٢ منه ص٢١٩–٢٢٧

(٩) للاطلاع على آراء المقريزي الاقتصادية، انظر كوكش، أحمد يحيى ، المقريزي مؤرخاً للحياة الاقتصادية في مصر في عصره، جامعة مؤتة، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص٧

(١٠) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق أبو مازن المصري، كمال سعيد فهمي، المكتبة التوفيقية، ص١٨٢

طوق[١]. ومن المتأخرين أحمد بديري الحلاق الذي أشار إلى وجود أكابر وعوام[٢]، وغيرهم أشار إلى وجود خاص وعام، أو ترك وعوام[٣].

يُستخلص مما سبق أن المصادر تحدثت عن الفئات السكانية في المجتمع المملوكي من منظور اجتماعي أو اقتصادي أو كلاهما، فكان منها من أطال الحديث وتوسع فيه وكان منها من اختصره اختصاراً مفيداً. غير أن الاختلاف والتنوع في وجهات النظر يلتقيان في العموم ولكنهما يختلفان في الخصوص. وبالتمعن في الفروقات والمميزات جميعها أمكن اعتماد ثلاثة أنماط رئيسية للمجتمع الدمشقي خلال العصر المملوكي الثاني وهي، ١- فئة المماليك وتشمل موظفي أرباب السيوف وأصحاب الوظائف الديوانية ورجال الجيش ومماليك الأمراء. ٢- فئة المتعممين وتضم القضاة والفقهاء والأشراف والمحتسبين والمدرسين والعلماء والأدباء والكتّاب وأهل التصوف والأئمة والفقراء والوعاظ والخطباء. ٣- فئة العامة وهم الخارجون عن الفئتين السابقتين، وتتكون من التجار والحرفيين والفلاحين والزعر والحرافيش والرقيق والفئات المستألفة (العربان والتركمان والأكراد) وأهل الذمة.

١- فئة المماليك

كان المماليك في فترة الدراسة صنفين هما، أولاً: الأمراء، ويتكونون من خمس فئات:

أ) أمراء المئين مقدمو الألوف، أي أن كل أمير يقوم على خدمته مائة مملوك، وهو مقدم على ألف فارس ممن دونه من الأمراء، وعددهم في نيابة دمشق ثمانية أمراء، وتعتبر هذه الطبقة من أهم الطبقات وأعلاها رتبة ودرجة، ومنهم كان يتم تعيين أصحاب الوظائف الكبار والنواب.

ب) أمراء الطبلخاناة، وكان لكل أمير من هؤلاء أربعون فارساً وقد يزيد أو ينقص، وكانت رتبتهم تأتي بعد أمراء المئين مقدمو الألوف، ويتولى عادة هذه الدرجة الكشاف بالأعمال وأكابر الولاة. وقد بلغ تعدادهم في نيابة دمشق إحدى وعشرين أميراً.

---

(١) ابن طوق، شهاب الدين أحمد (ت٩١٥هـ/١٥٠٩م)، التعليق، يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، مذكرات مذكرات كُتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي، (٨٩٧ ـ ٩٠٢هـ/١٤٩٢ ـ ١٤٩٧م)، تحقيق الشيخ جعفر المهاجر، ج٣، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ــ سوريا، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، ص ١٣٨٣

(٢) الحلاق، أحمد بديري ، حوادث دمشق اليومية (١١٥٤-١١٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م)، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، ص٩٥، ١٢٠، ١٤٩

(٣) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٩٠،٢٢٧، ٢٩٢، ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد (ت٨٥١هـ/١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق، عدنان درويش، ج٣، دمشق، (١٣٩٨هـ / ١٩٧٧ م)، ص١٩١، ٣١٨، ٣٦٠، البصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت٩٠٥هـ/١٤٩٩م) تاريخ البصروي، تحقيق: أكرم حسن العلبي، ط١، دار المأمون – دمشق، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص٩٩، ١٦٠

ج) أمراء العشرينات، وصاحبها يقوم بخدمته ما يقارب العشرين مملوكاً. وقد وصل عددهم في نيابة دمشق اثنان وعشرون أميراً.

د) أمراء العشرات، ويخدم الأمير فيها عشرة مماليك، والأمراء ضمن هذه الفئة غير محدودي العدد، فقد يزيدون أو ينقصون تماماً مثل أمراء الطبلخاناة. ولكنهم في نيابة دمشق كانوا إحدى وخمسين أميراً.

هـ) أمراء الخمسات، وتعد رتبتهم أصغر مراتب الأمراء، ويبدو أن الأمير منهم يتولى خمسة من الفرسان أو المماليك، وكانت هذه الرتبة تُمنح لأولاد الأمراء بعد وفاة آبائهم من باب التشريف وجبر الخواطر[(١)]. وقد بلغوا في نيابة دمشق ثلاثة وعشرين أميراً.

ثانياً: الأجناد، ويتألفون من ثلاثة أنواع:

أ) مماليك السلطان، وهم ثلاثة أصناف: مماليك السلطان الحالي "المشتريات" أو "الجلبان أو الأجلاب" ومماليك السلطان السابقين "القرانصة"، ومستقر هؤلاء جميعهم في مصر.

ب) مماليك الأمراء وأرباب الدولة والوظائف، ويُعرفون بأجناد الأمراء وقد كانت أعدادهم تتفاوت تبعاً لرتبة الأمير، حيث كانوا يتبعون أمرائهم ويتقاضون منهم المرتبات ووثائق الإقطاع، ويبقون على خدمته إلى أن يُعزل أو يموت فيتحولون حينها إلى خدمة السلطان أو إلى أمراء آخرين أو كليهما.

ج) أجناد الحلقة، وأعدادهم كثيرة وعناصرهم مختلفة إلا أن نفوذهم أقل من المماليك، وجرت العادة أن يكونوا من أبناء المماليك أو من السكان المحليين كالمتعممين وغيرهم الذين حصلوا على إقطاعاتهم بعد أن تنازلوا عنها فزاد ذلك من ضعفهم وقوة المماليك. وتدخل في هذه الفئة أيضاً أبناء السلاطين الأمراء والمماليك إلا أن هؤلاء قد تربوا في مصر وحمل معظمهم أسماءً عربية، ويعتبر أولاد الناس أرقى أفرادهم[(٢)].

كوّنت فئة المماليك بأنواعها وصفاتها طبقة خاصة تميزت على غيرها من شرائح المجتمع المملوكي، ولعل هذا التميز هو الذي دفع بالبعض أن يطلق عليها لقب الأرستقراطية أو

---

(١) الخالدي، المقصد، ص١٢٣-١٢٤، ١٤٥، ابن فضل الله العمري، مسالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص٢٧-٢٨، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٤- ١٥، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٢٨٨، ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١١٣، ابن كنان، حدائق، ص١٠٧-١٠٨، ١٣٤. الطراونة، الحياة، ص١١٦.
Aylon, David, The Mamluk military society, London, 1979, IV, p 190.

(٢) القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٦، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢١٥-٢١٦، ابن شاهين الظاهري، زبدة، ١٠٤، ص١١٦، العريني، السيد الباز، الفارس المملوكي، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٥، سنة (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، ص٤٧

النخبة أو الطبقة العليا[١]، وقد كان لتربية هذه الفئة في الطباق[٢] أثر بالغ في تقوقعها على نفسها وشعورها بالغربة ثم انعزالها عن باقي أفراد المجتمع حتى بعد توليها مناصب الدولة[٣]. وزاد من ذلك ايثارها الزواج واتخاذ الجواري من بنات جلدتها لا من بنات البلاد التي كانوا يحكمونها[٤]، مع الاحتفاظ بجزء من المرونة الذي سمح لها بالاحتكاك مع غيرها من الطبقات والتفاعل معها[٥].

اعتبر المماليك مع أرباب السيوف وأصحاب الوظائف الديوانية وأفراد الجيش ومماليك الأمراء الطبقة العليا في المجتمع المملوكي لاستحواذهم السلطة والمناصب الكبرى وما ترتب عليها من امتلاك المال وضخامة الثروات[٦]، وكان المقريزي عند تقسيمه للمجتمع المصري قد بيّن أحوالهم فوصفهم بأهل الدولة وجعلهم في قمة البناء الاجتماعي[٧] منوّهاً إلى أن المصدر الرئيسي لثرائهم يعود للإقطاعات[٨] التي كانت تُمنح لهم بدل الخدمة العسكرية والتي تعادل ثلثي

---

(١) آ، آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م)، ص٣٧٣، زيادة دمشق، ص٦٣، عباس، تاريخ ، ص١٤٥. الطراونة، الحياة، ص١١٧.

Taha Thalji Tarawneh. The Province of Damascus During the Second Mamluk Period, (784/1382-922/1516), 1987, p.107

(٢) الطباق، ساحة الايوان بالقلعة في مصر عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية، وكانت أيضاً مكان إقامة لهم، ويتلقون فيها التعليم الديني والحربي، فهي بمثابة المدارس العسكرية في عصر سلاطين المماليك، وقد بلغ عددها اثنا عشر طبق، المقريزي، الخطط ج٢، ص٢١٣-٢١٤، العيني، عقد، حوادث سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)، ص٣١٨، المحبي، خلاصة، ج٣، ص٢٣١، Nicolla, Men, p. 7.

(٣) طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، بورسعيد – القاهرة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٦٦، العريني، الفارس، ص٥٠-٥١، عاشور، سعيد عبد الفتاح ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط٢، دار النهضة العربية – القاهرة، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص١٩-٢٠، Tarawneh The Province, P.107

(٤) النويري، شهاب الدين أحمد (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١، تحقيق نجيب مصطفى فواز، حكمت قشلي فواز، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، ص١٠٣، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٢٩١، ٤٧١، ٥٤٩، ٥٥٢، الغرسي، زين الدين عبد الباسط بن خليل (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، نيل الأمل في ذيل الدول، ج٢ق٧، ص٧٢، ج٢ق٨، ص١١٤

(٥) مثال على ذلك أن القاضي همام الدين بن الشيخ قوام الدين كان جندياً له إقطاع ثم ولي الحسبة في دمشق سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٧م)، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٩٥، انظر أيضاً فيما يتعلق بالموضوع ذاته ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣١٦، زيادة، دمشق، ص٦٤، طرخان، إبراهيم علي، النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٣٠٠

(٦) Tarawneh The Province, P.107، آشتور، التاريخ، ص٣٧٠، ٣٧٢، مبارك محمد الطراونة، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٦م)، ط١، دار جليس الزمان، عمان، (١٤٣١هـ/٢٠١٠)، ص١٢٢، ١٢٤

(٧) المقريزي، إغاثة، ص٩٨

(٨) الإقطاعات، جمع إقطاع، اقتطع الشيء لغة أخذه، أما اصطلاحاً فيعني منح أراض بغرض الانتفاع بها وبدخلها، وقد مُنحت هذه الأراضي للجند في فترة الدراسة، ويشير المقريزي أن الأموال كثرت بأيدي طبقة المماليك بسبب ما يتحصل لهم من خراج الأرضي المقطعة، العمري، مسالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص٤٧، المقريزي، الخطط، ج١، ص٩٥، ج٢، ص٢١٦، ابن كنان، حدائق، ص٩٥

ثلثي إقطاعات أمراء مماليك مصر باستثناء نائب الشام الذي يتفوق عليهم بإقطاعه البالغ مائتي ألف دينار كإقطاع أكابر أمراء مصر تماماً[١].

وساهمت الهدايا المختلفة والانعامات السلطانية من أموال وخيول وثياب في سرعة غناهم وازدياد ثرائهم[٢] إضافة إلى الأموال التي كانوا يجمعونها من الدورة[٣] على مناطق النيابة[٤]. وقد انعكست أحوالهم الاقتصادية المزدهرة على حياتهم وطريقة عيشهم، فقد اتخذوا زوجاتهم من الخوندات، فقدموا لهن من المهور ما يليق بمقامهن كبنات السلاطين أو الأمراء[٥]، واختار كل أمير لوناً معيناً لطلاء داره ومطابخه ومراكبه، كما اتخذ رمزاً أو علامة خاصة به دُعيت بـــ (الرنك) كانت توضع على فراشه وداره وسلاحه وأدواته المنزلية، ومنهم من كان ينقشها على عملته[٦]، فغدت حياته كحياة السلاطين ولكن بشكل مختصر كما أشار القلقشندي، وكان كل أمير منهم يمتلك بيوتات كريمة كالطشت خاناه والفراش خاناه والطبلخاناه[٧]. أما أطعمتهم فكانت هي الأخرى دليلاً آخر على كثرة أموالهم[٨]، فقد قيل عن النائب قصروه (ت٩٠٦هـــ/١٥٠١م) أن نفقته كل يوم ألف دينار، ومن الشعير ثلاثون غرارة، ومن اللحم عشرون قنطاراً ومن الدجاج عدة مائة ومن الأرز عشرون ومن الخرفان عشرة[٩].

---

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص٢٩، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٥٠، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢١٦

(٢) النويري، نهاية، ج٣٠، ص١٢، ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٢٣، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٢٩٩، ٦٠٥، ٦٥١، العيني، عقد، حوادث سنة (٨٢٤هـــ/١٤٢١م)، ص١٢٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٣٧، ج١٢، ص١٩٤، ج١٣، ص١١٨، ابن طوق، التعليق، المعهد الفرنسي، دمشق – سوريا، ١٤٢٣هـــ/٢٠٠٢م، ج٢، ص١٠٢٩.

(٣) الدورة: ما يجمعه النائب من الأموال في جولته على مناطق النيابة. البصروي، تاريخ، ص١٧٦.

(٤) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٣٧، ٥٤٦، ج٤، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق – سوريا، ١٤١٧هـــ/١٩٩٧م، ص١٢٢، العيني، السيف، ص٢٤٥، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص١٩٨، البصروي، تاريخ، ص١٧٦، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص١١٦

(٥) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـــ/١٤٩٦م)، الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة، تحقيق جودة هلال، محمد محمود صبح، الدار المصرية، القاهرة، ص٨، ابن الحمصي، شهاب الدين أحمد بن محمد، (٩٣٤هـــ/١٥٢٧م)، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ٣م، ط١، المكتبة العصرية – بيروت، (١٤١٩هـــ/١٩٩٩م)، م١، ص٩٣، ١١٤، ٢٦٠– ٢٦١

(٦) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٦١– ٦٢، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٤٩، المنهل، ج١، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٠٥هـــ/١٩٨٥م، ص٢٠، ج٣، ص١٠٩، طرخان، النظم، ص٣٠٤

(٧) اليوسفي، نزهة، ص٦٢، القلقشندي، ج٤، ص٦٠

(٨) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٨٢، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢١٠–٢١١، ابن اياس، بدائع، ج١ق١، ص٥٧٤، ابن الحمصي، حوادث، ج٢، ص١١٧

(٩) ابن طولون، إعلام، ص١١٢، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، لبنان، (١٤١٨هـــ/١٩٩٨م)، ص١٨٥، ورد لدى ابن المبرد (ت٩٠٩هـــ/١٥٠٣م) في ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ج٣، تحقيق محمد أسعد طلس، بيروت (١٣٦٢هـــ/١٩٤٣م) ص٢١٠ أن عنوان الكتاب

وبجانب الطعام وُجدت التقادم، التي كان يقدمها أمراء المماليك للسلطان في القاهرة لا سيما النواب، ولعظمها وأهميتها ضُرب بها المثل، وقام العيني باتخاذها عناوين فرعية لبعض فصول مؤلفاته[١]، كما قام غيره بالحديث عنها كالمقريزي، حيث أشار سنة (٨٣٠هـ/١٤٢٦م) إلى تقدمة النائب سودون بن عبد الرحمن (ت٨٤١هـ/١٤٣٨م)، فذكر أنها احتوت مالاً مقداره عشرة آلاف دينار افرنجية وقماشاً وفرواً بثلاثة آلاف دينار، وبعد ذلك بسنتين قدم النائب ذاته تقدمة أخرى فيها مال مقداره خمسة عشر ألف دينار وحلل وثياب وحرير وفرو وغيره[٢].

ووصف آخرون تقدمة للأمير جلبان المؤيدي (ت٨٥٩هـ/١٤٥٥م) فذكروا أنها تقدمة هائلة كونها اشتملت على خيول تزيد عن مائتي فرس وصوف وأنواع الفراء البعلبكي والمخمل وقماش الحرير وعشرة آلاف دينار ذهبية حملها الحمالون الذين بلغ تعدادهم قريب الثلاثمائة حمال[٣].

وتمت الإشارة إلى تقدمة نائب الشام سيباي بن بختجا (ت٩٢٢هـ/١٥١٦م) للسلطان قانصوه الغوري (ت٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) فقيل بشأنها " ... أرسل النائب تقدمة للسلطان عدة أربعة عشر سدراً على رأس كل رجل سدر مغطّى بلون من الألوان في أربعة سدور وخمسون ألف درهم فضة، وفي بقية السدر قماش مفتخر، وخلف هذه السدور عدة عشرة من مماليكه الخاص الكتابية الحسان وخلفهم عدة عشرة من الخيول الخاص"[٤]. ولوفرة المال وضخامة الثروات لدى أمراء المماليك قام أحد نواب دمشق بشراء مدينة عمان بالبلقاء بأكملها سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٥م) وتكلف عمارتها حتى صارت كأم البلاد[٥]. ومثلت الأزياء التي كان يرتديها المماليك جانباً آخر من جوانب إسرافهم وحياتهم الرغيدة. لقد اختص الأمراء بزي معين عليه كامل الفخامة والروعة والترف الشديدين فضلاً عن التعقيد والتنوع في مفرداته وألوانه، فكان النائب منهم يلبس خلعة كامليه – رداء أو عباءة – خضراء أو حمراء أو صفراء بمقلب

مفاكهة= =الخلان في نوازل الزمان، كما ورد هذا العنوان عند ابن كنان في حدائق الياسمين ص١٨٥. للمزيد انظر: ابن طوق، التعليق، ج٣، ص١١٥١.

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٢٢٣، العيني، عقد، حوادث (٨٢٤-٨٥٠هـ/١٤٢١-١٤٤٦م)، ط١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٦٤٢

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٧٣٣، ٨٠١-٨٠٢، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص٢٩٠، ج١٥، ص٢١٧، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص٢٥٤

(٣) العيني، عقد، حوادث سنة (٨٤٦هـ/١٤٤٢م)، ص٥٨٢، ابن تغري بردي، حوادث، ج١، ص٢٧٢

(٤) ابن اياس، بدائع، ج٥، ص٧١، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٩، إعلام، ص٢١٣، للمزيد حول التقادم انظر ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص١٣١-١٣٢، ابن تغري بردي، حوادث، ج١، ص١٠٨، النجوم، ج١١، ص٢٣٨، ج١٢، ص١٩٣، الصيرفي، نزهة، ج١، ص٤٤٠، الغرسي، نيل، ج٢ق٥، ص٢٥٠، ج١ق٦، ص٢٣٩

(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٥٥٠

سمور[١] وكلوته[٢] أو كلفتاه[٣] بكنبوش خاص[٤]. وفي الغالب كان يطلق على هذه الثياب أسماء مرادفة للمناسبة التي منحت من أجلها، فنجد خلعة النيابة لمن أصبح من الأمراء نائباً[٥]، والاستمرار والرضا لمن امتدت خدمته في الوظيفة[٦]، وخلعة السفر لمن استأذن السلطان بالرحيل[٧]، والشتاء لمن حل عليه فصل الشتاء[٨]، وهناك خلع بدون مناسبة[٩]، وعموماً فقد اختلف عدد الخلع تبعاً للمناسبات وللأشخاص[١٠].

وكانت التركات إضافة إلى ما ذُكر من الأدلة الواضحة على الترف والنعيم الذي كان يحياه المماليك وعلى رأسهم نواب الشام[١١]. لقد استُخدمت طرق عديدة للحصول على المناصب السياسية والادارية مثل استخدام "البذل" أي دفع مبالغ نقدية للسلطان أو النائب مقابل الوظيفة وطمعاً في المردود المالي المترتب على توليها[١٢]، كما دفعت آخرين إلى العصيان والمخامرة على السلطان آملاً في الحصول على مكاسب أكثر من التي بحوزتهم[١٣]. وكان السلطان بدوره

---

(١) مقلب (بقلابه) سمور: أي بصوف فرو سمور ثعلب أسود، ابن الحمصي، حوادث ، م١، ص٣٠١، ل.١. ماير، الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة، ص٢٦، ٣٦، ٤٦

(٢) كلوته (kalautah): غطاء للرأس للأمراء يصنع من خامة فاخرة لونها أحمر اعتبرت رمزاً للأرستقراطية العسكرية الذين أطلق عليهم أحياناً اسم "المكلوتون" Mukalwatun، ماير الملابس، ص٤٢، ٥٢ – ٥٣

(٣) الكلفتاه (Kalaufah) غطاء للرأس، كان يميز الأمراء حتى اعتبر لباسه دلالة على الطاعة سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٧م)، ابن اياس، بدائع، ج١ ق٢، ص٧٦٩، ٧٧١

(٤) كنبوش جمعها كنابيش، وهو طرف الحل للدابة وكان يزخرف بالذهب أو البرذعة تجعل تحت سرج الفرس، ويجعل فوقها الغاشية، وهو غطاء مزركش يوضع فوق البرذعة، ابن حجي، شهاب الدين أبو العباس أحمد (ت ٨١٦هـ/١٤١٢م)، تاريخ ابن حجي، ٢م، تعليق أبو يحيى عبد الله الكندري، ط١، دار ابن حزم، بيروت ــ لبنان، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، م١، ص٣٧٠، ابن طولون، إعلام، ص٧٩، ٩٥، ٩٨، ١٠٥، ١٣١، ١٤٥

(٥) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٤٠

(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٢١، الصيرفي، ج٢، ص٦٠٧، ابن اياس، بدائع، ج١ ق٢، ص٧٨٧، ابن طولون، إعلام، ص٩٨

(٧) ابن طوق، التعليق، ج٤، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ١٥٧٣، المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٦٨، ابن اياس، بدائع، ج١ ق٢، ص٣٤٥

(٨) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٠٩، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٣، ١٣٣، ١٤٥، ١٦٠، ١٩٢، ماير، الملابس، ص١٠٩

(٩) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٦٣

(١٠) بلغ عدد الخلع التي جاءت لنائب الشام سيباي بن بختجا آخر نواب دمشق ستة وثلاثين خلعة، انظر: ابن طولون، إعلام، ص٢١٢

(١١) النويري، نهاية، ج٣١، ص٩، ابن دقماق، الجوهر، ص١٧٠، الصيرفي، إنباء، ص٢٣٣، ٢٤٤، ٢٦١، ٢٧٥، البصروي، تاريخ، ص٢٣٦، ٢٤٢، ابن اياس، بدائع، ج١ق١، ص٤٧٨

(١٢) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٧٣٧، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، تحقيق إبراهيم علي طرخان، الهيئة المصرية العامة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٤٠، المنهل، ج٤، ص١٦١، ١٦٦، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٩، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص٣٥١، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص١٧٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٦٢، ١٤٢

(١٣) ابن صصري، محمد بن محمد، (ت٨١٠هـ/١٤٠٧م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم برنر، أكسفورد، مكتبة بودليان، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، ص٣-٤، المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص١٨٤، ابن تغري بردي، مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، م٢، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار=

قد اتخذ سياسة يضمن من خلالها تخفيف حدة العصيان وبسط سيطرته، فقد كان يقوم بين الحين والآخر بتغيير أوضاع موظفي دولته الكبار إما بالعزل أو التعيين أو بالنقل ليضمن مردوداً مالياً خاصاً به جراء المصادرة والرشوة وليحافظ على استقرار حكومته وأمنها(١). ولجأ بعضهم إلى سياسة تحليف النواب على طاعتهم وعدم الخروج عليها كلما شعروا بناقوس الخطر يدق في عروشهم(٢).

إلا أن طريقة الالتزامات المالية التي كان يفرضها السلاطين على أمرائهم بدت أفضل الطرق وأنجحها في الحد من عصيانهم وكبح جماحهم، فبعيداً عن التقادم التي سبق وأن تم الإشارة إليها، كان السلاطين يلزمون الأمراء ومنهم نواب دمشق بدفع مبالغ نقدية خاصة لهم وتهيئة الإقامات أي المبالغ التي ينبغي تأمينها من قبل النواب حينما يقرر السلطان في مصر التوجه إلى بلادهم(٣).

وهناك ضريبة تسمى المشاة كان يجبيها النائب من الناس مساهمة في النفقات العسكرية أيام الحرب(٤)، ويزداد الأمر سوءاً إذا تصادف جمع ضريبة السلطان مع ضريبة النائب فوقتها يمكن تصور العبء المادي الذي كان يتكلفه الدمشقي وما ينتج عنه من غبنه والإساءة إليه(٥).

لقد سلك الأمراء سلوكاً ظالماً في سبيل تأمين التزامات السلطان المالية فاستخدموا الرميات والمصادرات وغيرها في سني حياتهم(٦)، وبعد مفارقتهم الحياة كانت الالتزامات تستمر فيتم عند موتهم إرسال سيوفهم إلى مصر كما يحاط على تركتهم ليتم توزيعها أو بيعها(٧).

=الكتب المصرية- القاهرة، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص١١٦، ١٢٧، النجوم، ج١١، ص١٨٢، ٣٥٢، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص٢٥

(١) المقريزي، السلوك، ج٣ق٢، ص٤٧٣-٤٧٤، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٩٧، ١٠٦، ١٣٧، ٣٣٧، ٣٤٥، ٤٧٧، ٥٣٧، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص١٥٥، البصروي، تاريخ، ص٧١، انظر تعليق الغرسي، سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٥م على ذلك حيث ذكر أن السلطان حصل في هذه التنقلات نحواً من خمسة وثلاثين ألف دينار، نيل، ج٢، قسم ٦، ص٢٠٠.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٦٦، ابن الصيرفي، ج٢، ص٢٠، ابن الحمصي، حوادث، ج٢، ص٢٧٧، الغرسي، نيل، ج١ق٢، ص٢٩٤

(٣) ابن صصري، الدرة، ص١-٢، المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص١٩٠، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٤٣، الصيرفي، إنباء، ص٢٤٤

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٧٣، البصروي، تاريخ، ص١١٣، ١٨٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٢١٢، ٢٢٢، ٢٥٠، ٢٧١، ٢٧٧

(٥) ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٩٣٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٩، إعلام، ص١٤٩

(٦) البصروي، تاريخ، ص١٩٧-١٩٨، ابن الحمصي، حوادث، ج٢، ص١٤٠، ١٤٦، ١٩٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٧، ١٠١، ١٩٥، ٢٠٠، ٢١٦، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٩٤

(٧) الصيرفي، إنباء، ص٢٤٤، ٢٦١، البصروي، تاريخ، ص١٠٣، ٢٣٥، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص٣٦٢، ٤٠٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١٦٧-١٦٨، إعلام، ص٦٣، ٨٢

واتخذ السلطان تدابير أخرى لكبح جماح أمرائه لا سيما نوابه، فاختار من الموظفين في دمشق من يراقب ويرصد تحركاتهم وخطواتهم كحاجب الحجاب ونائب القلعة[١]، مما سبّب تنافراً بين أفراد فئة المماليك وكراهية بعضهم بعضاً غالباً[٢]. غير أن ذلك لا يمكن بحال أن يُعمّم أو أن يبقى دائماً، وعلى النقيض منها كانت علاقتهم مع العوام سيئة يكتنفها الأذى والفساد مما دفعهم إلى كرههم وتمني زوال نعمهم أو موتهم أو إبعادهم عن دمشق بسبب مظالمهم[٣].

سبّبت المظالم التي قام بها بعض أفراد هذه الفئة ألماً وضيقاً بالغين لأهل دمشق مما دفعهم لمواجهتها بعدة سبل أبرزها الشتم والسباب أو الاحتجاج والرفض لمن يقومون بها، أو التكبير في مآذن الجوامع والدعاء على أصحابها أو الشكوى لمن هم أعلى رتبة اجتماعية من ممارسيها، او قتل مرتكبيها[٤].

وعلى عكس هذه المجموعة وصف أفراد أخر من المماليك بحسن التدبير وانتهاج السيرة الحسنة مع الناس وتشييد المؤسسات الدينية من جوامع ومدارس وخوانق وغيرها[٥]. وبدت فئة ثالثة من الأمراء غير واضحة المعالم ولا يمكن الحكم المطلق على تصرفاتها لازدواجها، فهي تقوم بأعمال البر وتسلك سلوكاً ظالماً بجانبها[٦].

٢- فئة المتعممين

شكّل المتعممون أو ذوو العمائم أو بني عمامة[٧]، من قضاة وخطباء ووعّاظ وأشراف وفقهاء ومدرسين وعلماء وأدباء وكتّاب وأهل تصوف ومحتسبين وأئمة وقرّاء الفئة الثانية بعد المماليك[٨]. وقد تميز هؤلاء خاصة العلماء والقضاة بارتداء العمائم على رؤوسهم، بحيث بدت

---

(١) ابن صصري، الدرة، ص١٧٢، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٥٢، البصروي، تاريخ، ص١٧٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٣، ٢١٦

(٢) اليوسفي، نزهة، ص٦٥، النويري، نهاية، ج٣٠، ص٢٤٨، ج٣١، ص١٣٢، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٤٧، ١٩٤، ٢٠٧، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص١١٠

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٠٤، ٣٣٥، ٤١٦، ٤٤٦، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص١٦٠، ٢٨٥، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٦٥، ١٧٦، ٢٧٠، ٢٧٤، ابن طولون، إعلام، ص٦٢-٦٣، مفاكهة، ص١٣١، ٢٨٧

(٤) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٤٠، ٢٩٦، ابن صصري، الدرة، ص١٧٠، ٢٠٨، ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٩٨، المقريزي، السلوك، ج٣ق٢، ص١١٥٣ ج٤ق١، ص١٧٤

(٥) ابن صصري، الدرة، ص٦٣، ١٣٣، ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٨٨، ٢٣٣، ٢٦٠، ٢٧٣، ابن طولون، إعلام، ص٤٧، ٥٢، ٦٥

(٦) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٤

(٧) ابن فضل الله العمري، مسالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص٥٠، ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٧١، ابن الجيعان، القول، ص٤٨، البصروي، تاريخ، ص٢٠١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٢٢، ٤٩٤، ج٢، ص٥٩١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٤١، الطراونة، الحياة، ص١٢٩.

(٨) ابن فضل الله العمري، مسالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص٥٠، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٤١-٤٢، عاشور، المجتمع، ص٣٥، الطراونه، الحياة، ص١٣٠

هذه العمائم الجزء الأكثر أهمية في لباسهم كونها أكبر حجماً من عمائم الآخرين[١] (وقد وصفها البعض أيضاً بالبرج)[٢]. وكانت عمائمهم من الشاشات الكبار، ومنهم من يرسل على كتفيه ذؤابة، ومنهم من يجعل بدل الذؤابة الطيلسان – تشبه الطرحة – ويلبسون فوق ثيابهم دلقاً – ثوباً تحت العباءة – متسع الأكمام بغير تفريج – فتحة – على أكتافهم، ويتميز لباس قضاة الشافعية والحنفية بطرحة تغطي عمائمهم وتتدلى على أظهرهم، وباستثناء القضاة والعلماء من المتعممين، كانت عمائم الآخرين ألطف وأقل حجماً. أما الأشراف فقد لبسوا الطراز الأخضر والعصائب الخضر فوق العمائم، وحرّمت فئة من المتعممين على أنفسهم لباس الحرير، كما امتنعت عن ارتداء الملابس الملونة، غير أنهم في سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٧م) بدأوا بارتداء الأصواف المربعة الملونة، وكانت العادة القديمة ارتداء البياض في الصيف والأقمشة البعلبكية ونحوها، وفي الشتاء الصوف الأبيض[٣].

أما ركوب هذه الفئة فيظهر أنها كانت البغال غالباً، ثم سمح لهم بركوب الخيول إلا أن ذلك مُنع سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، "فقد نودي أن لا يركب أحد من المتعممين فرساً"، ومما يؤكد المنع ما تم سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) حيث عاد أحد القضاة لمنصبه وأضيف إليه مناصب دينية أخرى فمُنح بغلة من الاصطبل السلطاني بالقماش والزنادي[٤].

وعلى النقيض من فئة المماليك أظهرت فئة المتعممين تفاعلاً واحتكاكاً اجتماعياً مع فئات المجتمع المملوكي المختلفة لكون أفرادها عرباً من سكان البلاد الشامية[٥]، مع وجود بعض بعض الاستثناءات[٦].

---

(١) فقد قيل عن أحد الفقهاء أن له عمامة تزيد عن ثوب بعلبكي، السخاوي، التبر، ص٣٧٤، ماير، الملابس، ص٨٩

(٢) ابن عربشاه، شهاب الدين أبو محمد أحمد بن محمد (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص٥٠-٥١، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٤١-٤٢، ابن تغري بردي، المنهل، ج١، ص٤٠٧، الغرسي، نيل، ج١ق٢، ص٣٧٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٦، المحبي، خلاصة، ج٣، ص١٠٣، طرخان، النظم، ص٣١٤

(٤) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٤٢، الغرسي، نيل، ج١ق٢، ص٢٩٧، ج٢ق٥، ص١٣٣

(٥) Tarawneh, The Province, 110 عاشور، المجتمع، ص٣٥

(٦) فقد كان الأمير منكلي بغا الشمسي أول تركي تولى الحسبة سنة (٨١٦هـ/١٤١٣م)، وكان العالم جلال الدين محمد (ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م) جندياً يلبس زي الأجناد، انظر ابن العراقي ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، الذيل على العبر في خبر من غبر، ق٢، ط١، مؤسسة الرسالة- بيروت، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م) ، إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، ط١، ج٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص١١٠، للمزيد أيضاً ص٩٣، طرخان ، النظم، ص٣٠٦

حظِيَ المتعممون بعناية ورعاية سلاطين وأمراء المماليك، فقد تم تنظيمهم منذ البداية في تكتلات وتجمعات خاصة دعيت بـــ نقابة المتعممين أو رئاسة المتعممين[(١)] لعلو مكانتهم وكثرة أعدادهم. وتبوأ القضاة منهم لا سيما القاضي الشافعي منزلة رفيعة تمثلت في مرافقة مواكب النواب وتصدر اجتماعاتهم ومجالسهم[(٢)]، إضافة إلى تلقيهم النعوت والألقاب السامية واستقبالهم بالتبجيل والاحترام والخلع والهدايا[(٣)].

وقد شجعت هذه الأمور بعض المتعممين على التقرب من المماليك بحلو عباراتهم وحسن أخلاقهم فكانوا يسدون إليهم النصح والإرشاد فيزيد إقبال النواب والأعيان عليهم فتعلو مكانتهم ويرتفع قدرهم[(٤)]. وتجرأ بعضهم الآخر على الحكام فأخذ ينكر المنكر عليهم ويغلظ لهم القول ويأمر أولاده وأتباعه بالابتعاد عن تقلد الوظائف وربما كتب كتاباً إلى النائب نصه "إلى فلان المكّاس أو الظالم أو نحو ذلك فلا يخالفون له أمراً ولا يردون له شفاعة"[(٥)]. فعظم تقدير واحترام الناس لهم، والدليل على هذا أن أهل طرابلس كانوا يعتقدون الكمال في القاضي شهاب الدين بن الحبّال (ت٨٣٣هـــ/١٤٣٠م) لقيامه على المماليك، فيقولون مثلاً أنه لو جاز أن يبعث الله نبياً في هذا الزمان لكان هو[(٦)]. إلا أن بعض العلماء رأى في معاشرة المماليك والتقرب إليهم إليهم عيباً يقلل من قدر وقيمة المتعمم ففضّل الانعزال والابتعاد ليس عن المماليك فقط بل عن جميع الناس أيضاً[(٧)].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣ق٢، ص٨٦٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٤١

(٢) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ٦م، م٥، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ص١٣٤-١٣٦، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٦، ١٩٢، ١٩٥، ابن طولون، قضاة دمشق، الثغر البسّام في ذكر من وليّ قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٧٦هـــ/١٩٥٦م، ص١٥٦، دهمان، ولاة، ص٤١

(٣) ابن حجر، إنباء، ج٧، ص١٥٥، ابن تغري بردي، حوادث، ج١، ص٩٤، البصروي، تاريخ، ص١٤٦، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٨٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٦، ١٨٢، ١٩٠، ٢٠٧، حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي (٦٥٦-٩٢٢هـــ/١٢٥٨-١٥١٦م)، دراسة ونصوص مؤسسة الرسالة، ص٣٥٥

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥١، البصروي، تاريخ، ص٥٨، ٦١، ١٧٠، ١٧٨، النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـــ/١٥٢١م)، الدارس في تاريخ المدارس، ٢ج، تحقيق جعفر الحسيني، مكتبة الثقافة الدينية، (١٤٠٨هـــ/١٩٨٨م) ٢ج، ص١٢٦، ١٤٥، ٢٠٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٧

(٥) الحنبلي، شذرات، م٨، ص٥٢٣-٥٢٤، الغرسي، نيل، ج١ق٢، ص٢٣٨

(٦) ابن طولون، قضاة، ص٢٩٦، للمزيد انظر ابن حجي، تاريخ، ص٩٧٠، م٢، ص١٠٢٢، البصروي، تاريخ، ص١٧٠، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٢١، العليمي، مجير الدين بن عبد الرحمن بن محمد (ت٩٢٧هـــ/١٥٢٠م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ج، مكتبة المحتسب، عمان ـــ الأردن، (١٣٩٣هـــ/١٩٧٣م)، ص١٦٤، ١٨٥-١٨٦

(٧) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٩٣، ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية، تحقيق أحمد فريد فريد المزيدي، محمد علي بيضون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، (١٤١٩هـــ/١٩٩٨م)، ص١٩١، أنباء، ج٧، ص٢٨٤

أما من وجهة نظر المماليك فإن المتعممين لا سيما القضاة كانوا بمثابة حلقة وصل بينهم والرعية لأنهم أكثر قبولاً لدى السكان لكونهم عرباً أولاً وبصفتهم ممثلي الشرع ثانياً، لذلك فقد لجأ إليهم النواب في القضايا التي تتطلب إقناع الرعية ومنع تذمرها ومن ثم موافقتها، ففي سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٥م) كُلف الوزير بأخذ مال من القرى والمزارع بظاهر دمشق بعد ترتيب ذلك مع النائب وأركان الدولة ثم عدل القرار وتم تكليف قاضي القضاة بدلاً من الوزير باستخلاص المال لكونه أقرب إلى النفوس من الوزير، وتكررت الظاهرة في سنتي (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) و(٨١٣هـ/١٤١٠م)[١].

ونتيجة لكل ذلك زادت عظمة وقوة بعض القضاة فأصبحوا يتكلمون بالحق ولو على السلطان، فيرفضون مثلاً طلبه في أخذ أموال الأيتام على سبيل الاقتراض، ويبطلون نصف العشر الذي كان يؤخذ من أموال اليتامى، كما صاروا يشترطون في قبولهم منصب القضاة عدم لبس خلعة الحرير والركوب في المواكب والعيد والمحمل، وعدم المحاباة وإنكار المنكر[٢]. وتطور الحال بتدخلهم في الأحداث السياسية، فقد قام القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر بن مسلم بن سعيد القرشي الشافعي (ت٧٩٣هـ/١٣٩١م) قاضي قضاة دمشق بتحريض العامة على قتال الملك الظاهر برقوق سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م) وأشاع فيهم أن قتال برقوق أوجب من صلاة الجمعة لكونه ارتكب الآثام وخرج عن الدين. وكان للقاضي عماد الدين أحمد بن عيسى (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) رأياً مخالفاً بشأن الملك الظاهر برقوق، حيث خوّف أهل الكرك عاقبة قتل الملك برقوق ونفّرهم من القاضي القرشي حتى استجابوا لنصحه[٣].

وعندما أراد تيمورلنك (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) الاستيلاء على دمشق بعد سيطرته على حلب سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) طلب الصلح من أهل دمشق على أن يتم ذلك عن طريق رجل عاقل، فوقع الاختيار على قاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن مفلح الحنبلي (ت٨٠٣هـ/١٤٠١م)[٤]، فأخذ الرجل يثني ويخذل الناس عن قتاله ويحسن لهم اعتقاده ودينه حتى أطاعته فئة وعصته أخرى، عندها صمم القاضي على إتمام المصالحة فنادى بين الناس

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٧٥، ٧٢٥، ٩٢٧، ابن حجر، أنباء، ج٦، ص٢٩٨، المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص٢١٠-٢١١، انظر، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٤١٥، الغرسي، نيل، ج٢ق٥، ص٣١٠

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٥٩، ٢٠٢، ابن طولون، قضاة، ص١٢٣، ١٦٠، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٩٥، مفاكهة، ص١٣٠، ١٣٤

(٣) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص٢٠، ٢٤، ١٢٣، ٢٤٩، المنهل، ص٤٦، ٥٤- ٥٥، الغرسي، نيل، ج١ق٢، ص٣٠٣

(٤) يعلق الغرسي على فعل هذا القاضي فيقول "هو أصل للخيانة بدمشق في تلك الأيام"، نيل، ج١ق٣، ص٥٣، ص٥٣، وانظر الرأي المخالف له لدى الصيرفي، نزهة، ج٢، ص١٢٥.

"إنه من خالف ذلك قُتل وهُدر دمه" فامتنع الناس وقتها عن القتال وانحاز لرأي قاضي دمشق بعض القضاة[١].

وظهر دور القضاة سياسياً سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) عندما ثار أهل حلب ضد نائبهم تغري برمش (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م) بسبب محاصرته قلعة حلب وإشرافه على أخذها، وكان المحرّض على ثورتهم القضاة وشيوخ العلم حيث حملوا المصاحف على رؤوسهم وصاروا ينادون من فوق الأسوار (الغزاة)، فيرغّبون الناس بالجنة ويشجعونهم على الثبات إلى أن رحل تغري برمش عن المدينة[٢].

وعلى أثر ذلك برزت إشكالية تتعلق بمثول القضاة أمام حكام السياسة أو مثول رجال السياسة أمام القضاة، وتم حل القضية بإصدار مرسوم سلطاني سنة (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) يأمر القضاة بعدم طلب أحد من حكام السياسة، وكذلك حكام السياسة لا يأخذون أحداً من مجالس الشرع، وكان سبب صدور المرسوم أن قاضي القضاة المالكي شهاب الدين التلمساني (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م) طلب غريماً لدى حاجب فامتنع الأخير من إرساله، فطلب القاضي الحاجب وأهانه، فتعصب الأمراء وكتبوا بتفاصيل الحادثة للسلطان، فجاء الرد بعزل القاضي وإصدار المرسوم[٣]. وتم في سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) الترسيم – الاحتراز – على قاضي الحنفية في بيت أحد الأمراء الكبار، وعندما أُخرج من الترسيم ألبسه الأخير خلعة، فرآه النائب وتجاهل الذي حصل معه وطرح عليه أسئلة كان الهدف منها التقليل من شأنه من مثل: أين كنت؟ ولم لم تحضر المواكب؟ ومن خلع عليك؟ فأجاب القاضي عن هذه الأسئلة، ثم غادر المكان منكسراً ذليلاً[٤].

ولذلك لم تؤت اعتراضات المتعممين على أعمال المماليك أكلها، إذ وُصفت هذه الاعتراضات بأنها لم تكن أكثر من ايماءة أو تنبيه فقط[٥] لا سيما في أواخر عصر المماليك الجراكسة. فعندما انتشر الطاعون في دمشق سنة (٩١٩ هـ/١٥١٣م) أمر النائب بصيام ثلاثة أيام وإعلان التوبة وزيارة المزارات وإظهار التقوى للحد من خطر الطاعون، فتوجه القاضي الشافعي ناصحاً النائب بضرورة مراعاة الحقوق والابتعاد عن ممارسة الظلم. فما كان من النائب

---

(١) ابن عربشاه، عجائب، ص٢٥٢، ابن تغري بردي، المنهل، ج٤، ص١٣٨، ابن طولون، قضاة، ص٢٨٨، للمزيد حول تدخل المتعممين بالأحداث السياسية انظر أيضاً ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٦٥، ٦٦٨، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٥– ١٨٦
(٢) المقريزي، السلوك، ج٢ق٣، ص١١٤٢، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص٢١٦– ٢١٧
(٣) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٠ –٢١، ابن طولون، قضاة، ص٢٥٩، ٢٦١
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٨٧
(٥) آشتور، التاريخ، ص٣٧٣، عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، الجامعة الأردنية – عمان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٤٨

إلا أن زجره وأسمعه الكلام السيء[١]. ونال آخرون نتيجة تدخلهم في أحوال المماليك أشكالاً مختلفة من المظالم كالمصادرات والسجن والنفي والإهانة والضرب بالمقارع والقتل[٢].

أما عن علاقة المتعممين بالناس، فتبدو على العموم أحسن حالاً من علاقتهم بالمماليك، فقد كان أهل دمشق يُظهرون تقديرهم واحترامهم للعلماء والقضاة وغيرهم ممن عُرفوا بالنزاهة ومراعاة الآخرين من خلال ألقاب التقدير والتفخيم التي سبقت أسمائهم[٣]، كما كانوا يقدمونهم على أنفسهم في زحام الأسواق عند البيع والشراء، ويلجأون إليهم في قضاء حوائجهم والتوسط بينهم وأهل الدولة، وكانوا يستقبلونهم عند عودتهم من السفر ويحتفلون بهم عند تقليدهم المناصب[٤].

وكان المتعممون فيما بينهم يميزون العالم الجيد من غيره، فيُظهرون الاحترام والإجلال له كما حدث سنة (٧٩٦هـ/١٤٩٤م) عندما حضر قاضي القضاة إلى الخانقاه السميساطية، فجاء القاضي عبد الرحمن الكفيري (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) فجلس في مكان أحد الشيوخ الأجلاء المشهورين بسعة العلم، وعندما رآه الشيخ قد جلس في مكانه خرج من المدرسة، فأنكر الناس فعل الكفيري وتم عزله من نيابة الحكم[٥].

كما سادت بينهم الاختلافات الفقهية الايجابية التي أعطت مؤشراً على وجود نوع من الحرية العلمية الدينية[٦]، إلا أنهم في بعض الأحيان كانوا لا يتورعون عن الإساءة إلى بعضهم البعض، لاسيما عندما يضعون نصب أعينهم المصلحة الخاصة على العامة وإبطال ومخالفة

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٢، ٣٠٦-٣٠٧، للمزيد انظر: ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٦٥، ابن حجر، أنباء، ج٨، ص١٣، ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ص٢١٨، ٢٢٠، حوادث، ج١، ص١٦٤، ٣٢٥، البصروي، تاريخ، ص٢٠١، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٢، ٣٠٦-٣٠٧

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٦٢، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٢، المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص٣٦٤، ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ص٢٣٩، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، ط٣، دار الكتب المصرية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١، ص٦٦، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص١٣٤، ابن طولون، قضاة، ص١١٧، ٢٣٣

(٣) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص١٩٨، النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥١، العليمي، الأنس، ج٢، ص١٣٩-١٤١، ١٤٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٧، ٢٨٢، البصروي، تاريخ، ص٥٣، ٦١، ٦٦، ١١١، ١١٥، ١٦١، المحبي، خلاصة، ج٢، ص٦٤.

(٤) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٦١، ٢٧٤، ٢٩٢-٢٩٣، ٣١٠، ٣١٨ ، السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة ، ص٣٦٧، البصروي، تاريخ، ص١٠٤، ١٥١

(٥) الخانقاه السميساطية، سميت بهذا الاسم نسبة إلى السميساطي علي بن محمود (ت٤٥٣هـ/١٠٦١م) واقف الخانقاه وهو من أكابر الرؤساء بدمشق، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٧٥-٧٦، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص١٦٦، النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥١

(٦) البصروي، تاريخ، ص٥٤، ٨٧-٨٨، ١٢٤، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٣٤، العيدروسي، النور، ص٤٠، ١٢٤-١٢٥

الأحكام، كالخلاف الذي حدث سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) بين قاضيين على تدريس أحد المدارس، حيث انتهى الخلاف إلى شتم وضرب أحدهما للآخر[١].

وبعيداً عن علاقات المتعممين بأفراد المجتمع المملوكي، فقد عاش بعض أفراد هذه الفئة في بحبوحة من العيش بانت آثارها على طريقة لباسهم ومعيشتهم وحتى على بيوتهم، كان مصدرها الرواتب التي كانوا يحصلون عليها من أولياء أمورهم شهرياً "فقد بلغ متوسط راتب القاضي خمسين ديناراً في الشهر والخطيب اثنتي عشر أشرفياً" ومن المخصصات العينية من قمح وشعير وغيرها، كما كانوا يأخذون بعض الأوقاف المرصودة لهم، بالإضافة إلى الإقطاعات الكثيرة التي كان يمنحها السلاطين لبعضهم والتي يبدو أنها من الكثرة بحيث أن قاضي غاب خمسين يوماً وآخر غاب شهراً وأربعة عشر يوماً في تفقدها ومتابعة أحوالها[٢]، إضافة إلى الهدايا والخلع والإنعامات الممنوحة لبعضهم في المناسبات المختلفة[٣]. ويبدو أن عيشهم الرغيد وما تمتعوا به من ترف وبذخ قد شجّع غيرهم على التكالب على المناصب بدفع البذل، أي المال الكثير سواء كان المال من جيوبهم الخاصة أو من مال غيرهم على سبيل الاقتراض[٤].

لقد شجعت الدولة سلوك البذل فقامت بتعيين من يدفع أكثر لخزينتها، ومما يشير إلى انتشاره إنشاء المماليك ديواناً عرف بديوان البذل، وما ذكره السخاوي عند ترجمته للقاضي صلاح الدين المسكيني (ت٨٨١هـ/١٤٧٦م)، حيث تحدث عن توقف النيل عن الزيادة وتوجه القضاة باستثناء الحنبلي إلى المقياس للصلاة والدعاء، وعند وصولهم قال الوالي للسلطان: أتريد استجابة دعائهم وتوسلهم مع البذل في القضاء، فأمر السلطان برجوع القضاة، وعندها حصلت زيادة في نهر النيل[٥]!!. وكانت الدولة تعاقب من يتأخر عن الدفع حتى ولو كان الدافع عارياً من العلم "قليل البضاعة" وضيعاً[٦].

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٥٣-١٥٤، ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٥٧٨، ١٠٣٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٥، ٣٩، ٦٥

(٢) النويري، نهاية، ج٣١، ص٩٠، ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٢١، ٢٠٧، ٢٢٩، ٢٩١، ٣١٤، ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٥٧٩، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٥١، ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ص٢١٤، البصروي، تاريخ، ص٢٠٧، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٧١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٧، ٢٨٩،قضاة، ص١٧٠، ٢٢٥

(٣) النويري، نهاية، ج٣٠، ص١٢، ابن تغري بردي، حوادث، ج١، ص٩٤، ١٠٨، ابن كنان، حدائق، ص٩٥، يعلق المقريزي على الوضع المادي السيء لبعض المتعممين فيقول "أكثر الفقهاء وطلاب العلم ... ميت أو مشتهي الموت، لسوء ما حل بهم"، إغاثة، ص١٠١

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١،ص٦٤، ٦٨، ابن حجر، ج٤، ص٩٨-٩٩، ج٨، ص١٠٧، المقريزي، ج٤ق١، ص١٢٥، العيني، عقد، حوادث (٨١٧هـ/١٤١٤م)، ص١٩٢، البصروي، تاريخ، ص٢١٣، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠، ٥٥، ١٠٩، ٢٦٨

(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٩٢، السخاوي، الذيل، ص١٠٣

(٦) ابن حجي، تاريخ، م١، ٦٤، ٦٨، ابن حجر، أنباء، ج٧، ص٢٩١، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٢٥٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠، ٥٥، ١٠٩، ٢٦٨

لذلك كثرت ظاهرة العزل والتعيين والتنقل الوظيفي فيما بينهم[١]، وقامت الدولة بتقليد صغار السن أو الذين انتقلت إليهم المناصب من آبائهم بالوراثة، وأضحى المتعمم يجمع مع وظيفته وظائف أخرى طالما يدفع ثمنها، كما اقتسمت بعض الوظائف كالتدريس أنصافاً أو أثلاثاً بين آخرين لكثرة عدد المدرسين وكثرة الدافعين والمردود المالي المترتب عليها[٢].

وانعكست هذه الأمور على أدائهم الوظيفي واهتمامهم بالدين، فقد تهافتوا على أخذ الرشاوي ومارسوا طرح[٣] القمح والسكر والبهار والشعير وجباية الضرائب وبيع الأوقاف[٤]. وكان القضاة منهم لا يتحرجون عن شتم الخصوم في مجالسهم، كما كانوا ينحازون إلى نوابهم الذين يخطئون في الأحكام القضائية، ولا يتحرون الدقة في تحديد أوقات المناسبات الدينية، كبداية شهر رمضان ويوم عرفة، وكانوا ينتقلون من مذهب إلى آخر تبعاً لمصالحهم[٥]. وعُرف عن المحتسبين أيضاً أخذهم جزءاً من الأموال المفروضة شهرياً على الباعة والتجار وغيرهم حسب أحوالهم، كما استخدموا الرميات[٦] على أرباب المعاشات[٧]. وزاد الخرق بمخالفة شروط شروط الواقفين في المدارس، وتعطيل الدروس لبعض الأسباب أحياناً وبدون أسباب في الأغلب، ومن المدرسين من فقد أهلية التدريس وغيرهم كان يأخذ معلوماً بغير تدريس[٨].

كانت تلك الأمور مدعاة لاستهزاء بعض الأتراك بقسم من المتعممين، كما سبّبت التذمر والشكوى لدى العامة، فما كان من السلاطين أو النواب للحد منها إلا معاقبة مسبّبيها أو نفيهم أو عزلهم وتعيين آخرين وإصدار المناشير المؤقتة التي كانت تنصفهم[٩].

---

(١) العيني، عقد، حوادث (٨١٥هـ/١٤١٢م)، ص٩٣، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص٢٢٩، ابن طولون، قضاة، ص٢١٩-٢٢١، ٣٠٥، مفاكهة، ص٢٤٨، ٢٥٨

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٧٣، ٢٤٥، ٣٤٧، م٢، ص٩٦٠، النعيمي، الدارس، م١، ص١٣٦، ٢٩٠، ٢٩٥، ٥٩٢، العليمي، الأنس، ج٢، ص١٣٩

(٣) الطرح: هو فرض بضائع على التجار غصباً بأسعار يحددها الحكام وغالباً ما تكون هذه البضائع منهوبة. العلبي، دمشق، ص٣٥٨.

(٤) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٧١، ٣١٨، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٦٥، ابن حجر، أنباء، ج٥، ص١١٩، المقريزي، إغاثة، ص٦٢، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٥٨، البصروي، تاريخ، ص١٠٦، ١١٠، ٢١٦، ابن طولون، قضاة، ص١٣٠، ٢٥٥، ٢٨٧، ٢٣٩، مفاكهة، ص٩٩، ٢٥٣

(٥) ابن حجر، أنباء، ج٦، ص١٣٠، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٣٣، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص١١٦، ابن طولون، قضاة، ص٢٢١، ١٧١، مفاكهة، ص٤٤، ٢٥٧، ٣٦٨، البصروي، تاريخ، ص١٢٥، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص٣٥١

(٦) الرميات: من عادات حكام المماليك في دمشق أنه إذا قتل قتيل في حارة فإنهم يضعون عليها غرامة ولو عُرف القاتل وقُبض عليه. ابن طولون، إعلام، ص١٢٤.

(٧) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص ٩٠٩، البصروي، تاريخ، ص١٢٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٧١، ٢٠٣، ٢٥٥، ٢٦٥، طرخان، النظم، ص٣٣٠، دهمان، محمد أحمد ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١، دار الفكر، دمشق- سوريا، (١٤٠١هـ/١٩٩٠م)، باب الميم، ص٧٨٧

(٨) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٢، ٣٠٧، النعيمي، الدارس، م١، ص٢٠١، ٢٩٠-٢٩٢، ٣٠٠، ٣٣٨، البصروي، تاريخ، ص١٠٦، ١٨٠

(٩) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٦٦، المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص١١٧-١١٨، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٦١-٣٦٢، البصروي، تاريخ، ص١٣٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٣

٣- فئة العامة "العوام"

تردد ذكر العامة أو العوام كثيراً في المصادر التاريخية من غير الإشارة إلى مدلول هذا المصطلح والمسمى المهني أو الحرفي أو حتى الاجتماعي له، بل ركّزت حديثها على مقاومة هؤلاء لظلم المماليك خاصة والأساليب المختلفة التي استخدموها في تلك المقاومة، كرفض الخضوع للمراسيم التي تتعارض مع مصالحهم وتسيء لطرق عيشهم والثورات التي قادوها، ورجم ظالميهم بالحجارة والتكبير في مآذن الجوامع على الغاشمين والتذمر من المسبّبين لضيمهم واللجوء إلى من يرون فيهم أملاً بحياة أفضل كالقضاة أو الشيوخ وفي أضعف الأحوال المماليك أنفسهم(١).

تناول المؤرخون المحدثون خلال كتاباتهم عن الحياة الاجتماعية مفهوم العوام فعرفه بعضهم بأنهم الفلاحون من البدو والعبيد والحرفيين وصغار التجار الذين عانوا من الفوارق الطبقية التي نتجت عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، مما أدى إلى تمردهم المستمر ضد نظام الحكم القائم. واتخذت حياة الحجي(٢) هذا التعريف أساساً لمؤلفها وبنت عليه، ثم عدّلت التعريف تعديلاً بسيطاً، حيث صنفت العامة إلى صنفين: أ- العاملون من ذوي الدخل المتوسط، ب- العاطلون عن العمل (المتقاعسون)، وهي بهذا نظرت إلى العامة من منظور عملي أو مهني، يعملون ولا يعملون، دون أخذ الاعتبارات الأخرى كالقبول الاجتماعي لدى الناس وحياتهم اليومية وملابسهم وطعامهم وبيوتهم وعلاقاتهم مع الفئات الأخرى المختلفة. وحاول طه الطراونه(٣) أن يأخذ من التعريفين السابقين ويضيف لهما بما يجعل مفهوم هذه الفئة أكثر قبولاً، فاعتبرها أكبر الطبقات الاجتماعية، ثم ذكر مكوناتها التي تضم أصحاب المحال التجارية والحرفيين والصرافين والسماسرة والباعة المتجولين والأقل حظاً منهم كالمتسولين أو المشاركين في الأنشطة غير الأخلاقية كاللصوص، ووصف المعاناة التي سبّبها المماليك لهذه الطبقة، فكان تعريفه أكثر قبولاً، حيث استطاع أن يدمج في التعريف السمة المهنية مع السمة الاجتماعية، غير أنه لم يفسر عبارة "المشاركين في الأنشطة غير الأخلاقية"، كما أنه لم يشر في تعريفه إلى الفلاحين والفئات المستألفة والفئات الدنيا.

---

(١) العلبي، دمشق، ص٩٤، وقد وردت هذه الأساليب أيضاً في ثنايا الدراسة.
(٢) الحجي، حياة ناصر، أحوال العامة في حكم المماليك (٦٧٨-٧٨٤هـ/١٢٧٩-١٣٨٢م)، ط١، الكويت (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص١٥-١٦
(3)Tarawneh, The Peovince, 110-111

وبعد الدراسة والاطلاع أمكن تحديد الفئات الاجتماعية التي اندرجت تحت مسمى العامة على النحو التالي: ١- التجار ٢- الحرفيون والصنّاع وأرباب المهن ٣- الفلاحون ٣- الفئات المستألفة ٤- أهل الذمة ٥- الفئات الدنيا

١- التجار:

شكّل التجار فئة متميزة كان لها مكانتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية في نيابة دمشق، كما ارتبطت بعلاقات وديّة مع السلطة الحاكمة، فقد امتلكت ثروات هائلة، حيث عرض أحد تجار الكرك سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) مالاً على السلطان الظاهر برقوق أثناء عودته الثانية للحكم، بلغ مائة ألف دينار ليفرّقها على العسكر والجيوش، وأخبره أنه في حال صرفها سيضمن له إحضار غيرها[١]، وقيل عن تركة أحدهم بأن فيها من المال مالا يُعد ولا يُحصى، ووُجد في قاعة آخر بعد وفاته خمسون ألف دينار، وغيرهم كثر[٢]. وخير شاهد على امتلاكهم المال الوفير تسميتهم بالمتمولين[٣].

شارك التجار في المواكب والاحتفالات ومناسبات الصلح والزواج والطلاق والتوسط – الشفاعة – في إنهاء العقوبات وفكاك الأسرى، والاحسان إلى الفقراء والمعوزين وبناء المؤسسات التعليمية من مدارس ودور قرآن ومساجد وغيرها[٤]. وكانوا يحفظون المغازي والسير في أثناء تنقلهم ، ويستمعون إلى الشعر والحكايات ويحاورون العلماء ويحرصون على مجالسة الصالحين[٥]. وكانت الدولة من جانبها تنظر إليهم نظرة إجلال واحترام يشوبها قدر من الهيبة، ولهذا أوكلت إلى بعضهم مناصب مرموقة كمنصب القضاء ونظر الجيش والترجمة

(١) ابن الفرات، ناصر الدين محمد، (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، تاريخ الدول والملوك، نشر باسم ابن الفرات، م٩، ج١، نشر قسطنطين زريق، ص١٤٠، البخيت، مملكة، ص٤٧، خصاونة، حسين أحمد سعيد ، طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، اشراف يوسف حسن غوانمة، جامعة اليرموك، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٩٩

(٢) البصروي، تاريخ، ص٢٣٨، النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥١، للمزيد حول ممتلكات أهل الشام انظر، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٨٨-٨٩، ١٩٣.

(٣) الشجاعي، شمس الدين، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، مكتبة الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات، رقم المخطوط ١٠٤٢، ورقة رقم ٩، ابن حجر، إنباء، ج٦، ص٣٤١، المحبي، خلاصة، ج٢، ص١٥٦.

(٤) النويري، نهاية، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ج٣٣، ص١٨٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤١٨، ٤٢٩، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٩، ٦٠، ١٥١، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٩٢، ١٨٥، ٢٨٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٩، ١٠٤، قضاة، ص١٣٤، ١٧٨، الجزري، الدرر، م١، ص٤٥٠.

(٥) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٤٣، البصروي، تاريخ، ص٤٩، ١٨٣، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٨٤- ١٨٥

والوكالة والقلعة والحسبة وولاية البر(١). ونظراً للمكاسب الاقتصادية التي كانت تجنيها منهم فقد أنشئت لخدمتهم الخانات والفنادق والجسور والقيساريات والقناطر والسبل ، كما عبِّدت الطرق ووفرت الأمن بالتعاون مع العربان(٢). وقد قيل في هذا المجال أن الأمير يشبك كان يأمر السقائين بأن يسبقوا في كل يوم إلى المنازل – الأماكن- وينصبوا الأحواض ويملؤوها بالماء فتصل الدواب بعد أن يكون قد نال منها العطش غايته فتشرب من هذه الأحواض كما يشرب التجار والمسافرين(٣).

وأقامت الدولة لهم أسواقاً منظمة ومنسقة ومتوازية ومتلاصقة فيها حوانيت، كان بناؤها على ما يبدو من الخشب لكثرة الأخبار عن حريقها(٤)، كما تكلفت سقفها لتوفير الراحة للبائع والمشتري(٥)، وخصّصت لكل سوق سلعة معينة(٦)، كما جعلت أياماً محددة لبيع بعضها فقد كان كان سوق الجواري والرقيق يبيع يومي الاثنين والخميس، وكان سوق البنادقة يقوم بالبيع يوم الجمعة، وكان سوق الكرك يبيع الخميس والجمعة ثم جُعل الأربعاء والخميس(٧). وتُركت للنائب مهمة تعيين المحتسب المشرف على الأسواق، وكان للأسواق شيوخ يحفظون نظامها ويمنعون الغش فيها ويجبون الضرائب منها(٨) فكان هناك شيخ سوق البيمارستان وشيخ سوق جقمق وشيخ وشيخ سوق الجوخيين والخلعيين وغيرهم(٩).

وُجد نوعان من الأسواق في نيابة دمشق، مجموعة ومتفرقة، فالمجموعة كانت غرب المدينة قرب الجامع الأموي والقلعة(١٠)، أما المتفرقة فكانت في الأحياء الكبيرة والصغيرة، فلذلك

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٦٩، ابن قاضي شهبة، ج٣، ص٣٨، ابن عربشاه، عجائب، ص٢٧٢، البصروي، تاريخ، ص١٩٦، ١٩١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٢٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢٥، قضاة، ٢٦٤

(٢) ابن صصري، الدرة، ص٣٦، ١٧٣، ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٥٩، البصروي، تاريخ، ص٢٢٢، ٢٣٠، العليمي، الأنس، ج٢، ص٥٢- ٥٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠، ٢٢، ٥٤، ٢٣١

(٣) ابن أجا، تاريخ الأمير يشبك، ص٦٤

(٤) ابن جبير، رحلة، ص٢٥١، ابن عربشاه، عجائب، ص٢٨٦، انظر ابن طولون، مفاكهة، ص٥٨، ٩٢، ٩٩، ١٢٩، ١٣٩، ١٦٧، ١٨٢، ١٩٦، الخيّاري، ابراهيم بن عبد الرحمن المدني (ت١٠٨٣هـ/١٦٧٢م)، رحلة الادباء وسلوة الغرباء، ٣ج، تحقيق رجاء محمود السامرائي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد – العراق، ج١، ص١٧٥

(٥) تم استنتاج ذلك من خلال مقالة ابن عبد الهادي (ابن المبرد)، نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، نشر حبيب الزيات، مجلة المشرق، سنة ٣٧، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ص٢٢- ٢٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٢، قساطلي، الروضة، ص٩٨، العلبي، دمشق، ص٢٥٤، زيادة، دمشق، ص١٠٨

(٦) سجلات المحاكم الشرعية، الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات، سجل دمشق ١٨٩، شريط ٢، حجة ١٧، ١٨

(٧) ابن المبرد، نزهة، ص٢٣، ٢٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٤٨، الخياري، رحلة، ص١٧١

(٨) سجل دمشق رقم ١٨٩، حجة ١٦، ٩٤، ٩٥، لابدوس، مدن، ص١٦٥

(٩) سجل دمشق رقم ١٨٩، حجة ١٧، البصروي، تاريخ، ص١٣٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٥، ١٢٦، ابن طوق، التعليق، ج٣، ص١٣٤٥، ١٣٧١

(١٠) انظر الملحق ٢ خريطة دمشق، ص ١٧٧

ذكرت أسماء محلات تليها أسواق من مثل محلة سوق القاضي ومحلة سوق ساروجا ومحلة سوق القطن[١]، وكان البيع في هذه الأسواق يخضع لمبدأي العرض والطلب[٢] كما تأثر البيع بعدم استقرار العملة[٣].

وساهمت اجراءات الأتراك في ظلم التجار أو وقوف الأسواق، حيث فرضوا مبالغ مختلفة على التجار، كما قاموا بمصادرة آخرين في حياتهم وبعد مماتهم، ولشدة أذى المصادرة على التجار قام البعض بمساواتها بالذي فعله تيمورلنك حينما غزا دمشق سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) بل جعلها آخرون أبشع وترحموا على تيمورلنك[٤].

كما لجأ النائب إلى احتكار البضائع وإجبار الناس على شرائها[٥] ومنافسة التجار والرميات والطرح[٦]، وبجانب الطرح وُجد التحكير أو التحجير وهو إرغام التجار على بيع بضائعهم المستوردة في مكان محدد، كحكر المصابن بحلب وحكر السماق وحكر النعناع وحكر سوق التجار الواقع قبلي سوق الخلعيين وتجاه سوق الخيل وغيرها، ليتسنى للحكومة مراقبتهم[٧].

مراقبتهم[٧].

وكان التجار حينما يزينون حوانيتهم في المناسبات والأعياد يبيتون فيها خوفاً من السرقات، مما كان له الأثر الكبير في معاناتهم كما عانوا من ارتفاع أجور الحوانيت والحرائق المتكررة إضافة للكوارث الطبيعية[٨]. شكلت هذه العوامل تحدياً للتجار، إلا أن حذاقتهم وبراعتهم والصفات الأخرى الحسنة التي تحلوا بها كان لها الدور الكبير في تخطيها أو التخفيف من حدتها، فنتج عن ذلك وجود اختلاف بين فئات التجار في الثروة والمكانة الاقتصادية، فكانت الفئة الاولى من التجار هي التي ملكت الثروات الضخمة وسُبق اسم صاحبها بـــ "خواجا أو كبير

---

(١) سجل دمشق ١٨٩، حجة ١٣- ١٤، ٣٣، ٣٦، ٨٢، ١٨٠، الحلاق، حوادث، ص٦٧، ١٥٤

(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٨٩، ٢٨٩، ٣١٦

(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٦٤- ٦٦٥، المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١١٥٢- ١١٥٣، إغاثة، ص٦١

(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٥٦، ٧٦٩، ٧٧٢، ٨١٥، ٩٤٧، ٩٥٣، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٨٥، ص١٨٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٩، المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٤٠، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٨٧

(٥) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٥٩، ابن طولون، مفاكهة، ص ٣٠١

(٦) ابن طولون، مفاكهة، ص١٩٠، ٢٧٦، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٤٢١

(٧) سجل دمشق ١٨٩، حجة ٦٢- ٧٦ ، ابن الجيعان، القول، ص٧٠، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٣٠١، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٦، ٣٠١، العلبي، دمشق، ص٢٥٧- ٢٥٨

(٨) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٧٠، ٣١٣، ٥٥٠، البصروي، تاريخ، ص٨٨، ١٤١، ابن طولون، مفاكهة،١١٥، ١٨٧، ٢١٢،٢١٩- ٢٢٠، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٨٤-٢٨٥، ٣٠٧، الشوامرة، نافذ محمد عبد ربه، الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي، (٦٨٤- ٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، أطروحة ماجستير، اشراف شوكت رمضان حجي، جامعة الخليل، (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، ص٨٦

التجار أو أحد أعيان التجار" ودُعيت ببياض الناس[١]، بينما الفئة الثانية سُبق أسماء أصحابها بـــ "أحد التجار أو التاجر"[٢].

وكما اختلفت وتباينت فئات التجار اختلفت أنواع التجارة وأصنافها، فقد شهدت نيابات الشام نشاطاً تجارياً داخليا بين قراها ومدنها من جهة وبين دمشق ومصر من جهة أخرى. فاستوردت دمشق من الغور قصب السكر والقند – السكر غير المكرر –، كما يُعتقد أنها اعتمدت عليه في قطنها وأرزها[٣]، واستوردت من حوران وحماة القمح ومن الحولة (الواقعة بين بانياس وصور) الأرز ومن البر الشعير ومن حمص اللبن ومن معلولا العسل ومن عربيل ومنين ووادي بردى وبعلبك وحماة المشمش ومن الزبداني التفاح ومن النيرب الدراق ومن داريا العنب ومن حلب وحماة البقر والأغنام[٤] ومن جبل حرمون – الشيخ – الثلج "وكانوا يسمونه جبل الثلج"، وفي بعض الأوقات قاموا باستيراده من جبال قريبة من بعلبك غير أن جودته لا تعادل جودة ثلج جبل الشيخ[٥].

وزوّد التجار المزارعين الدمشقيين بالبزورات اللازمة لمزروعاتهم، فقد جلبوا من حلب بزر البطيخ الأصفر، ونقلوا إلى غزة بزر البطيخ الحلبي، ومن السلع التي تداولتها المدن الشامية الصابون وزيت الزيتون والملح إضافة إلى الأجواخ[٦].

وكان التبادل التجاري يتم عبر الأسواق الأسبوعية في المدن والمراكز الزراعية أو في الأسواق الموسمية السنوية والنصف سنوية، أما العمليات التجارية الكبرى في مجال الاستيراد والتصدير فقد كانت تتم في خانات واسعة. ولم يكن بوسع التاجر نقل بضائعه من مدينة إلى

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨١٨، ابن حجر، إنباء، ج٨، ص٢٠٠، البصروي، تاريخ، ص٣٦، ٤٩، ١٤٢، ١٨٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٤، ٩٢، ١٠٤، ١١١، طرخان، النظم، ص٣١٠

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٨٣، ٣٣٠، م٢، ص٥٩٩، ٦٤٨، ٩٤٣، البصروي، تاريخ، ص١٦٣، ١٨١، ١٨١، ٢٣٨، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨، ١٢٥، ١٣٤، ١٤٨

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٣٤، ١٣٦، ١٤٨، ٣٤٩، ٥٣٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص٧٩٢، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٦٢، موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الاولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، ط٢، دار الفكر– دمشق، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص٤٤، الصباغ، المجتمع، ص٨٥، عباس، بلاد، ص١٢٠.

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٢٠، م٢، ص٩٠٢–٩٠٣، ابن تغري بردي، المنهل، ج٢، ص٢٥١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤١٦، ابن المبرد، ثمار، ص١٥١، البصروي، تاريخ، ص٢٣٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٣، ٢٦٥، ٣٠٦

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٦٦، ابن الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٨٢، ٨٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٨، ٢٦٥، ٥٢٩، ج٤، ص١٦٩٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٩

(٦) ابن طولون، مفاكهة، ص١٩، ٨٣، ٢٧٣، ٣٠٦، خليل، سعيد صالح موسى، التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية (٧٨٤– ٩٢٢هـ/١٣٨٢– ١٥١٦م)، رسالة دكتوراة، اشراف مصطفى الحياري، الجامعة الأردنية، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٢٦٤

أخرى على جمل أو عدة جمال بل عن طريق القوافل الكبيرة لعدم استتباب الأمن نتيجة اعتداءات العربان المتواصلة[1].

وفيما يتعلق بالنيابات المصرية لا سيما القاهرة والاسكندرية ودمياط فقد وثقت صلاتها التجارية مع النيابات الشامية، فأمدّتها بالسكر والحناء والسمك القديد والجبن والكتان والزيت الحار والعصفر والبازيلاء والعدس وخيار الشنبر – عقار طبي –، وقامت النيابات الشامية بالاستعانة بما تحتاجه من سلع باللجوء إلى السلطنة في مصر[2].

اتخذت التجارة بين مصر وبلاد الشام عدة أشكال منها، الطارئة والموسمية والدائمة. فمن السلع الطارئة التي كانت تُنقل إلى نيابة دمشق في أوقات القحط والغلاء القمح، وكان يتم شحنه عن طريق المراكب من دمياط إلى سواحل الشام فدمشق، كما تم تزويد مصر بأغنام دمشق حينما بدا النقص واضحاً في بعض الأوقات[3]. أما السلع الموسمية التي نُقلت إلى مصر فهي الفواكه بأصنافها المختلفة كالتفاح والسفرجل والكمثرى والقراصيا وماء الورد والفستق واللوز والزيت والصابون[4]. وفي مجال التجارة الدائمة تم نقل الثياب الحموية والدمشقية والبعلبكية وكذلك الورق إلى مصر[5].

لم يكتف التجار الدمشقيون بممارسة نشاطهم داخل النيابات الدمشقية أو مع السلطنة في مصر، بل وسّعوا تجارتهم لأبعد من ذلك فاتصلوا بالغرب مستغلين الموقع الهام لبلاد الشام على مفترق الطرق بين القارات الثلاث المعروفة آنذاك وإطلالتها على البحر المتوسط، مركز الثقل السياسي والاقتصادي في تلك الفترة، إضافة إلى أنها كانت تضم الطرق العالمية الكبرى، التي تبدأ من هذا البحر وتتصل أقصى شرقي آسيا وبالعكس، لا سيما الطريقين المعروفين بطريق الحرير وطريق التوابل، إضافة إلى وجود الأماكن المقدسة في جنوبها[6].

---

(١) الصباغ، ليلى، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٨٥- ٨٦.

(٢) خليل، التجارة، ص٢٦٤- ٢٦٦

(٣) اليافعي، عبد الله بن أسعد اليمني المكي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٧م)، مرآة الزمان، ط١، ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص٢٠٣، النويري، نهاية، ج٣٣، ص٥٦، المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص٥٧٤، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٥٩، ٢٦٣، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٦٢٤، ج٤، ص٣٠٢، خليل، التجارة، ص٢٦٥.

(٤) شيخ الربوة، نخبة، ص١٩٨، ٢٠٠، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٨٧، المقريزي، السلوك، ج٣ق٣، ص١٠٠٣، العيني، عقد، حوادث (٨١٧هـ/١٤١٤م)، ص١٩٦، البدري، نزهة، ص١١٨، ١٩٢، ٣٦٤، ابن اياس، بدائع، ج١ق١، ص٤١، ج١ق٢، ص٥٧٢

(٥) المقريزي، ج٣ق٢، ص٥٢٥، ج٤ق٢، ص٨٠٠، العيني، عقد، حوادث (٨١٧هـ/١٤١٤م)، ص١٩٦، ابن ابن الصيرفي، نزهة، ج٢، ص١٦٢، ١٦٩، ٣٢٦، ٤٨١، خليل، التجارة، ص٢٦٥

(٦) الصبّاغ، ليلى، الجاليات الاوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرن السادس عشر والسابع عشر، عشر، العاشر والحادي عشر الهجريين، ط١، ٢ج، مؤسسة الرسالة- بيروت، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ج١، ص٦٩

واتخذت اوروبا من الشرق الأدنى سوقاً لمنتجات الغرب والأصباغ والحرير، فكانت البندقية وبيزة وجنوه وفلورنسه ومرافئ فرنسا الجنوبية تعمل على الاستفادة من تلك السوق بمهارة، كما استفادت دمشق من هذه الحركة التبادلية التجارية رغم مزاحمة حلب لها[١]. وعلى صعيد التجارة الخارجية، فقد كانت نيابة دمشق من النيابات السباقة في هذا المجال.

وأدت حركة تبادل السلع إلى ظهور فئة من كبار التجار سميت بـــ "تجار الكارم" عملوا على احتكار تجارة الهند والشرق الأقصى من التوابل أو البهار من فلفل وقرنفل ونحوهما والسلع الأخرى[٢]. وقد بدأ ظهور هؤلاء في العصر الفاطمي، فأخذوا يجوبون ببضائعهم المحيط الهندي متخذين عدن مركزاً لنشاطهم، ثم ساروا إلى البحر الأحمر فمصر، ومع مرور الوقت استعاضوا عدن بالاسكندرية ودمياط كمركزي تصدير مشهورين للتوابل وسلع الشرق. ونمت تجارة الكارم نمواً جيداً في عهد الأيوبيين، لاسيما في عهد صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)[٣].

وعندما قربت نهاية الأيوبيين وبدأ عهد المماليك تراجعت مكانة التجارة الكارمية في مصر نتيجة غزو الصليبيين لمصر ومن بعدهم المغول ثم ثورات العربان وسياسة السلطان قطز الظالمة تجاه التجار من ضرائب وفروضات. ومع انتهاء هذه المرحلة رجعت التجارة الكارمية نشطة مرة أخرى بفضل سياسة السلطان الظاهر بيبرس (ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م) القائمة على حفظ الأمن ونشر العدالة[٤]. وقام الأمراء البحتريين في لبنان بدور مماثل في توطيد الأمن، فقد كلفوا من قبل المماليك بالمحافظة على السواحل اللبنانية من بيروت إلى صيدا، وكانت مهمتهم الأولى تنبيه دمشق إلى الأخطار المحدقة في البحر الأبيض المتوسط من الافرنج المقيمين في قبرص ورودس، بحيث كانوا يُشعلون النار في ظاهر بيروت فترد عليها نار في رأس بيروت العتيقة ومنها إلى جبل بوارش فجبل يبوس فجبل الصالحية ومن ثم قلعة دمشق. وكانت النار للحوادث في الليل والحمام للحوادث في النهار والبريد للأخبار[٥]. وقد ساهمت هذه الأمور مساهمة فعالة في نجاح وقوة التجارة الخارجية وإكساب التجار الكارميين مكانة مرموقة في الشرق والغرب، مما حذا بالدولة المملوكية أن تعيّن موظفاً ليقوم على خدمتهم دُعي بـــ "مستوفي البهار والكارم" أو "ناظر البهار والكارم"، تركزت مهامه في التحدث على بضائع التجار الكارميين من اليمن من

---

(١) سوفاجيه، دمشق، ص١٩٥
(٢) ابن حجر، أنباء، ج٧، ص٧٦
(٣) ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٢، العلبي، دمشق، ص٢٧٨، خصاونه، طبقات، ص١٠٤، لبيب، صبحي، التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، م٤، سنة (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، ص٧، ١١
(٤) لبيب، التجار، ص١٦
(٥) عواد، لبنان، مجلة المشرق، م٤، ص٢٤

أصناف البهار وأنواع المتجر ورعاية مصالح التجار بين البحر الأحمر ومصر، وكان يساعده مجموعة من الأمناء[1].

نال تاجر الكارم تقدير واحترام السلاطين نظراً لما كان يمتلكه من مال وثروات ضخمة ككبير التجار عيسى القاري (ت٨٩٥هـ/١٤٩٠م) وشمس الدين محمد الحلبي الدمشقي الذي عُرف بابن المزلق (ت٨٤٨هـ/١٤٤٥م) وابنه سراج الدين عمر (ت٨٤١هـ/١٤٣٨م)[2].

وكانت الدولة تلجأ لهؤلاء التجار حينما يصيبها العجز المالي جراء الحروب أو الأزمات فتقترض منهم، كما كانت تقوم في بعض الأحيان بتكليفهم بتشغيل أموالها في مناحي التجارة طمعاً في المردود المالي[3]. إلا أنها لم تكن تسمح لهم بالمساس في مصالحها الخاصة لا سيما البضائع التي كانت تُعد متجراً خاصاً للسلطان، فقد اتُهم كبير التجار عيسى القاري سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م) بأنه حاول مشاركة الأمناء في مال البهار الخاص بالسلطان[4]. لم تكن تجارة التوابل هي التجارة الوحيدة التي قام الدمشقيون بتزويدها إلى الغرب، فقد وُجد بجانبها تجارة العباءات والحرير الخام والقطن[5]، كما تم تصدير مرايا من المعدن تعمل على تضخيم الأشياء، والنصول – السيوف – المنقوشة، وأواني الزجاج المزخرفة[6]. أما المواد المستوردة فقد شملت الأجواخ والفراء والفضة والقصدير والرصاص والذهب والأحجار الكريمة والحلي وطيور الصيد والمرجان والكستناء والخشب والرخام[7].

لقد اتخذ المماليك نقدين في البيع والشراء، الأول الذهب ووحدته الدينار ويساوي ١,٤٥ من الدولار، وكان في الغالب نادر الوجود، والثاني الفضة ووحدته الدرهم (٠,٠٧ من الدولار) وكان شائعاً. واختلفت نسبة الذهب إلى الفضة بنسبة وجود الفضة في الدرهم، إلا أن أفضل

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٢، البصروي، تاريخ، ص١٤٢

(٢) السخاوي، التبر، ص١١٢– ١١٣، البصروي، تاريخ، ص١٤٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٠–١١١، عباس، تاريخ، ص١٤٨، خصاونه، طبقات، ص١٠٤، Tarawneh, The Province, P.108

(٣) ابن حجر، إنباء، ج٧، ص٢٠٥، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٧٨، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص١١٨، ٢٥٠، لبيب، التجار، ص٢٦

(٤) البصروي، تاريخ، ص١٤٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٠– ١١١

(٥) مما يدل على وجود الحرير وصناعته بكثرة في نيابة دمشق أن السلطان سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) عن طريق موظفيه أخذ خشب التوت من أغلب بيوت دمشق، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٩٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢١

(٦) سوفاجيه، دمشق، ص١٩٦، اسكندر، توفيق، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط، الوسيط، المجلة التاريخية المصرية، م٥، سنة ١٩٥٦، ص٣٨، زكي، عبد الرحمن، صناعة السيوف الاسلامية في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، المجلة التارخية المصرية، م٥، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، ص٨٩

(٧) زيادة، دمشق، ص١١٠–١١١، العلبي، دمشق، ص٢٨٠، الشلبي، بلاد، ص١٤٧

الدراهم ما كان يسمى بـــ النقرة وتعني أن يكون في العملة ثلثان من الفضة وثلث من النحاس. وسك المماليك الفلس، وهو نقد نحاسي كل ٤٨ منه تساوي درهماً[١].

وتواجد بجانب النقد المحلي نقد أجنبي، شاع وعمّ وجوده كالافرنتي، وكان يساوي ١٧ درهماً أو ١,١٩ دولاراً، والذهب البندقي ويساوي ١,٤٠ دولاراً، والدوقة الفضية وتساوي ٠,١٤ من الدولار[٢].

وكان يتم تحويل العملات وتبديلها عن طريق صيارفة النصارى واليهود، غير أن الصيرفي في دولة المماليك تعدّى هذه المهمة إلى كتابة الوصولات وكتابة رسم الاستخراج والقبض وغيرها[٣]. أما فيما يتعلق بالتعامل بالعملة فقد تضاءل لتحل محله المقايضة، حيث تم تقايض التوابل بزيت الزيتون والعسل والصابون والبندق واللوز ما بين مصر والبندقية. وهذا الامر انعكس سلباً على سلطنة المماليك بحيث قلّل من تدفق الذهب إليها فألجأها إلى تغيير وزن العملة وعيارها بين الحين والآخر، والأعظم من هذا تضخم عملة النحاس بسبب تدفق كميات كبيرة من هذه العملة إلى دور السك المملوكية فأثر ذلك سلباً على الوضع الاقتصادي وأضر بالتجار في المقام الأول[٤].

٢- الحرفيون والصنّاع وأرباب المهن

ساهم الحرفيون والصناع بدور كبير في دعم الاقتصاد في نيابة دمشق، وغدت المدن الرئيسية مراكز هامة للتصدير إما داخل النيابة أو خارجها، وقد اختلفت الصناعات وكثرت مما أوجد تنافساً بين أصحابها، كما أوجد إبداعاً وتفنناً آخرين[٥]. ولعل ذلك حذا بالبعض إلى تصنيف أصحاب الصناعات إلى ثلاثة أصناف هي: ١) "أرقى الحرفيين براعة"، وهم الخبازون والفرّاءون والنجارون والخياطون والعطارون، ٢) "أصحاب الأشغال الثانوية وهم حائكو الحرير وصنّاع القباقيب الخشبية والصاغة والحمّالون وجامعو الأخشاب والسقّاؤون، ٣) "المرفوضون إجتماعياً"، وهم سائقو الجمال والحمير والصرافون والبازداريون ــ مربو البزاة

---

(١) المقريزي، إغاثة، ص١٠٩، زيادة، دمشق، ص ١٦٨
(٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٠٩، ٧٢٠، زيادة، دمشق، ص١٦٨، ، خصاونه، طبقات، ص١٠٥
(٣) الزيات، الصيارفة في الإسلام وإفلاسهم من إلحاح الناس في أخذ أموالهم، مجلة المشرق، سنة ٣٥، (١٣٥٦هــ/١٩٣٧م)، ص٤٩٢.
(٤) وللمزيد حول الأضرار التي كانت تلحق بالتجار من المكوس وأماكن دفعها واعتداءات الفرنج إضافة إلى طرح البضائع عليهم والمصادرات، انظر: المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٧٠٧، ٧٦٨، ٧٩٢، ٩٦٥، ابن تغري بردي، حوادث، ج٢، ص٥٢٦، الصيرفي، نزهة، ج٣، ص١٤٥، ١٤٨، ١٥٥، بيات، فاضل، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، ٩٥١هــ/١٥٤٤م – ٩٧٣هــ/١٥٦٦م، ج١، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٢٦هــ/٢٠٠٥م، ص١٠٣، الحكم ١٢، ص١٤٦، (حكم ٣٧)، ١٠ع، ص١٠٠، اسكندر، نظام، ص٤٢– ٤٥
(٥) البدري، نزهة، ص٣٦٢ــ٣٦٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٤

ومدربوها- والحجامون وعمال الجلود والدباغون وضاربو الرمل، الذين بواسطتها يعرفون الغيب والتكهن، والمشعوذون والحلاقون[١].

غير أن هذا التصنيف لا يمكن اعتباره مطلقاً بالجملة وذلك لاختلاف الأحوال وتبدلها بين فترة وأخرى واختلاف نظرة العامة عن نظرة السلطة المملوكية إلى الصانع، إضافة إلى أن بعض الصناعات تم استثناؤها مما أبعد الجزم القاطع بتمام صحة التصنيف، فقد استُبعدت مهنة البريدي والفرّاش والممرض والمغربل والنسّاج وقارئ الألحان والمنشد والاسكاف والمعمار والخيّاط والبيطار والطبّاخ والخاني والدلاّل والنحّاس والحارس والسمسار والبوّاب والكحّال ومكفّن الموتى والقشّاط والنحّات والفقاعي ومعالج المجانين بالتكبيس وضارب المنادل ومشد البناكيم "ساعة الرمل" وضارب القانون والقيشاني واللبّان والترّاس ومعبّر المنامات وكاتب جرائد التجار وغيرهم[٢].

لقد احتلت الصناعات المتعلقة بالشؤون العسكرية الصدارة من بين الصناعات فأثرت على الحركة الصناعية والتجارية تأثيراً واضحاً، كما أدّت إلى اتساع الأسواق اتساعاً جديداً لتلبية احتياجات العنصر العسكري، فظهر سوق الخيل أمام باب القلعة الشمالي لتموين خيالة الجيش بما يحتاجونه من مواد، كما انتشر بجانبه تجار الأقمشة والخياطون وصناع الأسلحة (خاصة السيوف) وأصحاب المطاعم وباعة الشعير والتبن للغاية ذاتها[٣].

كان الصانع ينتج الصناعات المختلفة في المكان ذاته المعد للإنتاج والبيع أو قريباً منه، مما كان له الأثر الكبير في تقليص حجم انتاجه ومحدوديته، فسوق العنبرانيين الواقع عند باب الجامع القبلي كان يعمل ويُباع فيه العنبر، وسوق الكوافيين عند باب البريد كان يُعمل فيه الكوَف، وأسواق كثيرة مثلها، ووُجد للنحاسين سوقان أحدهما لبيع النحاس تحت القلعة والآخر لصناعة النحاس بباب الفراديس[٤]. وقد ذكر عن الشيخ علي بن أيوب الماحوزي (ت٨٠٣هـ/١٤٠١م) النزيل بمحلة قبر عاتكة غربي دمشق أنه كان ينسج في هذا المكان ويبيع نسيجه بأعلى ثمن، كما عُرف عن الشيخ شمس الدين محمد بن خليل (ت ٨٠٣هـ/١٤٠١م) أنه كان يعمل الأبزار في حانوته، وكان تحميص القضمانية يتم في الحوانيت التي تقوم ببيعها[٥].

---

(١) لابدوس، مدن، ص١٤٢- ١٤٣

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ٢٠٥، ٣٠١، ٧٨١، م٢، ص٧٨١، ٩٦٩، ١٠٣٨، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٧١، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٤٨، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٧٢، ٤٩٢، ٥٠١، ٥٥١- ٥٥٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٦٥، ٤١٤، قلائد، ص٣٠٦

(٣) سوفاجيه، دمشق، ص١٩٦

(٤) ابن المبرد، نزهة، ص٢٢، ٢٥، للمزيد انظر ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٤

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٧٠، ٤٨٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٤

واتخذت بعض العائلات الدمشقية أنواعاً من الصناعات كمسمّيات لها كعائلة القوّاس والساعاتي والفقاعي والدبّاغ، ونودي على البعض بابن أو ابنة ثم صناعة والده فقيل ابن الخشّاب وابن الخبّاز وابن السيرجي وابن الجابي وابن الطحان وابن العطّار وابن النجار وابن الكسّار وابن الخياطة، مما يرجح توارث واحتكار المهنة في العائلة الواحدة. وميزت الأخبار الصانع من المعلم من الشيخ من المبتدئ، فاحتل الشيخ المنزلة الاولى في اتقان الحرفة والرئاسة في حين جاء المعلم بعده ثم الصانع، ومن الشيوخ الذين ذُكروا شيخ الدباغة اسماعيل[١]، وكان الشيخ ينتخبه معلمو الصنعة ممن اشتُهر بحسن الأخلاق وبمعرفة أصول الحرفة بغض النظر عن عمره، وقد تنتقل المشيخة بالوراثة من الأب إلى الابن شرط موافقة معلمو الحرفة، ويقوم الشيخ بالمحافظة على روابط أفراد طائفته وتقرير مصالحها بالتدارس مع المعلمين، كما يُعاقب من يُخل بحق الصنعة، ويلي الشيخ المعلم، وهو متقن الحرفة الذي اجتاز مرحلة التدريب بنجاح، أما المبتدئ فهو المتعلم الداخل مجدداً في الحرفة[٢].

ووردت عبارات تدل على مكانة الصناع وبراعتهم دونما استخدام كلمة شيخ، فقد عُلق على تميّز أحدهم بالصناعة بأنه القوّاس الكبير ونُعت آخر بكبير الصيارفة ووُصف ثالث بـــ استاذ الضرب بالقانون، وقيل عن رابع معلم المعلمين، وذُكر من المعلمين المشهورين المعلم محمد بن سليمان القابوني (ت٩١٦هـ/١٥١٠م)[٣].

كانت بعض الصناعات تُمارس من قبل غير الدمشقيين، فالبيطرة قام بها التركمان، وكان الشيخ علي بن الخبازة البغدادي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) ينسج القطن قرب مقابر الحميرية ويجمع الناس كل جمعة قرب ضريح زكريا بالجامع الأموي ليلقي عليهم بعض المواعظ والأذكار. واشتهر اليهود والنصارى بالصيرفة. ووصل بعض الصنّاع إلى رتبة عالية في الوظائف مع بقاء الاحتفاظ بمسمياتهم الصناعية فقد تولى المعلم محمد بن الحطاب الخباز، والمعلم أبو الخير الطحان الحسبة في عصر ابن طولون قبل دخول السلطان سليم بن عثمان إلى دمشق[٤].

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٦٥، ٣٧٤، م٢، ٦٤٠، ٧٨٦، ٨٣١، ١٠٢٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٨، ١٩٢، ٤١٤، ٥١٩، ج٤، ص ١٦٧٣.

(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٥٢، ٤١٧، ٤٥٩، ج٣، ص١٤٦٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢١، ١٦٠، ١٩٠، الصباغ، المجتمع، ص٧٢-٧٣، ٧٥، مبارك، الحياة، ص١٤٦، مع ملاحظة خلط المؤلف ما بين تعريف المعلم والشيخ إذ يعرف المعلم وكأنه شيخ الحرفة!!

(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٥٩٢، ٥٩٧، ٨٣٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٢٢، ٤٢٩، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٠٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٨

(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٩، قلائد، ص٣٧٦- ٣٧٧، الزيات، الصيارفة، ص٢٩٢

تعرض الحرفيون والصنّاع وأصحاب المهن إلى أحداث كان لها الأثر الكبير في تراجع مستواهم وانهيار صناعتهم، ومنها غزو تيمورلنك لبلاد الشام سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) وأخذه العمال والحرفيين المهرة إلى بلاده سمرقند ولعل أشهرهم شمس الدين محمد بن ابراهيم بن بركة العبدلي (ت٨١١هـ/١٤٠٨م) رئيس الجراحين والمزينين[١]. كما نال الصنّاع الاجحاف وسوء المعاملة من قبل السلاطين، فقد توفي معمار السلطان أبو النصر قايتباي ابن الزفيك سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) في القاهرة في حبس المقشرة بعد ضربه بالعصي والمقارع من قبل السلطان بسبب الخان الذي عمّره بوادي التيم (جنوب لبنان). واستُدعي أحد الصنّاع الذين عمّروا الجامع الأموي في العام نفسه إلى مصر للمحاسبة[٢]. وأُضيف إلى السلاطين ظلم النواب ومنه ما تم سنة (٨٩٦هـ/١٤٩١م) حيث اشترى أحدهم بيتاً وطلب من معماريه تزويقه مقابل أجر، وسلمهم مفتاح البيت وذهب إلى عمله، وأثناء انهماكهم في حفر موضع في البيت إذ بقشر جوزة تسقط عليهم وبها حوالي أربعمائة دينار فتخاصموا على أخذها، فعلم النائب بها فاستولى عليها وأعطاهم ربعها فقط[٣].

وكانت المصادرات قد شكلت جانباً آخر من مظالم السلاطين والنواب ومن في رتبتهم، ففي سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) ورد مرسوم بمصادرة أرباب صناعة قماش الحرير، بحيث أخذ منهم على كل نول حريراً مالاً معلوماً، فاحتج أرباب الصناعة تلك في كل حارة، ورفعوا أعلام الجوامع ثم ساروا إلى دار السعادة لإسماع شكواهم، فلما رآهم النائب غضّ الطرف عنهم ولم يستجب لمطالبهم بل زاد عليها بأن فرض خمسة عشر ألف درهم كرماية بحيث قُسّمت على الحارات فكان لكل حارة جزء معلوم منها. وكان بعض النواب يأخذون بعض الحرفيين أمثال المعمارية والنجارين والخرّاطين والحجارين والفامبية والأساكفة في سفرهم دون سبب يُذكر، مما كان يعطل مصالحهم[٤].

وشارك الأمراء النواب في المظالم، فقد عُرف عن الأمير إياز الجركسي كبير الأمراء بالشام (ت٧٩٨هـ/١٣٩٦م) القسوة والتعسف في تعامله مع الصنّاع، فعندما استدعاه السلطان برقوق سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٥م) للسؤال والمحاسبة، أخذ الصنّاع والتجار يدعون عليه من كثرة ما لحقهم من أذاه المتمثلة بسلب أموال الناس واستعمال بعضهم بدون أجرة وقطع أيدي

---

(١) ابن الجيعان، بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى، (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف، أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، جروس – برس، ص٥٢، ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٥٧٨، ٨٥٢، لابدوس، مدن، ص٦٤

(٢) ابن طوق، التعليق، ص٧٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٤٢، ٤٥

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١١٨

(٤) المصدر السابق، ص١٢١، ١٦٠

جماعة[١]. كما نالهم إجحاف من قبل المحتسب، فقد حدث سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) أن تظلم الطحانون لأن المحتسب جعل ثمن القمح بسعر الكلفة دون ربح أو مكسب. وحدث سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) أن عانى أهل الصالحية والمزه من ضيق بسبب قلة الماء فأخذ المسؤول عن ذلك أجرته وقدرها خمسون ديناراً "لتزويدهم بالماء" كما أخذ مالاً آخر لتنظيف الأنهار كلها، غير أنه لم يقم بعمله بسبب سفره مع النائب لقتال العرب وبقي الحال على ما هو عليه، فتوقف العمال عن تنظيف الأنهار بسبب قلة أجورهم كما أخذوا يظلمون الناس[٢].

ولم يسلم الصنّاع من تعرضهم أثناء عملهم إلى حوادث الإصابات والحرائق وحتى القتل، فقد سقط أحد الصنّاع من سقف أحد المشاهد فمات من ساعته سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، وتوفي الحاج محمد الكفتي النجار الصالحي سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) وهو يرفع خشب جامع بني أمية بعد حريقه، حيث سقط من طاقة فمات. وسقط على ابن الأحدب الاقباعي حائط سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) فمات[٣].

وازداد العبء العملي والخسائر المادية على بعض الصنّاع في بعض الفترات ففي سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) طُلب من جميع الناس المشاركة في عمارة قلعة دمشق وإغلاق الأسواق كذلك ما عدا حوانيت الطبّاخين والخبّازين. وعندما انتشر وباء الطاعون سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م) نودي بإغلاق الحوانيت باستثناء حوانيت الخبّازين والطبّاخين كذلك[٤].

وعلى الرغم من كل ما ذُكر فقد عاش الصنّاع أجواءً من المرح، حيث عُرف عن غرس الدين خليل السخاوي (ت٨٤٧هـ/١٤٤٣م) الطرف والدعابة، وكان هذا في مبدأ أمره بائعاً للحلوى ثم صار جابياً للأملاك - يجبي وعلى كتفه خرج، ثم خدم جماعة إلى أن حسنت حاله وركب بغلة. وجرى بين محمد المعصراني القدسي السمسار الداعلي والخضيري محمد المنيحي سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م) مزاح، فقد قال الأخير: إن اللحم على عجين لا يحتاج إلى سيرج - دهن السمسم-، فأجابه السمسار: هذا كفر، فعلق أحد الشيوخ على هذه العبارة، فتدارك السمسار الأمر وقال: هذا كفر في مذهب الأكالين، فقيل له: هذا الكلام يؤدي إلى الكفر كذلك، فقال: أنا لم أقل كفر بالله لا، وأخذ يردد الشهادتين[٥].

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٠٤
(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٧١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٣
(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٩٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧
(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٨١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤١٣، ج٢، ص٦٨٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٧٩، ٩٣، ١٢٧، ١٥٩، ٢٣١
(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٥٠٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٦

٣- الفلاحون

تنوعت القرى في نيابة دمشق وانتشرت، وقد أشار ابن شاهين الظاهري إلى أعدادها، فذكر أن مدينة عجلون اشتملت على عدة قرى في الجبال والأودية، وضمت مدينة حسبان نيف ثلاثمائة قرية بأرض مستوية، بينما بلغت قرى صرخد مائة قرية والحولة مائتي قرية وحوران أكثر من ألف قرية والغوطة نيف عن ثلاثمائة قرية مشابهة في ذلك حسبان، وهناك العديد العديد من القرى لا يسع المجال لذكرها. وتشير أعداد القرى إلى حجم الفلاحين الكبير آنذاك والذي شكّل غالبية سكان المجتمع في بلاد الشام(١).

اختلفت أعداد القرى كما اختلفت مواقعها، فمن القرى ما كان على أبواب دمشق فدخل فيها كسطرا ومُقرا، ومنها ما امتد ما وراء السور كالصالحية والعقيبة، ومنها ما كان صغيراً فاتسع كجسرين أو كبيراً فصغر كالبويضة وعقربا(٢).

ونُسبت بعض الثمار إلى القرى والأماكن المشهورة في انتاجها، فقيل الرمان الشويكي نسبة إلى أرض شويكة، والبطيخ الداراني نسبة إلى قرية داريا، والبطيخ الضميري الأصفر نسبة إلى قرية ضمير، والتين البرزي نسبة إلى قرية برزة، والجوز المنيني نسبة إلى قرية منين والتفاح الحرستاني نسبة إلى حرستا والمشمش العربيلي نسبة إلى عربيل(٣).

كانت القرى في نيابة دمشق موزعة من حيث الملكية، فمنها ما كان ملكاً شخصياً لأصحابها، ومنها ما كان اقطاعاً للسلطان واقطاعاً للأمراء الجراكسة، ومنها ما كان وقفاً(٤). وكان الفلاحون مرتبطين بنوعية الأرض التي كانوا يسكنونها، فالقليل منهم كانوا ملاكين لها، بينما الأكثرية يقومون بالفلاحة لأراضي غيرهم، فقد طبقت دولة المماليك الجراكسة النظام الإقطاعي على أراضيها والذي من خلاله اعتبرت القرى إقطاعات تُمنح للسلاطين والأمراء وتقع على عاتق الفلاحين زراعتها مقابل جزءاً من المحصول. وقام الفلاحون بالاعتناء بها ورعايتها حتى أخرجت ما أخرجته من الثمار والمحاصيل، فقد كانوا يقلبون الأراضي أي

---

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص٤٦- ٤٧، الطراونه، الحياة، ص١٤٩

(٢) للاطلاع على أسماء بعض القرى على سبيل المثال ابن طوق، التعليق، ج٣، ص١١٠١، ١١٠٩، ١٠٨٢، ١١٨٧، ١١٩٧، ١٢١٥، ، ١٢٢٥، ١٤٤٥ ابن طولون، مفاكهة، ص١٥، ١٩، ٧٨، ٩٤، ١٢٥، ١٣٧، ١٤٤، ١٥٢، كرد علي محمد، غوطة دمشق، ط٣، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢١

(٣) البدري، نزهة، ص١١٨، ١٨١، ١٩٢، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٥٥-٢٥٦، ٢٦١، ٣٤٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٦٢- ١٦٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٦٤، الزيات، مشمش دمشق، مجلة المشرق، سنة ٣٥، ١٩٣٧م، ص٢٩، ٣٦٥

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٢٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٤٤

يحرثونها ثم يزرعونها بشكل متوازي ومستقيم ويقسمونها إلى أجزاء بحيث اختص كل قسم بنوع من المزروعات[١].

تحدث البدري عن جانب آخر من عناية الفلاح بالأشجار، لا سيما أشجار التفاح، وهو التطعيم، فقد كان الفلاح يأخذ خشبةً من التفاح فيشق ساق شجرة كمثرى تكون بساقين ويضع الخشبة في احداها ثم يشد عليها خرقة، ويقوم بسقايتها والاهتمام بها حتى تلحم مع شجرة الكمثرى، فيخرج من ثمارها نوعين كمثرى وتفاح[٢]. ولأجل هذه الطريقة فقد وُجد في غوطة دمشق على سبيل المثال شجرة واحدة تحمل أربع فواكه وهي مشمش وخوخ وتفاح وكمثرى، ووُجد في أخرى ثلاثة أنواع من الفواكه وفي غيرها اثنان. وأنتجت كرمة واحدة في بعض الأراضي العنب الأبيض والأسود والأحمر، كما وأنتجت شجرة توت نوعين أبيض وأسود[٣].

وقام الفلاح كذلك بترتيب زراعة الأشجار وتنسيقها وترك مسافة بين شجرة وأخرى حتى ظهرت كالسطور التي تقرأ، وكان يستخدم الزبل في تسميد الأرض. وكانت النساء القرويات يساعدن أزواجهن في الأعمال الزراعية، فيقمن بقطاف ثمار أشجار الزيتون والتين والبرتقال والتفاح والرمان والخضروات وغيرها، إضافة إلى حصاد الحبوب المختلفة. وبعد القطاف والحصاد تُنقل الثمار على الحمير أو بواسطة عتالين ليتم بيعها للقرى أو إرسالها إلى دمشق الحاضرة[٤].

أما الحبوب فكانت بداية تُجمع في البيادر، ومنها بيدر قرية كفر سوسية على سبيل المثال، ومن ثم يذهب بها إلى البواكي كبايكة دار الطعم[٥]، ليتم بعد ذلك بيعها. وفي بعض الأحيان كان المحصول يتعرض للخراب بسبب سوء التخزين، فقد حدث سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) أن أوشكت الحبوب على التلف في أحد المخازن في قرية عين ترما بسبب السوس والفئران والحرارة المرتفعة والتراب الساقط وروث الدواب[٦].

وفيما يتعلق بعلاقة الفلاح بمالك الأرض أو المقطع فقد كانت تقوم على المقاسمة أي أن الفلاح يقدم نصف المحصول للمالك إذا كانت الأرض مسقية بمياه الأنهار. وكذلك المساقاة وتعني قيام الفلاح بسقاية الأرض مقابل جزء من الثمار كالنصف أو الثلث أو الربع حسب

---

(١) المقريزي، إغاثة، ص٤٦، بن طوق، التعليق، ج١، ص٧٩، ٨٦، ٩٤، ٢١٤، ٢٢٧، الصباغ، المجتمع، ص٥٠

(٢) البدري، نزهة، ص٣٦٠

(٣) المصدر السابق، ص٣٥٩- ٣٦٠

(٤) البدري، نزهة، ص٣٦٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٢٨، ٣٤٦، أبو خديجة، هنادي بنت ابراهيم حمزة، المرأة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي، (٦٥٨-٩٢٣هـ/١٢٦٠-١٥١٧م)، أطروحة ماجستير، اشراف محمد سالم با عامر، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ص٨٣

(٥) ابن حجي، م٢، ص١٠٢٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٣٤

(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٥٣

الاتفاق ما بين المالك والفلاح[١]، ومما ورد في هذا المجال سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) اتفاقية عُقدت بين فلاح ووكيل مالك أراضي في جوبر على أن يتولى الفلاح الأرض بالعناية والزراعة وله من الثمر الربع. ووردت اتفاقية أخرى سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) نصّت على استئجار أحد التجار لبساتين مدة أربع سنوات من أحد المالكين بطريقة المساقاة عن الغراس[٢].

أما الضرائب والرسوم التي كان يدفعها الفلاح فتنقسم إلى قسمين، الضرائب المفروضة على الأرض على انتاجها وعلى المواشي التي ترعى فيها، والضرائب المفروضة على الفلاحين أنفسهم[٣].

وقد أدت هذه الضرائب إلى ظلم وإجحاف الفلاحين رغم أهميتهم كطبقة اقتصادية داعمة لنيابة دمشق، فهلك معظمهم من شدة السنين وتوالي المحن. وقد وصف ابن طولون تدني مستوى معيشة الفلاحين فقال "فلو شاء الله تعالى لقلب الفلاح جندياً والجندي فلاحاً، فاذا كان يشكرعلى نعمة الله على أن رفعه عن درجة الفلاح"[٤].

وقد ساهم المماليك بزيادة أوضاع الفلاحين السيئة، فنواب دمشق أثناء حكمهم لها باستثناء القليل منهم لم يكترثوا لأحوالها الزراعية إلا بمقدار ما يمكن أن تؤديه لإقطاعاتهم من واردات ولحكومتهم من أموال[٥]، فقد فرضوا على بساتين المزة وكفر سوسية والنيرب وسائر الغوطة سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٥م) مبالغ من المال، كما تم معاملة القرى الموقوفة كالقرى غير الموقوفة وتم استثناء اقطاعات الامراء من الفرض. وألزموا القرى والمزارع بظاهر دمشق سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) بدفع مبالغ من المال، وتكرر الفرض ذاته على قرى المرج والغوطة وبلاد حوران سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م)[٦]، وأضيف إلى كل هذا المصادرات التي تعرضت لها القرى من قبل بعض الامراء[٧]. وتضررت ضياع القدس من الجباية التي كان يأخذها نائبها حتى تم إلغاء ذلك. وأُخذت الحمير من البساتين وسائر البلدان لتحمل عليها الأمتعة للسفر بعد ان تأكد عزم السلطان فرج بن برقوق على التوجه إلى الكرك[٨]. وعانى الفلاح من اختلاف سياسات الأمراء وتعاملهم بسبب تغير الاقطاعات وتنقلها من أمير إلى آخر، مما أوجد خلافات بين

---

(١) الصيرفي، إنباء، ص٤١٨، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٣، ٤٣٨، العلبي، دمشق، ص٢٣٣
(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٠، ٨٧، ٣٠١، ٤٢٧، وللمزيد ص٥١٢، ج٢، ص٩٥٠.
(٣) الصباغ، المجتمع، ص٥٢
(٤) المقريزي، إغاثة، ص١٠١، ابن طولون، نقد، ص٦٩
(٥) ابن الفرات، م٩، ج١، ص٦٠، المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ص١١١٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٣٠، ج٣، ص١٤٤٧، ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٦٨٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٨
(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٥٥- ٦٥٦، المقريزي، السلوك، ج٣ق٣، ص١١٦٠، ج٤ق١، ص٩٨، ابن حجر، إنباء، ج٦، ص١٤١، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٧٠٦، ٧١٩
(٧) المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص١٥٦، وللمزيد ابن طولون، مفاكهة، ص٢٥٥
(٨) المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص١٣١، ١٦١، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص٧٢

الفلاحين، ففي سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) قام فلاحي أحد القضاة بتحريض فلاح تابع لأمير، فلما أتى الأمير لأخذ فلاحه رفض الأخير الانصياع والاستجابة، وقام بقتل الأمير[١].

وزاد من أوضاع الفلاحين السيئة الأموال التي فُرضت عليهم بسبب المشاة الذين يتقدمون التجاريد، فقد أُلزمت قرية الفندق[٢] القريبة من نابلس سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) بدفع مال مال المشاة، كما أُلزم أهل جبل نابلس سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) بمائة ألف دينار وأربعة وعشرين ألف دينار بسبب المشاة، وتكرر الفرض والالزام سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) على إقطاعات وأرزاق الفلاحين دون غيرهم. ومثلت الرميات جانباً آخر من جوانب ظلم الفلاحين، حيث قام نائب دمشق سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) برمي ألف دينار على قرى من ناحية الغوطة بسبب قتيل شوهد في بعض الطرق بين القرى، ثم خُفّفت إلى خمسمائة[٣].

وعاث المماليك فساداً في أرجاء دمشق سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م)، فقد رعت أغنامهم وخيولهم في بساتين الناس وزروعهم، كما استولوا على أموال الفلاحين لعمارة قلعة دمشق بعد تخريب تيمورلنك لها سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م).

وساعدت الفتن القائمة بين المماليك والحروب الأهلية فيما بينهم على وقوف حال الفلاحين، خاصة أن بعض الفتن كانت تحدث وقت حصاد الغلال وقطف الفاكهة[٤]. كما ساعدت ساعدت فتنة تيمورلنك على ترك الفلاحين لأراضيهم وبساتينهم، فقد قيل عن أحد الميسورين من أهل المزة أنه اشترى بساتين كثيرة بعد الفتنة. وتعرض الفلاحون لهجمات العرب حيث قام هؤلاء سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) بغزو أطراف الشام ونهبوا غلالاً كثيرة. وقام أيضاً أحد زعمائهم سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) بتخريب بلد اربد بتمامها ونهب ما حولها وأحرق ألوفاً من غرائر القمح[٥].

وزادت الكوارث الطبيعية هموم الفلاح وصعوبة عيشه، ولعل أبرز ما تأثر به الجفاف، لا سيما وأن بلاد الشام تعتمد أكثر ما تعتمد على الأمطار في زراعتها[٦]، فقد وصف لنا ابن

---

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٧٦، ٢٩٢، ابن تغري بردي، حوادث، ج٢، ص٥٩٦، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٧٨٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٧٠، ٣٤٠

(٢) الفندق كلمة من أصل يوناني بمعنى خان ونزل، كانت محطة للمسافرين في العهد الروماني، تقع القرية جنوب غرب نابلس، يُنسب إليها عدد من العلماء باسم الفندقي، شرّاب، محمد محمد حسن، معجم بلدان فلسطين، ط٢، الأهلية للنشر، عمان – الأردن، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص٥٥٨

(٣) البصروي، تاريخ، ص١٩٧، ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٤٠٨، ٤٤٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٠

(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٣٠، ٧٦٩، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٥٧٤، ٦٣٠، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٣، ١٠٨

(٥) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص١٠٣٨، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٨٩، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٩٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٩٨

(٦) ابن فضل الله العمري، مسالك، تحقيق أيمن فؤاد، ص٢٥، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٨٦

صصري قحط أصاب دمشق سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٥م) نتج عنه هلاك المواشي لقلة الزرع وجفاف الآبار. كما وصف قحط آخر جعل عنوانه "القحط العظيم" فذكر جفاف الأنهار وتلف الغلال وإغلاق الطواحين وأكل الناس الشعير، وأورد شعراً يصف الحال فقال:

سنين القحط قد دارت علينـــا وعمّت للكبير مـــــع الصغير
وبعنا الفرش والبُسط العوالي ونمنا بالثياب على الحصيــــر
لقينا من أذاها ما لقينـــــــا وزاحمنا الحمير على الشعير(١)

وعلى النقيض من الجفاف، فقد سبّب سقوط الأمطار الغزيرة أضراراً بالغة للفلاحين، فقد حدث عام (٩١٤هـ/١٥٠٨م) أن وقع مطر كثير مصحوب بالبرد والرعد لم يُسمع له نظير، وظن الناس أن القيامة قامت، وقد ذكر أحد الشيوخ البالغ عمره مائة وأربع عشرة سنة أنه لم يرى في حياته مثل هذا الشتاء(٢).

ومن المُسلّم به أن ارتفاع الأسعار ارتبط بالجفاف على الدوام بارتفاع الأسعار، فقد ذكر ابن اياس سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٥م) أن غزة قد ارتفعت الأسعار بها لقلة الأمطار، وذكر ابن طولون في حوادث سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) أن الاغنام كانت قليلة، ولحومها ولحوم الأبقار مرتفعة السعر، والناس في شدة من غلاء القمح بسبب قلة الأمطار، وحدث في شهر محرم من سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) كذلك أن قلّ المطر بدمشق وأطرافها وكثر الغنم "ربما بسبب جلبه من مصر" مع استمرار ارتفاع سعره وارتفاع سعر الحب، إلا أن سقوط المطر فيما بعد جعل أسعار الحب منخفضة مقارنة بما مضى من الغلاء(٣).

وإلى جانب الجفاف كان الطاعون أحد الكوارث الطبيعية الأخرى التي تأثر بها الانتاج الزراعي بسبب موت الفلاحين. وأضيف البرد والثلج والجليد والريح إلى الكوارث التي حلت بالانتاج الزراعي، وساهمت في تراجعه وأثرت تأثيراً سيئاً مباشراً على الفلاح الدمشقي(٤).

إلا أنه من الإنصاف القول أن بعض هذه الظواهر كالثلج مثلاً كان في بعض الأحيان مفيداً للزرع، حيث ذكر ابن طوق سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) أنه سقطت ثلوج غزيرة جلبت معها الخير الكثير للزرع وغيره. ومن الكوارث الطبيعية التي فتكت بالزراعة الفئران والجراد، فقد كثرت الفئران سنة (٨٢٩هـ/١٤٢٦م) باللجون من طريق الشام وصارت تقرض الزرع، وقد تضرر الناس ومنهم الفلاحون، وتضرعوا إلى الله أن يرفع عنهم هذا البلاء، فاستجاب الله

---

(١) ابن صصري، الدرة، ص١٦٤، ٢٠١- ٢٠٢، ٢٢٧
(٢) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٨٦
(٣) ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٧١٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٨، ٣٠٨، ٣١٥
(٤) ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٨٠٣، ٨١٠، ج٢، ص١٩٣، ٣٥٤، ٣٥٦

لدعائهم فأهلك الفئران، وتعجب الناس حينما رأوا الفئران ميتة دون معرفة الفاعل فعُدّ ذلك من النوادر الغريبة(١).

وانتشر الجراد في بعض المواسم وسبّب أذىً بالغاً للانتاج الزراعي في السنوات (٨٠٣هـ/١٤٠١م) و (٨١٣هـ/١٤١١م) و(٨٨٧هـ/١٤٨٢م)(٢). وقد وصف ابن طوق وابن اياس الأضرار التي لحقت بالزراعة فذكر الأول انتشاره في غوطة دمشق وبيروت والبقاع والنيرب والمزة وكفر سوسية وبساتين من الصالحية، وإتلافه شجر الزيتون والتين والباذنجان، وتحدث بشكل دقيق عن انواع الجراد وأماكن انتشاره والأذى الذي سبّبه، ولعل ذلك يشير إلى خبرة ابن طوق الزراعية. أما ابن اياس فقد بيّن آثار الجراد التي تعدت الزراعة إلى نواحي أخرى كان القصد منها تصور عظم البلاء والمصيبة التي حلت بالنيابة جراء هذه الكارثة، فقد ذكر سنة (٨١٣هـ/١٤١١م) أنه وقع جراد عظيم لم يُسمع بمثله، قدم من مكة إلى الشام وانتشر في حوران وبعلبك وعجلون حتى أكل الأشجار وأبواب الدور فغُلقت الأسواق(٣). وبالإضافة إلى هذه الكوارث انتشرت بعض الأمراض في الأبقار والأغنام أدت إلى نفوقها،. وقد ذكر ابن الحمصي تأثير موت البقر على الزراعة سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) فقال "كثر الموت بدمشق فجأةً وتزايد ومنه موت البقر، حتى أن بعض البلاد صاروا يحرثون على الآدميين وعلى الحمير... وأن غالب ضواحي دمشق في هذه السنة لم يقدروا على الزروع لموت البقر ... وبالله المستعان"(٤).

أثرت تلك الكوارث وغيرها من الأسباب على حياة الفلاحين بحيث أدت إلى انخفاض مستواهم المعيشي الذي انعكس على شؤون حياتهم المختلفة في ملبسهم ومأكلهم ودورهم وأدواتهم الزراعية، على النحو الآتي:

- الملبس؛ حيث لبس الفلاحون الزنوط "الزموط" وهو لباس من قماش يوضع على الرأس يشبه العمامة والبُرد السود والقمصان الكبيرة الأكمام.
- ونوع الطعام البسيط الذي كانوا يتناولونه والمكوّن من الخبز والشعير وحساء العدس والدبس والزيتون واللبن والبرغل والكشك، بعيداً عن اللحوم التي لم يكن الفلاح يأكلها إلا في مواسم الأعياد.

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٥٨، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢١٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٧، ١١٢، ١٢٨، ٢٠٧، ٢٢٠

(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٣٢، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص١٠٢

(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٩، ٢٥١، ٤٥٥- ٤٥٦، ٤٨٦، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٦٢٣، ٦٣٠، ٨٠٣، ج٢، ص١٠٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٨، ٩١

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٩، ٢٤٣، ٢٥١، ٤٥٥، ٤٨٦، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٨٠٣. ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٢٣.

- كما كانت بيوتهم مكتظة ومتقاربة تحوي الحاجات الضرورية المستخدمة في الأمور المعيشية، وتميزت بخلوها من المقاعد أو الموائد بل حوت قطعاً من السجاد والحصر والبسط. وكان في كل بيت مخزن للحبوب بالإضافة إلى الفرن أو التنور لعمل الخبز[١].
- أما أدواتهم الزراعية، فقد وُصفت بأنها بسيطة حيث كان الفلاح يصنع معظمها بنفسه كالمحراب والمنجل، وكان يستعمل الثيران في جرّ محراثه وينقل محاصيله بواسطة الجمال والحمير والبغال بين القرى أو بين القرى والمدن[٢].

حاول الفلاح مواجهة الظروف التي ألحقت به الأذى فقد لجأ إلى الجامع الأموي في أحيان لبث شكواه والاستغاثة ضد الرميات، فنجح في التقليل من مبالغ الرميات دون إلغائها، كما لجأ إلى تغيير مهنته – الفلاحة – علّه يجد سبل العيش الكريم في غيرها، فقد انتقل أحد الفلاحين من العمل بالزراعة ليعمل شاهداً بأبواب الترك[٣]. وقام فلاحون بالهجرة من عملهم بحثاً عن الحياة الأفضل وفراراً من الظلم الحاصل عليهم من المالكين والمقطعين، إلا أن الدولة عن طريق ديوان الجيش كانت لهم بالمرصاد، فقد أصدرت قانوناً يمنع الهجرة من القرية قبل مرور ثلاث سنين، ومن خرج دون ذلك يُلزم ويُعاد إلى القرية ذاتها بالقوة[٤].

وهناك فئة من الفلاحين سلكت مسلكاً سلبياً في مواجهة الواقع المرير فظلمت بذلك نفسها، فقد قام البعض بعصيان أوامر مستأجري البساتين وبارتكاب الجرائم المختلفة كالقتل والسرقة والاعتداء على الآخرين[٥].

٤ – فئات مستألفة

كان توزيع الإقطاعات سبيلاً لاستئلاف فئات من الناس في بلاد الشام[٦] ومنهم:

- **العربان**

تواجد العربان في مختلف أرجاء نيابة دمشق وكان أشهرهم آل ربيعة، ملوك البر وأمراء الشام والعراق والحجاز، وسبب تسميتهم يعود إلى ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٩٨، ٣٩٣، خصاونة، طبقات، ص١٣٩، ١٤١
(٢) ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٣٧٦، ج٥، ص١١١، ماير، الملابس، ص٥٩، ٩٨، طرخان، النظم، ص٣١٥، الصباغ، المجتمع، ص٦٠
(٣) البصروي، تاريخ، ص١٩٧– ١٩٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٠
(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٨٣، ٤٥٠، ابن طولون، نقد، ص٧٤
(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٩٩، ٢٧٥، ٢٨١، ٢٩٢، ٣١٠، ٣٢٦
(٦) احسان، بلاد، ص١٥٢

دغفل بن جراح من طيء من كهلان من القحطانية عرب الجنوب[١]. وقد انقسم آل ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ:

١- آل فضل نسبة إلى فضل بن ربيعة ومنازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبه ثم إلى شقي الفرات وأطراف العراق حتى الوشم فالبصرة، ويُنعت بنو فضل آل عيسى بملوك البر وسادات الناس وهم عدة بيوت، فهناك بيت مهنا بن عيسى وأميرهم وأمير سائر آل فضل أحمد بن مهنا وبيت فضل بن عيسى وغيرهم[٢].

٢- أما الفخذ الثاني فهم آل مرا وينتسبون إلى مرا بن ربيعة وهو أخو فضل، وديارهم من بلاد الجيدور والجولان إلى الزرقاء والضليل إلى بصرى حتى الشرق إلى الحرة المعروفة بحرة كشت قرب مكة[٣].

٣- والفخذ الثالث آل علي وقد انحدروا من آل فضل ونسبتهم إلى علي بن حديثة بن عصبية بن فضل بن ربيعة، ومنازلهم مرج دمشق وغوطتها بجانب إخوانهم آل فضل وأعمامهم آل مرا، وينتهي نفوذهم إلى الجوف فتيماء ثم البرادع[٤].

ومن القبائل العربية التي سكنت بلاد الشام بنو صخر وبلادهم حول الكرك، وبنو مهدي وديارهم البلقاء إلى باير إلى الصوان فعلم أعفر، وجرم ويسكنون غزة والداروم حتى الخليل، وزبيد وهم عدة فرق، فواحدة في صرخد وثانية في الغوطة وثالثة في الرحبة بجوار آل فضل[٥]، وبنو خالد عرب حمص ينسبون إلى خالد بن الوليد. وقد أشار القلقشندي إلى هؤلاء ضمن ذكره العرب المستعربة الذين هم من بني اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام[٦]. وهناك قبائل أخرى أوردها المؤرخون ضمن كتاباتهم لا يتسع المجال لذكرها.

كان لكل قبيلة من القبائل الآنفة وشم (علامة) تُرسم على أيدي أبنائها لتميزهم عن غيرهم، كما كانت هذه العلامة توضع على جمالهم للغاية نفسها[٧]. ولقد شاركت هذه القبائل في الأحداث السياسية في السلطنة المملوكية، فقد كان لآل فضل وزعيمهم عيسى بن مهنا دور في

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٠٣، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتب الحديثة – القاهرة، ص٧٣، السيد محمود ، عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة– الاسكندرية، ص٤٤

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة وتحقيق، دوروتيا كرافولسكي، ط١، المركز الاسلامي للبحوث، (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م)، ص١١٤، ١١٦، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٠٤ ، قلائد ، ص٧٦ – ٧٧

(٣) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٠٨، قلائد، ص٧٩، ٨٣

(٤) العمري، قبائل، ص١٣٦– ١٣٧، القلقشندي، قلائد، ص٨١

(٥) العمري، قبائل، ص١٠٧، ١٠٩– ١١٠، القلقشندي، صبح، ص٢١٤

(٦) العمري، قبائل، ص١٤٣، القلقشندي، صبح، ص٢١٤

(٧) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٦، ٤٠٢ وقد ورد عند ابن منظور، لسان العرب، ط١، م١٢، دار صادر، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٦٣٦، ٦٣٨، أن الوسم للبعير والوشم للإنسان.

معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) حيث ساعدوا المماليك على دحر التتار وتحقيق النصر للمماليك، فكافأهم السلطان قطز بأن أقطعهم مدينة سلمية من أعمال حماة[١]، وفي عام (٧٩١هـ/١٣٨٨م) كلف الأمير عيسى بن مهنا شيخ العرب بالحفاظ على سلامة السلطان برقوق وأخذه إلى الكرك ليبقى هناك معتقلاً في قلعتها. كما قام عيسى بن فضل أمير آل علي وبنو مهدي وعرب حارثة وغيرهم بقتال جيوش تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) وقتلوا أكثرهم واستولوا على ذهبهم ولؤلؤهم[٢].

وتولت قبائل أخرى إخماد الفتن وحركات العصيان التي كانت تقع ضد السلطان المملوكي[٣]، كما قامت فئة بتوطيد الأمن وحماية الحجاج المسافرين أثناء حلهم وترحالهم[٤]. واستغلت بعض القبائل حب المماليك لاقتناء الخيول، فقامت باختيار الأجود منها وقدمته للسلاطين مقابل مبالغ ضخمة وإقطاعات واسعة، حتى أن بعض الشيوخ طلبوا بلاداً مقطعة لأمراء، فأجيب طلبهم وعوض الأمراء بغيرها من الإقطاعات[٥].

وقد اتخذ هؤلاء العرب الجانب السلمي وفضّلوا الخضوع للسلطان المملوكي وتقديم الولاء والطاعة حتى تلقبوا بـ "عربان الطاعة"، وعلى النقيض منهم كان هناك "عربان العصاة" أو خارجين عن الطاعة، أنِفوا الخضوع للدولة وأعلنوا التمرد والعصيان، كما عاثوا فساداً ودماراً في أرجاء نيابة دمشق[٦]، غير أنه من الملاحظ أن سلوك الطاعة والعصيان لم يلازما أصحابهما بل نرى خروجاً عنهما، ولعل مرد ذلك طبيعة العربي ـ البدوي- التي ترفض الانصياع وإغراء البعض وتحريضهم[٧].

على أية حال شكّل قسم من العربان خطراً حقيقياًعلى المماليك ، فقد كانوا يغيرون على القوافل ومنها القوافل القادمة من العراق ومن حلب ويقطعون الطريق على الناس والتجار، كما كانوا يسيئون للحجاج، فعلى سبيل المثال قاموا في سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٨م) بمهاجمة الحجاج فأخذوا من ثلثهم جميع ما كانوا يملكون وكان برفقتهم آنذاك ناظر الجيش فتعرّض هو الآخر

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٠٦، السيد، عرب الشام، ص٤٥، ١٢٩، ١٤١

(٢) ابن إياس، بدائع، ج١ق٢، ص٤٠٩، ٦٠٧.

(٣) السيد، عرب الشام، ص١٢٢

(٤) البصروي، تاريخ، ص٢٣٠، ابن طولون، إعلام، ص٢٠٠

(٥) طرخان، النظم، ص٧٦، السيد، عرب الشام، ص٩١، ١٩٩، زكريا أحمد وصفي ، عشائر الشام، ط١، دار دار الفكر، دمشق- سوريا، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص٩٤

(٦) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٨٩،٢٩٨، ٤٣٥، ٥١٤، م٢، ص٥٩٨، البصروي، تاريخ، ص١٠٥، ١٥٣، ٢٢٣، ابن طولون، مفاكهـة، ص٨٤، ١٩٤، وللمزيد حول تعدياتهم انظر العليمي، الأنس، ج٢، ص٣٧١- ٣٧٢، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص٣٠٦، ٣٤٢

(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٤٥، ٥٥٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٦١، ٤٨٩

للنهب وسُلب منه خمسون جملاً[١]. وأضيف إلى كل هذا ممارستهم القتل والأسر، فقد قتلوا كاشف نابلس وكاشف البلاد القبلية في بلاد عجلون سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م)، وأسروا آخرين واعتدوا على القرى ونالوا من أهلها[٢]. وقد كانت تعدياتهم تلك تزداد مع انتشار الفتن وحدوث الاضطرابات السياسية واختلاف المماليك فيما بينهم وتساهل نائب دمشق ولينه وعدم اكتراثه بما يحيط به. أما قوتهم فكانت تعظم حينما ينضم إليهم العشير والتركمان[٣].

واتخذت السلطة المملوكية عدة اجراءات لمواجهة تعديات العربان، حيث أوكلت مهام صدهم وكف أذاهم أولاً: للنواب، كنائب غزة، حيث كان يؤمر بشكل خاص بحفظ الطرقات وأمن السبيل[٤]، وثانياً: للكشاف، فقامت بتعيين الأكفاء منهم ففي سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) تم تعيين الأمير صروق في كشف بلاد الشام لدفع العربان عنها فأكثر القتل فيهم[٥]. وأُعدت التجاريد لقتالهم ففرضت على الناس مبالغ لأجل المشاة، كما أُخذت من الحارات نفسها رجال وضرائب كضريبة السكاكر، وسيّرت حملات عسكرية لمباغتتهم، وكانت الحملات مصحوبة في بعض الأحيان بقوات إضافية من مشايخ البلدان[٦]، وجهز المماليك فرقاً عسكرية أخرى لمرافقة القوافل وقدمت مبالغ من المال للقبائل البدوية كما عقدت هدناً وفق شروط مقبولة للجميع[٧]، وكانت أحياناً تبني قلاعاً فتضع فيها مقاتلة لأحكام السيطرة ومراقبة الأوضاع وحماية الحجاج والمسافرين[٨]. ولجأ نائب دمشق إلى تعنيفهم والتقليل من شأنهم والحط من مقدارهم، ففي سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) حضر الأمير مقلد كبير العرب عند النائب فشتمه وسبه وأهانه وكاد يوقع به لولا وساطة الأمراء وشفاعتهم وتعهدهم بالمحافظة على البلاد[٩].

وكان المماليك أيضاً يضربون العربان ببعضهم ويجعلون الحسد والكراهية تملأ نفوس الآخرين منهم حينما يقلدون أميراً ويغدقون عليه العطايا والهبات دون غيره، ويقربونه ويقيمون

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٨٥، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٦٠٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٦٢، ١٢٧

(٢) العمري، مسالك، ص١٤٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٥٣، العليمي، الأنس، ج٢، ص٣٧٥، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٨٠٢- ٨٠٣، ابن طولون، مفاكهة، ص١٩٩

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٠٢، م٢، ص٦٨٢، ٦٩٥، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٦١٨

(٤) ابن اجا، تاريخ الأمير يشبك، ص٦٨

(٥) المقريزي، السلوك، ج٣ق٣، ص١٠٨، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٦٤٦

(٦) البصروي، تاريخ، ص١٨٠، ابن اياس، بدائع، ج٤، ص١٠٨، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٧٨، ٢٤٣، م٢، ص١٧٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٢١٣، ٢٤٩- ٢٥٠، إعلام، ص١٩٢

(٧) ربايعة ابراهيم حسني صادق ، نهاية دولة المماليك، دراسة تحليلية، مجلة جامعة القدس المفتوحة، العدد ١٤، (شوال ١٤٢٩هـ/ تشرين أول ٢٠٠٨م)،ص٢٩٢، السيد، عرب الشام، ص١٨٩

(٨) البخيت، مملكة، ص٦٥

(٩) ابن طولون، مفاكهة، ص١٤

له الولائم[١]، كما كانوا يقربون التركمان وينزلونهم منازلهم ويقدمون لهم إقطاعاتهم ويبالغون في في الحفاوة بهم للغاية نفسها ولغايات أخرى أهمها مفاسد وأذى العربان[٢].

غير أن هذه الإجراءات لم تكن في أغلب الأحيان برادعة للعربان وسبيلاً لتراجعهم ومنع تحركاتهم، ولعل القسوة والإساءة الشديدة في التعامل معهم كانت السبب الرئيسي في إصرارهم وعنادهم واستمرارهم في المقاومة. فقد تم سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) قتل نحو ثلاثين رجلاً من قبيلة هيثم على يد كاشف حوران، كما شُق بطون النساء الحوامل وقُتل الصبيان وأُخذ الأغنام والأبقار رغم إظهارهم مرسوم أمان من النائب للكاشف، وقد علق ابن طولون في مفاكهته على هذا الخبر قائلاً "وفعل فيهم أفعالاً لا تصدر عن أهل الحرب فلا قوة إلا بالله"[٣]، وعلق في موضع آخر سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م) على ردة فعل العرب تجاه سلوك المماليك، فقال "جاء الخبر إلى النائب بأن العرب طاشت وهاشت لأجل ما أخذه النائب من أموالهم"[٤]. وربما تقودنا هذه الأخبار إلى الحديث عن الخلل الحاصل في تنفيذ الاجراءات.

فقد كان يصل للسلطان شكاوي عن العربان عارية من الصحة فلا يمحص في حقيقتها كما حدث سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) عندما شكى أحد القضاة عن شيخ بلاد الصلت وعجلون ومعاملتها للسلطان بأنه يجمع العصاة والعربان، فورد مرسوم لنائب دمشق بالخروج على الشيخ وتخريب بلاده وحرقها ونهبها. وتبين أن السبب الحقيقي للشكوى عدم تقدير الشيخ واحترامه للقاضي في أحد المجالس[٥].

وكذلك وصلت شكوى للسلطان سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) من نائب حمص تتهم أمير آل فضل بالانضمام لأحد الصوفية الخوارج وبعزمه أخذ دمشق، فأوعز السلطان لنائب دمشق بالخروج إلى حمص لمقاتلته رغم أن الشكوى كانت تلفيقاً وكذباً. ونجد أحياناً تعارضاً بين قرارات النواب في شأن العربان مما ينعكس سلباً على حياتهم، حيث حدث سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) أن أمّن نائب الشام مشايخ العربان في حين قبض عليهم نائب صفد وكبَلَهم بالحديد وساقهم إلى قلعة صفد، فأدَى هذا إلى وقوع البغض بين النائبين وقيام نائب الشام بنهب صفد وجرح جماعات هناك، ومن ثم أرسل كلا النائبين شكواهما إلى السلطان[٦].

---

(١) اليوسفي، نزهة، ص٨٨، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٦٦، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٧٥، م٢، ص٢٢٧، ربايعة، نهاية، ص٢٩٢
(٢) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٥٨
(٣) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٩٣، ١٩٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٧٥، ١٠٥، ٢٧٤، ٢٧٧- ٢٧٨، ربايعة، نهاية، ص٢٩٢
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٦٢
(٥) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٨٧
(٦) المصدر السابق، م٢، ص١٩٢، ٢١١

أما فيما يتعلق بالناس فقد قادهم خوفهم من العربان إلى اللجوء إلى الكذب والحيلة حتى لا يقعوا في أيدي العرب. فقد حدث سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) "أن مر جماعة بالبرية فخرج عليهم العرب فقال بعضهم لبعض: اجعلوا أحدنا كالميت وغطوه بشيء، فإذا وصلوا إلينا نقول هذا ميت ونحن نريد غسله وتكفينه ودفنه، فلما وصل العرب إليهم قالوا ذلك لهم، فهربوا وتركوهم تفاؤلاً" ومن عجائب القدر أن الجماعة عندما ابتعد العربان عنهم قاموا بكشف الغطاء عن صاحبهم الذي ادعوا موته فوجدوه قد مات حقاً(١).

وبعيداً عن خلافات العربان مع المماليك وتعدياتهم والاجراءات التي أتخذت بشأنهم، فقد مارس هؤلاء حياتهم العادية في ظل الدولة المملوكية كغيرهم من فئات المجتمع وليس أدل على ذلك من إحصاء ابن شاهين الظاهري لأعدادهم على اعتبار أنهم شريحة لا يُستهان بها في دعم جيوش دولة المماليك، فقد ذكر أن آل فضل بلغ عددهم أربعة وعشرين ألفاً، وآل علي ألفان، وعرب جرم ألفان، وعرب آل مرا ألف، وغيرهم كثير(٢).

كان السلطان المملوكي يعيّن أميراً للعرب يتولى شأن قبيلته، فيُرسل أحد المتنفذين من أرباب السيوف ليقوم بتقليده الإمرة وإعطائه مالاً وهدايا(٣)، وفي بعض الأحيان كانت الإمرة تقسم بين أميرين، مع الحرص على عدم إبقاء الأمير في فترة طويلة إمعانا في ضبط أمور قبيلته وكسر شوكتها(٤)، كما كان يتولى الإمرة الصغار فقد خلع على سلمان بن عذرا بن مهنا سنة (٨٣٣هـ/١٤٣٠م) بالإمرة وعمره خمسة عشر سنة. وحينما تتعرض قبيلة الأمير للاعتداء فإن السلطة الحاكمة ومن يمثلها كالنائب، لا تألُ جهداً في تقديم المساعدة والعون لصدّ الاعتداء، وعلى العكس من ذلك فإذا أساء النائب ورجاله إلى العربان وأمعنوا في ظلمهم، فإن شكواهم تصل للسلطان ليتخذ التدابير التي ترفع عنهم الظلم وتعيد حقوقهم(٥).

ولم يعف الأمير العربي من التزاماته المتمثلة بالتقادم والهدايا جراء نيل أو الحفاظ على منزلته ورتبته، وكان يسعى سعياً حثيثاً لدى النائب للحصول على القبول والخلع والبقاء في الإمرة، مشابهاً في ذلك غيره من أرباب السيوف في الدولة المملوكية(٦)، إلا أن بعض شيوخ العربان نال منزلة عظيمة لدى الخاص والعام بأعماله الجيدة لا بهداياه وعطاياه، فقد عُرف عن الأمير ناصر الدين محمد المعروف بابن ساعد الغزاوي، الدين والخير، وفرح الناس بقدومه إلى

---

(١) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢١٨
(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١٠٥
(٣) ابن صصري، الدرة، ص١٧، ٦٤، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٦٦، م٢، ص٦٣٩، ٧٢٩، ٧٣٥، البصروي، تاريخ، ص٢٢١
(٤) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٨، السخاوي، التبر، ص٢٩٩، خصاونة، طبقات، ص٤٢
(٥) الصيرفي، نزهة، ج٣، ص١٩٨، البصروي، تاريخ، ص١٧٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣، ٢٨٧
(٦) العمري، قبائل، ص١٣٦، ١٤٤، العليمي، الأنس، ج٢، ص٣٧٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٧

دمشق سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) ورأوا فيه ملاذاً لإصلاح شأن الحجاج وغيرهم، وقد استقبله النائب استقبالاً حافلاً فأكرمه وقدم له سماطاً ثم ألبسه خلعة ولولديه اللذين أتيا معه، وعندما اصطحبه النائب إلى الجامع الأموي لأداء صلاة الجمعة ازدحم الناس لرؤيته والدعاء له[١].

ومن العادات الحسنة الأخرى التي اتصف بها العرب الكرم والأمانة والشجاعة[٢]، غير أنه بجانب تلك العادات وجدت عادات سيئة عندهم كالثأر والقذارة، حيث كانوا يعيرون أهل المدن لاهتمامهم بنظافتهم، إضافة إلى ضعف التزامهم بالشعائر الدينية كالصيام والزكاة والحج. كما عُرف عنهم أيضاً عدم توريث البنات[٣].

ومن عاداتهم السيئة في المآتم لبس السواد وتلطيخ وجوه نسائهم بالدبس والرماد مع غياب قراءة القرآن ووجود الوعاظ وقت العزاء[٤].

عاش العرب حياتهم متنقلين بين موضع وآخر، إما طلباً للكلأ صيفاً وشتاءً أو هرباً من المماليك، لذلك كانت بيوتهم خيامٌ من الصوف السميك المثبت بالأوتاد[٥].

وجرت العادة أن توقد نار أمام الخيام ليهتدي بواسطتها الضيوف فيحصلون من أصحابها على ما يتمنونه[٦]. ولكن رغم عيش العرب في خيام إلا أن بعضهم كان غنياً فقد امتلك امتلك أحدهم ثلاثين ألف جمل وبُسط حُملت كل فردة منها على جملين. إضافة إلى امتلاك الآخرين الخيول المسومة والأغنام والأبقار والجمال والذهب الكثير والأقمشة المنوعة والجواري والعبيد والقرى والضياع والغلال[٧].

كان هناك قسم آخر من العربان فضّل الاستقرار وممارسة الزراعة تلقّبوا بالعشير وعدوا كأنصاف البدو، قادهم مقدّم دُعي مُقدّم العشير، وأشار ابن صصري إليهم فسماهم بداية عشير ثم بعد ذلك فلاحين. وقد أحصى ابن شاهين الظاهري أعدادهم فوجدها خمسة وثلاثون مقدماً[٨]، وكان منهم بنو الحنش في سهل البقاع وضواحي حماه وبنو بشارة في جنوب لبنان

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩١
(٢) العمري، قبائل، ص١٢٠، ١٢٤- ١٢٥، ابن قاضي شهبة، ج٣، ص١٧، خصاونة، طبقات، ص١٦١
(٣) السبكي، معيد، ص٥٥، البصروي، تاريخ، ص٢٣٢، العلبي، دمشق، ص٧٦،
(٤) اليوسفي، نزهة، ص٩٠
(٥) خصاونة، طبقات، ص١٦٢
(٦) العمري، قبائل، ص١٣٥- ١٣٦
(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١١٢، المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٦٣١، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص١١١، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٧، ٢٧، ٢٧٤، العمري، مسالك، ص١٤٠- ١٤١
(٨) ابن صصري، الدرة، ص٥، الظاهري، زبدة، ص١٠٥

ومناطق صفد وصيدا وبنو الحمراء في بيروت، وابن العزقي وابن باكلوا في بردى والزبداني وابن اسماعيل وابن الجيوسي في نابلس وغيرهم(١).

اعتبر المماليك العشير أحد رعايا دولتهم فقاموا بتكليف مقدمهم بتجهيز خمسة وثلاثين خيالاً منهم للخروج في الحملات والتجاريد العسكرية وجمعوا أموالاً كثيرة من أفرادهم كإعانة على قتال من عاداهم لا سيما العثمانيين(٢). كما عيّنوا بعضاً منهم نواباً، فكان نائب بيروت وبعلبك والبقاع وصيدا والزبداني من العشير، وأنعموا ببعض الرتب العسكرية على قسم منهم(٣). منهم(٣). وكان العشير من جانبهم يشاركون المماليك في حياتهم السياسية والاجتماعية حيث كانوا كانوا على سبيل المثال يساعدونهم في إخماد الفتن وحركات العصيان وينالون لقاء ذلك الإقطاعات(٤). كما كانوا يخرجون لاستقبال النواب الجدد وقصّاد سلاطين المماليك القادمين من مصر عند حضورهم إلى دمشق كغيرهم من الناس، ويقومون بزيارة نائب الشام تتقدمهم الهدايا والخيول. وحينما تسوء علاقات العشير مع بني جلدتهم فإنهم لا يتورعون باللجوء إلى المماليك لإصلاح شأنهم، ويستعينون بهم أيضاً في قضايا القصاص والتركات الخاصة بهم(٥).

ولكن رغم كل ذلك فقد غلب على العشير إثارة القلاقل وكثرة التعديات لاسيما وقت حدوث الاضطرابات السياسية في الدولة المملوكية، فقد استغل آل حنش منهم حصار السلطان الظاهر برقوق لمنطاش "نائب ملطبة" في سنتي (٧٩١هـ/١٣٨٨م) و(٧٩٢هـ/١٣٨٩م) فقاموا بإحراق بعلبك ونهبها وسبي حريمها، وفعلوا بغيرها من القرى مثلما فعلوا ببعلبك(٦)، وقاموا بقتل نائب الكرك سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م)(٧)، واستغلوا غزو تيمورلنك لدمشق سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) وخروج الأمراء المصريين منها، فقاموا بسلب طوائف منهم ولم يتركوا غير اللباس على وسطهم، وقتلوا دوادار السلطان سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م). وقد علّق ابن اياس على

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص١٩٧، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٣٠٣، السخاوي، التبر، ص٢٦٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٥، ١٩٩، ١٥٠

(٢) ابن صصري، الدرة، ص٦٤، الظاهري، زبدة، ص١٠٥، البصروي، تاريخ، ص١٨٠، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٤٣، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص٥٤، ٣٩١، ج٤، ص٥١، ٤٠٨، ٤٤٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٥٢

(٣) ابن صصري، الدرة، ص٧، المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٦٩٧، البصروي، تاريخ، ص١٨٣، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٤٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٤، ١٦٣، ٢٩٨

(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٨٧، الصيرفي، إنباء، ص٢٢١، ابن طولون، مفاكهة، ص١٥٠، ١٩٨، ١٩١- ١٩٩ ١٩٩

(٥) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٦٩٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٥، ١٩٩، ٢١٠، ٢٩٨

(٦) ابن صصري، الدرة، ص٥٧- ٥٨، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٣٠٠، ٣٠٣

(٧) ابن الفرات، تاريخ، م٩ج٢، ص٢٤٩، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٨٥-٨٦، البخيت، مملكة، ص٨٠

هذا قائلاً "جرى عليهم من العربان والعشير ما لا جرى عليهم من عسكر تيمورلنك"[١]. واتسعت حوادث القتل فشملت كذلك القرى، حيث قام ابن باكلوا سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٨م) بقتل رئيس قرية دمر وكبيرها[٢]. ونالت تعدياتهم الحجاج والتجار حيث عمدوا مع العربان سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) إلى نهب أموالهم وجمالهم وأمتعتهم، كما أخذوا غالب النساء الحسان وسافروا بهن إلى بيوتهم لممارسة الزنا والفواحش[٣]. وكانت خلافاتهم مع بعضهم البعض تشكل تشكل ضرراً وأذىً لا يُستهان به في المناطق القريبة من قتالهم واشتباكهم[٤].

اتخذ المماليك عدة أساليب في مواجهة تعديات العشير، فقد أرسلوا التجاريد والحملات العسكرية لقتالهم، وكانوا أنفسهم يتولون القيادة مما يشير إلى خطرهم وعظم قوتهم، ولجأوا إلى تقريب بعضهم وإبعاد آخرين عن طريق التقليد والعزل، فقد قاموا بعزل ناصر الدين بن الحنش، مقدم البقاع، وعيّنوا بدلاً منه أخاه حسن سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م)[٥]، واستخدموا المصادرات والغرامات وجمع الأموال بغية تأديبهم وكبح جماحهم، ووجدوا في العفو والمصالحة والإحسان طريقاً آخر لكسب ودّهم وتطويعهم وإبعاد أذيتهم[٦]. إلا أن كل هذا لم يغيّر في طباعهم وسجاياهم، حتى أن إخلاص القليل منهم وإطاعتهم كان منقوصاً، فقد توجه الأمير الكبير اقبردى الدوادار[٧] إلى جبل نابلس سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) للقبض على بني اسماعيل مشايخ جبل نابلس نابلس بسبب تقصيرهم في قتال العثمانيين، وتكليف نائب القدس آنذاك باسترجاع مال التجريدة الذي دفع لرجالهم بسبب تهاونهم في القتال وعودتهم إلى بلادهم دون إذن[٨].

- **التركمان والأكراد**

التركمان جيل من الترك سمّوا به لأنه آمن منهم مائتا ألف في شهر واحد، فقالوا "ترك مان"، ثم خُفّفت فقيل "تركمان". ترجع أصول التركمان إلى الأتراك الذين استوطنوا آسيا الوسطى ثم الأناضول هرباً من جنكيز خان، ثم جاءوا مع السلطان آلب أرسلان السلجوقي، فمنهم طائفة

---

(١) ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٦١٨ ، للمزيد انظر مجهول معاصر للسلطان قايتباي، تاريخ الملك الأشرف قايتباي، تحقيق محمد عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص٩١

(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٨٥، ٢٢٣- ٢٢٤، ١٦٣

(٣) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٧٢

(٤) ابن صصري، الدرة، ص٥٧- ٥٧، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٣٠٠، ٣٠٣، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٤٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨١- ٢٨٢، ٢٢٣

(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص١٢٧، ١٧٣- ١٧٤، ٢٢٣- ٢٢٤، ٢٤٥، ٢٤٦

(٦) ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٥١، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٣، ١٧٥، ٢٩٨

(٧) الدوادار: كلمة فارسية الأصل معناها صاحب الدواة مهمة صاحبها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة عامة الأمور وتقديم القصص إليه ومشورته فيمن يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٩. ابن طولون، نقد، ص٥٩، ابن كنان، المواكب، ق٢، ص٨.

(٨) العليمي، الأنس، ج٢، ص٣٤٥

سكنت ديار بكر وأخرى بلاد الروم وثالثة سكنت بلاد الشام، فأقاموا في مناطق الثغور الغربية من حدود الدولة المملوكية شمالي بلاد الشام، وكوّنوا فيها إمارات سُميت بأسماء أسرهم كإمارة دلغادر والآمدقونيلو والرمضانية والقرمانية. وقد سكنوا في عين تاب وتيزين وبغراس والجبل الأقرع ومرعش والمعرة، حيث كانت أول إقطاع يمتلكونه في بلاد الشام الشمالية[١]. وقد دخل قسم منهم إلى دمشق مع أبقارهم وأغنامهم وجمالهم وحريمهم وأولادهم وبيوتهم، تاركين بلادهم شمالي بلاد الشام بسبب قلة المطر والمرعى[٢].

وقد كلفوا من قبل المماليك بتقديم ما مقداره مائة أو ثمانين ألف خيّالاً كمجندين للجيش المملوكي[٣].

أما الأكراد فينتسبون إلى إقليم كردستان شمال العراق، وقد دخلوا إلى بلاد الشام في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر الميلادي، واستقروا في كل من بيت المقدس وشيزر وصفد وعكا وغزة وطرابلس وحلب ونابلس، غير أن غالبيتهم تواجدوا في حماة والمناطق القريبة منها. ودخلوا في جيش المماليك كمجندين[٤].

كان يرأس التركمان والأكراد أمير يتولى شؤونهم وأحوالهم، فقد تولى الأمير سودون النوروزي (ت٨٤٨هـ/١٤٤٤م) الحجوبية وإمرة التركمان، وحينما توفي استقر بعده في الحجوبية وإمرة التركمان الأمير جاني بك الناصري[٥]. وتولى الأمير ناصر الدين بن مبارك الاينالي (ت٨٧٨هـ/١٤٧٣م) دوادار سودون النوروزي إمرة التركمان والأكراد سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م)[٦]، واستقر سالم الدكري رئيساً للأكراد سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م)، وكان تاج الدين أميراً على التركمان سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م)، في حين كان الحاج علي العبيسي سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) كبيراً للأكراد، وكان سولي بن دلغادر (ت٨٠٠ هـ/١٣٩٨م) كبيراً للتركمان، كما كان شهاب الدين أحمد بن رمضان سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) كبيراً لهم أيضاً[٧].

استعان المماليك بالتركمان في حملاتهم العسكرية وتجاريدهم على أعدائهم، فقد حدث سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) أن هاجم الفرنج الساحل الشامي فتوجه نائب صيدا والعساكر الشامية

---

(١) العيني، الروض، ص٤- ٥، الطراونة، الحياة، ص١١٠، الشلي، بلاد الشام، ص٢٣٤

Nicola A. Ziadeh, Urban Life in Syrai under the early mamloks, Beirut, Lebanon, 1372/1953, p. 45-46.

(٢) ابن صصري، الدرة، ص١٦٥

(٣) العيني، عقد، حوادث (٨٢٤هـ/١٤٢١م)، ص١٣٣، ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١٠٥

(٤) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص ١٠٥، السيد، عرب الشام، ص٦٦، الطراونة، الحياة، ص١١٤

Ziadeh, urben life, p 45-46.

(٥) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٥٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٨، ٢٩٦، ٣٠٣، القلائد، ق١، ص٣٢٢

(٦) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٧، ٢٩٨، م٢، ص٨٤٦، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٦٤

(٧) ابن المبرد، ثمار، ص١٥١- ١٥٢، ابن طولون، القلائد، ص٩٩- ١٠٠

والتركمان لقتال الفرنج وطردهم. وحدث سنة (٨٠٩ هـ/١٤٠٦م) أن توجه نائب بعلبك والعشران ونائب حمص وقوة من التركمان إلى صفد لمحاصرتها لتردي أوضاعها[١].

وعندما تنتهي الحملات بانتصار المماليك يعمد النواب إلى مكافأة التركمان بإقطاع الإقطاعات وإغداق الهدايا والنعم وتقديم الخلع والمبالغة في الحفاوة والإكرام[٢]. والحقيقة أن بعض أفراد التركمان والأكراد قد تبوّؤا مناصب ونالوا رفعة في نيابة دمشق، دونما الاشارة إلى أعمالهم التي قاموا بها نظير هذه المناصب، فقد تولى أحدهم منصب وكيل المقام الشريف وأمير التركمان، وتولى آخر نيابة بعلبك واستقر غيره في نيابة حمص بمال كما تولى تركماني نيابة دمشق بعض الفترات[٣]. فقد ذُكر في هذا الشأن أن جقمك (ت٨٢٤هـ/١٤٢١م) كان نائباً لدمشق سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م)، ومن طريف ما رُوي عنه في بداية سني حياته أنه اتفق مع أحد تجار الرقيق على أن يبيعه ويقسم ثمنه بينهما، ثم تنقل في المناصب المملوكية إلى أن أصبح دواداراً ثانياً في عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤هـ/١٤١٢ -١٤٢١م)، ثم أضحى دواداراً كبيراً ومنها ارتقى فصار نائباً لدمشق[٤].

حاز التركمان وظائف أخرى، حيث تولى آسنباي أمير ميسرة الشام سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، وكان سيف الدين ابن الصارم (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م) كاشفاً للمناطق القبلية[٥]، والأمير سيف الدين طوغان (ت٨٢٨هـ/١٤٢٥م) في حجوبية دمشق ثم نيابة صفد، وابن جلبان حاجباً ثانياً وأميراً للتركمان سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م)[٦]. وعُين قاسم التركماني (ت٨٨٧هـ/١٤٨٢م) مفتياً للسادة الحنفية. وكان للأكراد نصيب في المناصب الهامة أيضاً في الدولة، فقد قُلّد الأمير الكبير جمال الدين يوسف الهدباني الكردي (ت٨٠٢هـ/١٤٠٠م) الحجوبية ثم أُعطي تقدمة ألف فنيابة القلعة إضافة إلى مشيخة الطوائف[٧].

مارس التركمان حياتهم الاعتيادية في ظل الدولة المملوكية، وكانوا يظهرون احتفالاتهم الخاصة بمناسباتهم، فقد احتفلوا سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٥م) بإطلاق سراح أحدهم من السجن، كما كان يُحتفل بقدومهم إلى النيابة طائعين للسلطان ومعاونين له على من عاداه[٨]. وقام أحدهم

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٩٧، م٢، ص٧٨٢، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٧٣، غوانمة، دمشق، ص٢٨
(٢) ابن صصري، الدرة، ص١٥٨، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٩٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٨، ابن جيعان، القول، ص٧١- ٧٢
(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٤٣، م٢، ص٦٧٠، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٩٩
(٤) الحنبلي، شذرات، ج٧، ص١٦٣، السيد، عرب الشام، ص٦٣
(٥) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٠٦، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص٣٢٠
(٦) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص١٣٠، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٧٢
(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٤١
(٨) المصدر السابق، م٢، ص٦٥٦، ١٠١١

بتزويج قريبته سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) من احد أحفاد ناظر الجيش وصنع وليمة حضرها النائب فمن دونه، وقيل عن جهاز العروس أشياء خارقة للعادة[١].

وكان المماليك يعاملونهم مثلما يعاملون غيرهم من الرعايا فيطبّقون عليهم قوانين الدولة وينفذون الحدود على المخطئين منهم، فقد تم رجم رجل تركماني تحت القلعة قيل أنه أقرّ بارتكاب الزنا في دار السعادة أمام النائب وقاضي القضاة. ووضع نائب القلعة ونقيبها سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) في جامع القلعة مُرسَّماً عليهما بسبب هروب أحد أمراء التركمان من قلعة دمشق بالتواطؤ مع الحارس[٢].

لكن رغم محاولة المماليك دمج التركمان في مجتمعهم إلا أن عصيان وتمرد قسم منهم فاق الوصف وتغلب على كل المحاولات، حيث وقف هؤلاء بجانب أعداء المماليك كالعثمانيين والعربان تارة وبجانب الأمراء العصاة تارة أخرى، فضلاً عن فسادهم وعبثهم في المدن والقرى والآثار السيئة المترتبة على ذلك[٣].

من جانب آخر تميز التركمان بعلامة أو وشم عرف به بعضهم بعضا، وكانت العلامة توضع أيضاً على دوابهم وأوانيهم. وعُرف عنهم الفروسية، غير أنهم كانوا لا يثبتون على ولاء لفئة، بل دائمو التقلب والتغير[٤]، ولجأ بعضهم مثل الغادرية ــ نسبة إلى ذي الغادر- إلى تكحيل تكحيل عيونهم، كما كانوا لا يتقنون العربية فيصحّفون بعض الحروف، فيقولون مثلاً عن حين أو عين ــ قرية في حلب- (هين)، فيجعلون حرفي العين والحاء هاء[٥].

أما الأكراد فقد شعروا بأنهم غرباء في دولة المماليك مما جعل رئيسهم سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٧م) يقصر في مهامه تجاه نائب الشام فيؤدي تقصيره لإلقاء القبض عليه[٦]. وعانى أمير كبير من أمرائهم من مصادرة أمواله بشكل بالغ، حيث قام بتعويض ذلك بأخذ النقود من الطوائف وتحصيل الأموال الكثيرة من غيرهم. وربما كان السبب وراء كل هذا ما أشرنا إليه سابقاً من شعورهم بالغربة وعدم إخلاصهم للمماليك. غير أن ذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن يُعمّم ويندرج على جميع الأكراد، فقد وُجد فيهم من عُرف بالخير وغزارة العلم والفقه كالشيخ جمال الدين يوسف بن الحسين الكردي الشافعي (ت٨٠٤هـ/١٤٠٢م)، حيث كان يميل إلى الأثر والسنة ويُنكر على الأكراد عقائدهم وبدعهم فينال من كبارهم العطايا، وكان

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠٣

(٢) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٨٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٦٨، ٧٣

(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٢٢، ٦٨٢، ٦٩٥، ٨٨٣، ، المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٧٣٩، ابن قاضي قاضي شهبة، ج٤، ص٣٠٥، ٣٠٨.

(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٠٦، العيني، السيف، ص٢٠، السيد، عرب الشام، ص٦٥

(٥) ابن أجأ، تاريخ الأمير يشبك، ص٩٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥١١

(٦) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٥٤

مؤلفاً متميزاً له آثار ورسائل منها المسح على الجوربين مطلقاً، ومنها تزويج الصغيرة التي لا أب لها ولا جد[١].

٥- أهل الذمة

يُقصد بأهل الذمة اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ممن يكونون في ذمة المسلمين أي في عهدهم وحمايتهم، مقابل أداء الجزية وهي الخراج المضروب على رؤوسهم إذلالاً وصغاراً، وتكون على الرجال دون النساء، والصبيان والشيوخ والعميان والمرضى والمجانين. وقد حدّد الإمام الشافعي مقدارها فجعل على الفقير ديناراً وعلى المتوسط ديناران وعلى الغني أربعة دنانير[٢]، وكان ناظر الجوالي يقوم باستخلاصها بموجب سجلات رسمية دقيقة[٣].

وُجد في نيابة دمشق من أهل الذمة النصارى واليهود والسامرة، فكان النصارى يسكنون في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، بينما اليهود في الجنوب الشرقي منها[٤]، وسكن اليهود القراءون منهم بدرب الفواخير المعروف بدرب كيسان. وقد أفضت بهم التجمعات إلى تشكيل الأحياء أو الحارات كحارة اليهود وحارة النصارى وحارة السامرة. كما كان لليهود كنيس وللنصارى كنيسة لكن في خارج دمشق، إضافة إلى مقابر لكل من النصارى واليهود. وقد تواجد النصارى بكثرة في بلدة قرب صرخد وداريا وعربيل وحرستا وصحنايا والأشرفية، في حين أن اليهود وُجدوا في جوبر وعربيل شرقي دمشق، أما السامرة فكانت نابلس مدينتهم وبها الجبل الذي يحجون إليه[٥].

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٤١، ٥٤٣- ٥٤٤

(٢) ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٣هـ/٧٩٩م)، كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت- لبنان، طبعة منسوخة عن مخطوطة في الخزانة التيمورية سنة (١٣٠٢هـ/١٨٨٥م)، ص١٢٢- ١٢٣، ابن مماتي، أسعد أبو المكارم بن مهذب بن مينا بن زكريا (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)، ص٣١٨، ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، مجلد ١، ص١١٩، ١٢٢- ١٢٣، ١٦١، ١٣١، ابن حجر، إنباء، ج٧، ص٧٣

(٣) الجوالي جمع جالية أي الجماعة النازحة عن منازلها وأُريد بهم أهل الذمة الذين جلوا عن جزيرة العرب، لكن المعنى الاصطلاحي النصارى واليهود والمجوس والصابئة، البصروي، تاريخ، ص٢١٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٥، ابن كنان، حدائق، ص١٦٠ الزيات، الجوالي، أو جزية رؤوس النصارى في الاسلام، مجلة المشرق، ج٢، سنة ٤١، (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)، ص١

(٤) ابن المبرد، ثمار، ص٧٣-٧٤، الزيات، اليهود في الخلافة العباسية، مجلة المشرق، ج١، سنة ٣٦، (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، ص١٦٧، سوفاجيه، دمشق، ص١٩٢

(٥) ابن صصري، الدرة، ص٣٧، ١٠٩، ٧٩- ٨٢، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٠٣، ابن المبرد، ثمار، ص١٠٦، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢١٠، ٣٥٨، ٣٩١، ، ابن طولون، مفاكهة، ص١٤٢، ٢١٣، ٢٩٤، ٣٢٨، ٣٦٨، كرد علي، غوطة، ص٢٩

كان لليهود والمسيحيين والسامرة لباس خاص اختلف عن لباس المسلمين، فقد ارتدى المسيحيون العمائم الزرقاء واليهود الصفراء والسامرة الحمراء، وفُرض على المسيحيين بصفة خاصة شد أحزمة حول أوساطهم سميت بالزناد، ومُنع الجميع من حمل السلاح[1]. ويعود أصل ذلك إلى سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) عندما قدم وزير مغربي إلى القاهرة فوجد أهل الذمة يلبسون أفخر الملابس ويعملون في أجل المناصب فانتقد ذلك[2].

لقد شعر أهل الذمة بالاذلال والصغار بسبب لباسهم وتمييزهم عن المسلمين فقاموا بتغيير ملابسهم كلما سنحت لهم الفرصة، فقد حاولوا سنة (٧٠٠هـ/١٣٠١م) مخالفة هذه الشروط وقدموا أموالاً كثيرة لأجل ذلك، غير أنهم فشلوا، فتم التشديد عليهم ومنعهم من ركوب الخيول المسرجة[3]. وأُلزموا سنة (٧٥٥هـ/١٣٥٤م) بعدة أمور هي: أن لا يعملوا في الدواوين، أن لا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع، أن لا يركبوا الخيول ولا البغال باستثناء الحمير ولكن بشكل عرضي، أن يدخلوا الحمامات بالعلامات أو وهم يضعون أجراساً أو أختام نحاس أو رصاص، أن لا تدخل نساء أهل الذمة حمامات المسلمين، أن يكون إزار النصرانية أزرقاً واليهودية أصفراً والسامرية أحمراً، أن يكون إحدى خفي النصرانية أسوداً والآخر أبيضاً وأخيراً أن يتم تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية عليهم في المواريث[4].

ومُنعوا سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) من تكبير عمائمهم ولبس الفرجيات والجبب بالاكمام الواسعة الكبيرة وركوب الحمير وأن لا يستخدموا مسلماً، وتكرر منعهم من لبس العمائم الكبيرة سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م)[5]. لكن رغم كل هذه الفروض والإلزامات لاقى اليهود والنصارى قبولاً قبولاً ومنزلة لدى السلطة الحاكمة، فقد تقلد السمرة من اليهود مناصب هامة في نيابة دمشق، حيث كان صدقة السامري معلم دار الضرب، ونجم الدين حسين السامري (ت٨٣١هـ/١٤٢٨م) كاتب السر وناظر الجيش، وأبو الفتح السامري (ت ٨٨٩هـ/١٤٨٤م) من كبار موظفي ديوان

---

(١) ماير، الملابس، ص١١٨

(٢) العلبي، دمشق، ص ٨٣

(٣) النويري، نهاية، ج٣٣، ص١٤- ١٥، اليافعي، مرآة، ج٤، ص١٩٠، ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٦، ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج١، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب، (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ص٢٣٣، للمزيد المحبي، خلاصة، ج١، ص٣٧٠.

(٤) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٠٤- ٢٠٥، ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (ت بعيد ٩٢٦هـ/١٥٢٠م)، صدق الأخبار (تاريخ بن سباط)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس – لبنان، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ج١، ص٧١١، للمزيد انظر الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٩٥.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص٤١٦، الغرسي، نيل، ج١ق٤، ص٣٢٩، ج٢ق٥، ص٣٠٣، للمزيد حول المراسيم وتجاوزات أهل الذمة انظر ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٨٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٧٤

النائب، ويوسف السامري طبيباً ويوسف ابن بيدرا طبيباً (ت٨٨٨هـ/١٤٨٣م) وغيرهم[١]. أما النصارى فقد كان يُراعى جانبهم كذلك من قبل السلطان فلا يُسمح بضيمهم أو الإساءة إليهم، وقد حدث سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) أن أرسل المقر الشريف إلى محب الدين الأسلمي[٢] كاتب السر بدمشق بالحضور إلى القاهرة بسبب شكوى نصراني عليه[٣].

وكان السلطان أحياناً يُرسل رسولاً كبيراً إلى نيابة دمشق فُيعلن بمراسيم شريفة ضرورة إنصاف اليهود وعدم أجحافهم في أخذ الجزية والتلطف والتودد معهم، والدليل على هذا ما تم سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م) حينما استدُعي قاضي القدس ومعه جماعة من أعيانها مكبلين بالحديد إلى القاهرة بسبب فتواهم بهدم كنيس لليهود مخالفين ميول السلطان وأغراضه التي ترى إعادتها[٤]. وعانى الشيخ العلامة أبى العزم المقدسي (ت٨٨٣هـ/١٤٧٨م) محناً أدت إلى هجرته من بيت المقدس إلى مكة، حيث أفتى وغيره من العلماء بهدم الكنيس في بيت المقدس فهُدمت ولم يُعلموا السلطان بهدمها، فلما بلغه أمرها أرسل وراء علماء وقضاة بيت المقدس فضرب منهم أناساً ونفى آخرون وأمر بإعادتها، فكتب له أهل بيت المقدس على بابها "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى"[٥].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى قاضي القضاة الذي قام بتعزير محتسب سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦م) بسبب ضربه يهودياً. كما نال هؤلاء تعظيماً وإكراماً لدى بعض الأمراء أيضاً كالأمير الكبير إياز الجركسي (ت٧٩٩هـ/١٣٩٧م)[٦].

وكان موقف العامة متأرجحاً في اليهود والنصارى ما بين القبول والرفض. حيث ذُكر أن بعض القسيسين والنصارى في بخعا كانوا محبذين لدى الناس فكانوا يستضيفونهم في بيوتهم ويقدمون لهم الطعام. كما نال اليهود من بعض الناس قبولاً فقد حدث سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) أن دخل صدقة السامري معلم دار الضرب دمشق بخلعة راكباً وحوله جماعات من المسلمين والمنافقين[٧]. ورأى قسم من الناس أن وجودهم في المواكب الاحتفالية لا ضير منه فتم تقديمهم

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٧٨٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٠٥، ٢٤٤، ٤١٣، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٥٥، ابن طولون، ص٢١٨

(٢) محب الدين الأسلمي، ورد ذكره عند ابن طولون سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) وكان كاتباً للسر وناظراً للجيش والقلعة حتى تم اعتقاله من قبل العثمانيين سنة (٩٢٤هـ/١٥١٨م) وفرض عليه مبلغ عشرة آلاف دينار، انظر: ابن طولون، مفاكهة، ص٣١٧، ٣٨١-٣٨٢.

(٣) البصروي، تاريخ، ص١٥٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١٦١

(٤) ابن اياس، بدائع، ج٣، ص١٠٢- ١٠٣، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨

(٥) العليمي، الأنس، ج٢، ص٣٠٩-٣١٠، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٢٤

(٦) ابن صصري، الدرة، ص١٩٢، ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٥٩، ٢٠٤، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٦٨، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٢

(٧) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٣، ١٤٢، ٤٢٩، ج٣، ص١٤٥٨، ابن طولون، المفاكهة، ص٢٨٣

كما حدث سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) وسنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) عندما قام صدقة السامري كذلك عند باب النصر بنثر الدراهم الخفيفة التي قام بصناعتها احتفاءً بقدوم السلطان قانصوه الغوري، وقد قيل أنها ألفا درهم، فاقتتل الناس على نهبها إلى أن أمره السلطان بالكف عن نثرها[١].

وقد أشار ابن طوق عن رفضه المطلق لسلوك اليهود خاصة في مؤلفه فقال عن أحد اليهود "... وهذا الخنزير كان لا يعتبر المسلمين ولا يلتفت إليهم حتى الأشراف يقفوا في خدمته وكانت أركان الدولة تعظمه". وقال آخر في شأن يهودي خلع عليه " خلع على عدو الله وعدو رسوله وعدو المسلمين"، وعلق ثالث على موت طبيب يهودي "أراح الله تعالى المسلمين منه"[٢].

ورغم كل هذه الشواهد إلا أن أهل الذمة كما يبدو شعروا بأنهم الأقل شأناً من المسلمين، وربما تمنوا الحصول على مكاسب أكثر مادياً ومعنوياً في مجتمع غلب عليه الطابع الاسلامي، من هنا سلكوا عدة طرق لفرض أنفسهم وزيادة قبولهم والارتقاء بوضعهم وإظهار دينهم، فمثلاً قام أكابر اليهود سنة (٧٩٤هـ/١٣٩٢م) بتحريض جماعة من ملتهم على إحراق الجامع الأموي فتم الحريق واعترف عطّار يهودي اسمه (سديد) بالمحرّض على الحريق فأُلقي القبض على كبار اليهود واختفى آخرون، وتم مكاتبة السلطان في شأنهم فكان جوابه أن يُؤخذ منهم مائة ألف درهم ويقوموا بتعمير الجامع ويخرجوا إلى بر المدينة، ويبنوا مسجداً بدلاً من كنيسهم[٣]. وبعد ذلك بسنة أي في عام (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) اجتمع بالقدس أربعة من الرهبان ودعوا الفقهاء لمناظرتهم فأظهروا نيتهم السيئة وصرّحوا بذم الاسلام فثار الناس عليهم وأحرقوهم[٤]. وكذلك جعل النصارى عيدهم سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦م) بدلاً من أربع وعشرين من كانون ليلة الجمعة، ثاني عشر ليلة الأحد ليتفق مع ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم[٥].

ونتيجة لاختلاطهم بالمسلمين وتشبههم بهم أصبح من الصعوبة بمكان تمييزهم، ولهذا نادى قاضي القضاة والمحتسب سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٨م) بأن أهل الذمة لا يدخلون الحمام إلا وفي أعناقهم أجراساً ويركبون عرضاً. ونودي كذلك سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) بأن يلتزموا إذا دخلوا الحمامات بوضع حبالاً على أوساطهم، وأجراساً على أوساط نساءهم. وتم في سنة

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٩٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٧
(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٤٤، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٥٥، ٣٨١، ابن طولون، مفاكهة، ص٣١٨
(٣) ابن صصري، الدرة، ص١٢٥– ١٢٦، البصروي، تاريخ، ص٩١، للمزيد المحبي، خلاصة، ج٣، ص٣٢٥.
(٤) ابن حجر، إنباء، ج٢، ص١٦٧، الحنبلي، شذرات، م٨، ص٥٧٦
(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٥٢، الغرسي، نيل، ج٢ق٨، ص١٦٠

(٨٩٦هـ/١٤٩١م) بأمر النائب منع الشهود من الجلوس بالجامع الأموي لِما يترتب على جلوسهم من دخول النساء وأهل الذمة إلى هذا المكان[١].

ويتوقع أن النصارى حاولوا في إظهار دينهم الاستعانة بنصارى الحبش، فقد أمر السلطان سنة (٨٢٥هـ/١٤٢٢م) بإغلاق كنيسة القيامة بالقدس، فغضب ملك الحبشة وقام بقتل عامة الرجال المسلمين واسترق نسائهم وأولادهم وعمد إلى تعذيبهم، ثم توجه إلى هدم المساجد في مملكته، وصار إلى بلاد جبرت، احدى المدن الكبرى في الحبشة، فقاتل أهلها وفعل فيها المنكرات فقاسى المسلمون بسببه محناً عظيمة، مما جعل السلطان في مصر يأمر بإعادة فتح كنيسة القيامة سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م)[٢]، وسار نصارى الحبش سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) الذين قُدّر عددهم بحوالي ثلاثة آلاف نحو القدس لزيارة كنيسة القيامة، وحينما وصلوا إليها جلس كبيرهم على كرسي من ذهب وأمر بضرب الناقوس فجاء الضرب مع وقت الأذان فلم يُسمع الأذان، وكان هدفه إظهار دين النصرانية، فتأثر شخص من المسلمين بما قام به كبير النصارى فاستغاث وانكر تصرفه، فتوجه النصارى وانهالوا عليه ضرباً بالأسلحة، وقيل أنه مات[٣].

إضافة إلى أن النصارى استعانوا ببعض المسلمين في إظهار دينهم، فقد حدث سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) أن انهدم جانب كبير من كنيسة القيامة وخاف البعض أن ينال الهدم الخانقاه الصلاحية الواقعة بجوارها، وتم إعلام السلطان محمد بن قايتباي بذلك فجاء جوابه بإعادة إعمار الكنيسة، فلما قُرئ الأمر على أهل القدس أنكروه، ونالوا من الذين تحدثوا عن الخانقاه الصلاحية والكنيسة، فتدخل القضاة وكتبوا محضراً بضرورة العمارة إنقاذاً للخانقاه وذلك بعدما أخذوا رشوة من النصارى، ويُقال أن النصارى دفعوا في المحضر المذكور ستمائة دينار فُرّقت على الناس[٤]، وقد علق البصروي على هذه الحادثة قائلاً "وبيت المقدس لما فتحها عمر بن الخطاب رضي الله عنه شرّط على أهل الذمة ألاّ يجدّدوا كنيسة ولا يعمروا غيرها للعبادة، كما تعجب قاضي القضاة بالقاهرة من كثرة الكنائس بالقدس آنذاك[٥]!

وشاع في نيابة دمشق سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) أن ابن سلطان الحبشة قدم مصر وأهدى للسلطان جملة من الهدايا وطلب منه زيارة كنيسة القيامة بالقدس فأذن له وأرسل معه خاصكياً، ولما وصلا إلى القدس أظهر ابن سلطان الحبشة الصلبان وغيرها فأنكر أهل القدس سلوكه

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٨٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٧٤، ١١٤
(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٦١٩، ٦٤٩، ٦٥٩، ٦٧٢
(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٦
(٤) العليمي، الأنس، ج٢، ص٢٦٤- ٢٦٥، للمزيد، انظر ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٨٥٠.
(٥) ابن قيم الجوزية، أحكام، م٣، ص١١٦٢، البصروي، تاريخ، ص٢٤٤- ٢٤٥

وشكوه إلى الخاصكي، فعزم الأخير على ايصال شكواهم للسلطان بعدما قُتل من أهل القدس ومن نصارى الحبشة ما قُدّر بثمانمائة شخص(١).

ورأى بعض أهل الذمة في إشهار اسلامهم وسيلة أخرى من وسائل الارتقاء بمنزلتهم وإظهار أمرهم، فكان إعلانهم الاسلام إما لرفع عقوبات عانوا منها أو لتخلصهم من مال الجوالي(٢)، حيث ذُكر سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) أن نصرانياً من اللصوص أسلم لما رأى العذاب فقال النائب "اقطعوه ولو أسلم"(٣)، ومثله صدقة الأسلمي الشامي الذي ضُرب بسبب تزويره النقود من قبل السلطان الملك الأشرف قايتباي سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) حيث كان مرسّماً عليه لأنه أسلم تُقية وخوفاً على نفسه، وتم رفعه إلى القلعة وطُلب منه أربعة وعشرون ألف دينار كان قد اختلسها من صندوق السلطان(٤).

إلا أن هذا لا ينفي وجود ذميين أشهروا اسلامهم حباً في الاسلام لا غير، دون أهداف ومآرب تسيء إليهم وإلى إسلامهم، وصار يلي أسماءهم لقب مثل "الأسلمي، والمتشرف بالاسلام" بعد اعتناقهم الاسلام(٥).

من جانب آخر لا بد لنا من الإشارة إلى الأثر السلبي والأعمال السيئة الفردية التي قام بها أهل الذمة في نيابة دمشق خلال فترة الدراسة، فمن هذه الأعمال تزوير المراسيم السلطانية والاستيلاء على قسم من نهر ثورا والغش في بيع الجوخ وتزوير النقود أو ما يدعى بـ (الزغل) والسرقة والمجاهرة في شرب الخمر(٦). ولم يسلموا بالمقابل من أذية المماليك، فقد عانوا من الرميات التي تُرمى على الحارات بسبب القتلى، حيث قام أحد اليهود سنة (٩٠١هـ/١٤٩٦م) بسحب ميت قُتل في بيته في حارة اليهود ونقله إلى مكان آخر خوفاً من الرميات، كما عانوا من المصادرات التي اتخذها المماليك، إضافة إلى ظلم وسوء معاملة ناظر الجوالي لهم، فقد شكى أهل الذمة على القاضي زين الدين بن الصابوني (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م) ناظر الجوالي. وكما أشرنا سابقاً أن بعضهم أسلم ليتخلص من مال الجوالي(٧). ويبدو أنّ تعديات

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص٣١٨

(٢) ابن طوق، التعليق،ج١، ص،١١٧، ج٢، ص٩٣٣.

(٣) ابن حجر، إنباء، ج٢، ص١٣٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٥٤

(٤) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٨٠- ٣٨١

(٥) البصروي، تاريخ، ص١٨٣، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٦٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٤، ٨٤، ٩٦، ١٠٤

(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٥٦٠، ابن طوق، التعليق، ص٢٣٦، ٢٤٠، ٣٥٨، ٣٩١، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٤٠، ٣٥٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٦، ٨٥، ٢٣٢، للمزيد انظر، بيات، بلاد الشام، ص٩٧.

(٧) البصروي، تاريخ، ص١٨٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٨

تعديات نظّار الجوالي كانت من الكثرة بحيث تكررت ظاهرة التعيين والتنقل والعزل الوظيفي بينهم[١].

٦- الفئات الدنيا

أ- الأرقاء والجواري:

كانت منطقة القفقاس الموطن الأصلي للمماليك الجراكسة (البرجية) في حين كانت منطقة القبجاق جنوبي روسيا الموطن الأصلي للمماليك القبجاقية (البحرية)[٢]. وقد جرى العرف أن يُباع المماليك في أسواق خاصة سميت بأسواق العبيد. ويقوم السلطان بشراء مماليكه من أموال بيت المال ثم يُدخلهم مدارس خاصة يتم فيها تلقيهم فنون القتال وتعاليم الدين ويسمون حينها بالكتّابية (من كتّاب) ثم يعتقهم بموجب وثيقة فيسمى هو بالمُعتق أو الاستاذ في حين يسمى المملوك بالعتيق أو المعتوق، ويتم بعد ذلك تعيينه في الوظائف المناسبة، إلا أن معظمهم كان يلتحق بالجيش فيشرف عليهم حينها أمير يُعرف بباش العساكر[٣].

وكان مماليك الأمراء أقل منزلة من مماليك السلطان، فقد كانوا يتلقون التعليم في مدارس وُصفت بأنها أقل تنظيماً من مدارس السلطان، فيخدمون أمراءهم أو أساتذتهم أو يخدمون غيره، وفي هذه الحالة يسمى من يقومون بخدمته بالمخدوم بينما يسمى المملوك بالمستخدم[٤]. ويتولى الاشراف عليهم أمير يدعى باش المماليك. ويُمنح المملوك إقطاعاً يعتاش منه وحصاناً وملابس عسكرية ليصبح جندياً، كما يُعطى راتباً شهرياً ونفقة تُدفع في مناسبات مختلفة، وكسوة واحدة سنوياً، إضافة إلى اللحم والعليق وغيرهما[٥].

وقد كانت النفقة "الجامكية" أحد الأسباب المهمة التي أشعلت ثورة المماليك فقد حدث سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) أن نشب قتال بين مملوك نائب ومماليك السلطان بسبب زيادة فرس في نفقة مماليك السلطان، فضرب مملوك النائب وسال دمه، واستمر القتال حتى تم إصلاح الجميع[٦]. وحدث في سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) أن جاء للسلطان ولد ذكر، وجرت العادة أن يهب السلطان شيئاً معيناً للمماليك في هذه المناسبة غير أنه تراجع عن عادته تلك فثار المماليك ونهبوا

---

(١) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٠٩، ٣٣٤

(٢) رافق، عبد الكريم ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، (١٥١٦- ١٧٩٨م)، ط٢، دمشق، (هـ/١٩٦٨م)، ص١٤- ١٥

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤١٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١٦٩، رافق، بلاد الشام، ص١٤

(٤) ابن حجي، تايخ، م١، ص٤٨، ١٢٩، ١٩٨،٢٤٧، ٢٩٨، ٣٥٩، رافق، بلاد الشام، ص١٥

(٥) ابن طوق، التعلق، ج١، ص١٣٨، ١٥٠، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٥٥، ٧٢، ابن طواون، مفاكهة، ص١٦٩، رافق، بلاد الشام، ص١٥

(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٨٣

الأسواق، فنازلهم السلطان وغلبهم فنودي بزينة دمشق لأجل نصرته ومقدم ولده[١]. وحصل عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م) أن ثار مماليك نائب دمشق عليه واتجهوا إلى الجامع الأموي وتحصنوا فيه وأغلقوا أبوابه، ثم منعوا الناس من الصلاة، وأُغلقت أسواق دمشق خشية من نهبها كما خُطفت بعض العمائم من رؤوس أصحابها، بسبب اختلاف المماليك مع استاذهم (النائب) على مقدار صرف الجامكية، حيث أراد صرف خمسين أشرفياً لكل واحد بأنقص من مماليك السلطان بثمانين أشرفياً وفرساً فرفضوا ذلك وأرادوا نهب بيت أحد الأمراء الكبار فدافعهم فجرحوه، ووصل الخبر للنائب فتوجه إليهم فهربوا منه إلى أن تم الصلح بينهم على مقدار معين من النفقة[٢].

لقد كثرت الفتن والاضطرابات التي قادها المماليك سواء كانوا مماليك السلطان أم مماليك الأمراء، منها ما حدث سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) وسنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م) فقد سبب مماليك السلطان الفساد في دمشق فشربوا الخمور وأخذوا قسماً من الناس مع حريمهم وأموالهم ومن رفض الانصياع قُتل. وكان النائب قد رتب لهم جميع ما يحتاجونه من لحم وخبز وشعير، غير أن هذا كما يظهر لم يكن كافياً لردعهم أو إغرائهم بالابتعاد عن التعديات والتخريب[٣]. ومنها أيضاً ما تم سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) فقد هرب مماليك السلطان الذين كانوا بدمشق رغم أن النائب كما قيل أعطى لكل واحد منهم ألف درهم، غير أنهم كما يبدو انضموا إلى أحد الأمراء الخارجين عن طاعة السلطان. وحصل سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) أن قام عدد من مماليك النائب في الصالحية بخطف سبع شاشات من الناس فقام صاحب أحد الشاشات بتتبع المماليك فكان جزاؤه القتل. وقام غيره بملاحقة المماليك حتى استرد شاشة ثم توجه بشكواه للنائب[٤]. وتم في سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) الوقيعة ما بين مماليك دوادار السلطان ودوادار النائب وضرب كل منهم الآخر. كما تم في سنة (٨٩٩هـ/١٤٩٤م) اشتباك مملوك جاء من مصر مع حاجب ثاني معزول في دمشق، حيث أراد المملوك أخذ ثأره من الحاجب الذي قتل أخيه فأصاب الحاجب المملوك في طرف زنده إصابة بالغة أدت إلى وفاته[٥].

وبلغ أذى المماليك مبلغه سنة (٩٠٦هـ/١٥٠١م) وذلك عندما قام مملوك افرنجي من بلاد طرابلس بقتل جماعة وإخفائهم وأخذ أموالهم وتعرية بعض النساء وسلب الأساور من

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٥
(٢) المصدر السابق، ص٣٣١
(٣) ابن صصري، الدرة، ص٨، ١٥٩، وللمزيد ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٧٠، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ١٣٣، ابن طولون، مفاكهة، ص١٦٩، ١٧٨
(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٥٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٩
(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص٧١، ١٣٠

أيديهن جهاراً عند باب المارستان النوري، فأمر النائب بقطع يده ورجله، وحينما تم قصاصه هجم عليه عوام دمشق وضربوه بالخناجر ثم سحبوه إلى المشنقة عند الخراب وقاموا بحرقه بالنار، ولما علم النائب بما فعله العوام كلف مماليكه بالبطش بكل انسان يرونه بطريقهم، فقاموا بتعرية جماعات ونهبوا أموال الناس فغلقت أسواق دمشق ووُصف الحال في هذا اليوم بأنه "كان يوماً مهولاً"[١].

واتسعت الفتن وزادت القلاقل بانضمام فئات أخرى من الجيش إلى ركب مماليك السلاطين ومماليك الأمراء ألا وهم "الجلبان" أو "الأجلاب" الذين كانوا السبب في فقدان الأمن وزعزعة الاستقرار في بعض الفترات في نيابة دمشق، فقد دخل قسم منهم دمشق قادمين من حلب سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) حيث كانوا في قتال ابن عثمان فتعرضوا إلى دواب الناس ونسائهم وأولادهم، وقاموا سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م) بنهب كل شيء وصلوا إليه خلال مرورهم بدمشق قادمين من مصر كالعمائم وغيرها وروّعوا الناس في الطرقات. وتكررت تعدياتهم سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) بحيث أُغلقت أسواق دمشق نتيجة شرورهم وفسادهم وكثرة خطفهم دراهم الناس[٢]. لكن رغم ما ذُكر سابقاً فقد كان جل المماليك ينفذون أوامر أسيادهم ويؤدون المهام التي كُلفوا بها خير قيام، كإحضار خلع لأمرائهم وتوليهم الحسبة مثلاً ومشاركتهم القتال[٣].

شكّل المماليك بفئاتهم المختلفة طبقة اجتماعية مرموقة من حيث الرتب وامتلاك المال، رغم أن أصولهم تعود إلى الرق في أسواق النخاسة. لكنهم كانوا يأنفون الحديث عن رقهم وحالهم السابق. فقد توفي الأمير الكبير أتابك[٤] العساكر المصرية الأمير سيف الدين ايتمش البجاسي سنة (٨٠٢هـ/١٤٠٠م)، وكان أصله من مماليك الأمير جرجي وتنقل في المناصب حتى غدا أكبر الأمراء بمصر، وفي سنة (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) أرسل السلطان الظاهر برقوق إلى ورثة الأمير جرجي في دمشق ليشتري منهم الأمير ايتمش، بعدما علم أنه باقٍ على الرق ويخشى من فساد تصرفه ويريد الحج، فأرسل السلطان وكيلاً ليقوم بشرائه بغية عتقه كما أرسل

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص١٩١، وللمزيد حول تعديات مماليك النائب انظر ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٥٨- ٣٥٩

(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٨٥- ٨٦، ٢٥٦، ٣٠٩، وللمزيد انظر أيضاً الصفحات، ١٠٨، ٢١١، ٢٧٢

(٣) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣١٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٦، ١٤٩، ٢٢٤، ٣٠٣

(٤) أتابك: أصله أطابك ومعناه الولد الأمير، وقيل معناه أمير أب والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفع المحل وعلو المقام، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٨.

ذهباً، فتم عقد البيع بحضور أحد الأمراء قرابة جرجي، ثم أرسل العقد إلى مصر[1]. ولعل هذا الحديث يقودنا إلى تناول الأرقاء الذين يشكلون الطبقة الدنيا منزلة ومالاً خلافاً للمماليك.

لقد وُجد أنواع من الرقيق وأجناس مختلفة فكان منهم الهنود والسودانيون وكان لهم دلاّل دُعي بـــ "دلال الرقيق"، ويبدو أن هذه المهنة كانت وراثية فقد تولاّها السيد الجعفري كما تولاها ابن عمه سنة (٨٨٦هــ/١٤٨١م)[2]، وتنحصر مهمة الدلال في الإشادة بصفات الرقيق المراد بيعهم في سوق الجواري والرقيق لقاء مبلغ من المال[3]. وقد تراوحت أسعار الجواري والعبيد ما بين خمسمائة درهم وخمسمائة وخمسين[4].

أما أخبار الرقيق وتفاعلهم مع المجتمع الدمشقي فتظهر بشكل مقتضب ومتناثر، ويغلب عليها طابع الإجرام وإثارة الشغب والاضطرابات. ففي سنة (٧٩٩هــ/١٣٩٧م) كلف تاجر أحد العبيد واسمه مبارك بقتل ابن النشو – محمد بن عبد الله بن ابراهيم – سمسار الغلال في نيابة دمشق مقابل ثلاثة آلاف دينار، وفي سنة (٨٩٩هــ/١٤٩٤م) أقام أهل الصالحية ضيافة بسبب عزل دوادار السلطان وعزل واليهم الذي كان عبداً هندياً، وعرف عنه أنه جدد مظالم عظيمة[5]. وحدث سنة (٩٠٨هــ/١٥٠٢م) أن اشترك جماعة من عبيد السودان مع المماليك في قتال زعر الشاغور والغوغاء الثائرين بسبب إلقاء نائب دمشق القبض على أحد أفرادهم، وتم في سنة (٩١٦هــ/١٥١٠م) اتفاق امرأة مع عبيدها على قتل زوجها[6]. وكان بجانب فئات العبيد الآنفة الذكر عبيد نالوا منزلة في نيابة دمشق كإياس، مولى ابن الغاوي (ت ٨٠٠هــ/١٣٩٨م)، وكالشيخ مبارك القابوني، وكان قد تولى ولاية البلد[7] الذي تم امساكه سنة (٨٩٩هــ/١٤٩٤م) من قبل دوادار السلطان وإرساله إلى نائب دمشق، فلما حضر الشيخ مبارك عند النائب أمر بضربه ومعه رجل من فقرائه ثم أُرسلا إلى الحبس فهاجت الناس والعلماء والمشايخ، وتوسطوا لإخراجه من الحبس، فأُخرج بدون الفقير الذي معه.

عندها تدخل الناس ومنهم الفقراء فكسروا الحبس وهرب المساجين وتفرقوا فتدخل نائب الشام والمماليك لرد المساجين ورافق ذلك عبثهم وتعديهم على الناس، ثم توجهوا نحو القابون التحتاني فنهبوه وهدوا زاوية الشيخ مبارك. وعلق ابن الحمصي على هذا الحدث قائلاً "فانظر يا

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤١٤، ابن قاضي شهبة، ج٣، ص١١٤، ج٤، ص١٢٠، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٦٢.

(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣١، ٢١١، للمزيد انظر، ابن طوق، التعليق، ج٢، ص١٠٦٢.

(٣) ابن المبرد، نزهة، ص٢٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٢٠، ٢٨٨

(٤) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية، ط١، م٢، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ص١٤٧، ١٥٢

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٢١- ٢٢٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٠

(٦) ابن طولون، مفاكهة، ص٢١١، ٢٨١

(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣١١

أخي هذه المصيبة العظيمة التي لم يقع لها نظير، فلا حول ولا قوة إلا بالله"[١]. ثم أرسل الأمراء إلى السلطان بتفاصيل الأمر وبما فعله مماليك النائب، فأرسل السلطان مرسوماً بإعادة ما تم نهبه من الشيخ مبارك وإعادة اعتباره وتعظيمه ودعوته إلى القاهرة ليتردد إليه مماليك السلطان فيتبركون به ويحضرون مجلسه. ثم عاود ابن الحمصي التعليق فقال "فانظر يا أخي هذا عبد أسود لما أخلص النية لله خلصه الله منهم وأطاعهم له"[٢].

ويظهر أن العبيد كجماعات وليس كأفراد أصبح لهم شأن أيضاً لدى المماليك بدءاً من سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) فقد حدث وقتها أن جمع نائب دمشق عبيداً كثر وعلمهم الرمي بالبارود وجعلهم طبقات لكل طبقة رئيس ثم ألبسهم الأقباع والأجواخ الحمر "وصاروا يُشار إليهم بدمشق"[٣]، كما استخدمهم سنة (٩٠٥هـ/١٥٠٠م) عندما عزل من النيابة وخرج من دمشق. وحدث سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) أن تسلطوا على الناس بالنهب والظلم وكانوا يتقدمون مواكب النائب ومن أدنى منه[٤].

أما فيما يتعلق بالجواري فقد أسهب المؤرخون في الحديث عنهن بسبب كثرتهن البالغة في ذلك الحين. لقد كانت الجواري تُجلب عن طريق التجار إلى نيابة دمشق، فمنهن من كانت تُجلب من الحبشة أو من مصر أو من السودان أو من بلاد الروم[٥]. وقد تمت الإشارة إلى لون بشرتهن أكثر من موطنهن، فغالباً ما أُلحق اسم الجارية بكلمة السوداء أو البيضاء[٦]. وكان تاجر تاجر الجواري يعرض جواريه الجميلات للبيع بواسطة الدلال في سوق برا تحت القلعة، ويعرض الأقل جمالاً في التكة قرب سوق جقمق يومي الاثنين والخميس، أما المشهورات بالجمال الأخاذ فيتم بيعهن في سوق شيخي[٧]. ويُراعى عند بيع الجارية أن تكون خالية من العيوب كالجنون والبرص وعدم العفة، وإذا كانت تعاني عيباً ما ينبغي الإشارة إلى ذلك عند البيع[٨]. وقد اختلفت أغراض شراء الجارية، فمنها ما كانت تُشترى لأجل القيام بأعمال المنزل المختلفة ومنها ما كانت تُشترى لأجل التسرّي وغيرها لم تكن محددة الغرض، فقد اشترى أحدهم جارية مرضعة سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م)[٩]. ويبدو أن أسعار الجواري كانت تزداد كلما امتلكت

---

(١) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٥٧- ٣٥٩، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٠
(٢) ابن الحمصي، حوادث، ص٣٦٠- ٣٦١
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١٦٤
(٤) المصدر السابق، ص١٨٠، ٢٢٦
(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤١١، ٤٩٤، ٥٢١، ج٢، ص٦٢٧، ص١٠٣٦، النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٠٦
(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٣٨، ٢٩٠، ٤١٧، ٥٢٨
(٧) ابن المبرد، نزهة، ص٢٣، ٢٦
(٨) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٩٦، ٢٨٨، ٤١١
(٩) المصدر السابق، ج١، ص١٧٥، ٣٠٨، ٤١٩، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٢

احداهن موهبة أو أتقنت أكثر من فن، وليس أدل على ذلك من قيام البعض بتعليم الجواري الغناء فقد كان شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق (ت٨١٥هـ/١٤١٢م) في أول أمره مغنياً يعلم الجواري الغناء ثم تاب عن ذلك(١).

كان شراء الجارية وإدخالها إلى البيوت مبعث سرور وتفاؤل لدى أهل دمشق، ومما يؤكد هذا الاعتقاد قيامهم بتسمية جواريهم أسماء محببة إلى النفس من مثل: مباركة وسرور وجوهرة وفايدة وثريا وشهديا وغزال وجلاب وبلبل(٢).

وقد ذكر القلقشندي أن العرب كانت تسمي أبناءها بمكروه الأسماء وتسمي عبيدها بما يُحب من الأسماء "لأنهم يسمون الأبناء لأعدائهم بينما يسمون عبيدهم لأنفسهم، أي أن الأبناء مُعدّون للأعداء في المحاربة فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد مُعدّون لأنفسهم فاختاروا لهم خير الأسماء"(٣).

وقد اختلف تعامل المماليك مع جواريهم فمنهم من أحسن إليهن كالأمير حاجب كزل التركي (ت٨٠٠هـ/١٣٩٨م) الذي يُحكى عنه أنه كان لا يشتم أحداً من مماليكه ولا جواريه(٤)، ومنهم من أساء إليهن إساءة بالغة أفضت بهن إلى الهروب من المنازل، فقد قامت الجارية سرور سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) بنقب حائط البيت الذي تخدم فيه وخرجت منه ولم يعلم بها أهل البيت بسبب جور سيدتها رغم ما عُرف من كفائتها في أعمال البيت. وقامت أخرى بتسليم ورقة عتاقها لرجل أمين خوفاً من ابن سيدها القديم الذي قام بعتقها(٥). وتعرضت بعض الجواري للسرقة، فقد سُرقت أسورة ذهباً لجارية بيضاء جركسية من قبل امرأة فلاحة كانت تغربل القمح(٦). وتعرضت أخريات للقتل كما أصاب غيرهن الطاعون فقضى عليهن(٧).

شغف المماليك بجواريهم فأقدموا على إعتاقهن ومن ثم الزواج بهن، وأوصى بعضهم قبل وفاته بأن تكون جواريهم حرائر. وانعكس حب وشغف المماليك بجواريهم على تعاملهن مع أسيادهن، فقد أخلصن في العمل وتعلقن بالأسرة التي كن يخدمن عندها، فقد قيل عن الجارية شهديا البيضاء –جارية شهاب الدين أحمد بن طوق مؤلف التعليق– سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) عندما أراد بيعها لفقيه الأولاد أنها أبت الذهاب معه وأجهشت بالبكاء والصراخ حتى حُملت

---

(١) النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٣٣

(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٣٣، ١٩٨، ٢٨٨، ٢٩٠، ٣٣٤، ٤١١، ٤١٩، ج٢، ص٦٠٤، ٨٣٨، ٨٦٦، ٨٦٦، ٨٩٦، ١٠٣٦.

(٣) القلقشندي، قلائد، ص٢١-٢٢

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٦٠ــ ٢٦١

(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٦٣، ٤١٩

(٦) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٠٣

(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٩٥، م٢، ص٩٣١

وسُحبت من بيت سيدها القديم غصباً "وما هان عليها مفارقتهم"، ثم عندما ذهبت إلى بيت سيدها الجديد امتنعت عن الأكل والشرب وهددت من حولها بقتل نفسها حتى أُذعن مالكها إلى إعادتها إلى منزل سيدها القديم[١]. غير أن بعض الجواري أظهرن الكسل والخروج عن الأدب أثناء عملهن في بيوت أسيادهن كالجارية جوهرة التي تعاملت مع سيدها سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) بقلة أدب مما دفعه إلى ضربها ومن ثم التخلص منها بعرضها للبيع في سوق الرقيق[٢].

سلكت بعض الجواري مسلكاً سيئاً آخر حيث قمن بارتكاب الجرائم كالسرقة والقتل وممارسة الفاحشة[٣]، إلا أن هذا لا ينفي وجود أخريات عُرفن بالخلق الحسن مما شجع بعض المماليك على الزواج منهن وإنجاب الأولاد، فقد كان القاضي صدر الدين عبد الرحمن بن الشيخ الفقيه جمال الدين الكفيري (ت٨٠١هـ/١٣٩٩م) متزوجاً بجارية[٤]، والفقيه جمال الدين عبد الله بن بدر (٨١٠هـ/١٤٠٧م) متزوجاً بأخرى[٥]، وكانت أم شهاب الدين أحمد ابن قاضي القضاة نجم الدين بن حجي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) جارية، وزوجة قاضي المالكية علي بن محمد بن أحمد نور الدين المعروف بابن التنسي المالكي (ت٨٧٥هـ/١٤٧٠م) كذلك[٦].

أبقى بعض المماليك على أسماء جواريهم القديمة دون تغيير إكراماً لهن، مثل اسم سكرباي وسور باي، بعد شرائهن من قبل أسيادهن[٧].

ب- الزعر والحرافيش:

الزُّعَرُ والزُّعران تعني الأحداث، ويقال زَعَر الرجل زَعَراً أي قلّ خيره، والزعارة الشراسةُ وسوءَ الخلق. وحَرفشَ الرجل تهيأ للقتال والغضب والشر، والحَرَنفش الجافي الغليظ والشديد القوي، والحرافيش طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه وزعارة[٨]. ويظهر من مقارنة معنى المصطلحين أن الزّعَر كان لديهم طباع شرسة قادتهم إلى طريق البغي والعدوان وممارسة الفساد بمختلف أشكاله بعكس الحرافيش الذين يمتلكون الاستعداد للغضب والشر دون سلوك ذلك

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٩٦ــ ٩٧، ٣٦٣، ٤١٧، ٤٤٩، ٥٨٢
(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤١١
(٣) المصدر السابق، ج١، ص٤٦٢، ٤٩٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٩٩، ١٤٢، ١٧٩، ٢٨١
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٢٢
(٥) المصدر السابق، م٢، ص٨١٠
(٦) الصيرفي، إنباء، ص٣١٠، النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٩٠ــ ٢٩١، ٢٩٤
(٧) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٤٦، ٥٤٩، ج٤، ص١٥٩٣.
(٨) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، لسان العرب، ١٥م، دار صادرــ بيروت، م٤، ص٣٢٣، م٦،ص٢٨٢، ابن بطوطة، رحلة، ص٤٤، الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت ــ لبنان، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص٥٣٠، الزبيدي، أبو الفيضي أبو محمد بن مرتضى (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، ١٨ج، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مطبعة حكومة الكويت، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢)، ج١١، ص٤٢٨

فعلياً فهم على هذا أقل خطراً من الزعران واهتمامهم منصب على الاستعراضات والمظاهر الشكلية لاغير. وقد ظهر أثر الزعران الاجتماعي في نيابة دمشق في فترات مختلفة غير أن خطرهم تفاقم بعد سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) عندما أجاز لهم بعض الفقهاء قتل أعوان الظلمة، فصار كل من في قلبه شيء من الدمشقيين تجاه آخر يقوم بقتله أو يكلف الزعران بقتله بإغرائهم بالمال وبادعاء أن المقتول "عواني" وجب التخلص منه، فانتشر الفساد كثيراً بحيث قُتل في دمشق وحدها نحو المئة نفس وفي الصالحية نحو ثلاثين[١]. غير أن الفقر كانت الصفة الغالبة عليهم مما جعل بعض الأمراء يحسن إليهم.

تواجد الزّعر وعلى أوساطهم السكاكين والخناجر الطوال المهولة في معظم أحياء دمشق، حيث كان هناك زعر الشاغور والميدان وباب المصلّى والقبيبات والسويقة والمزابل والشويكة والصالحية وباب السريجة والمرجة ودوما والغوطتين ووادي بردى والزبداني، إلا أن أشهرهم وأشدهم قوةً وتنظيماً كانوا زعر الشاغور[٢] بحكم ونوع حيّهم قرب القلعة ودار السعادة السعادة مركز الحكومة إضافة إلى وجود مقبرة باب الصغير الواسعة في حيّهم مما هيّأ أجواءً قتالية جعلت كفتهم الغالبة على المماليك أو المقلقة لمضاجعهم في معظم الأوقات فهم في خط المواجهة الأول مع الدولة لقربهم من المراكز الحكومية، كما شكّل حيّهم مجالاً واسعاً للاقتتال أو حتى الاختباء والدفاع في مقبرة باب الصغير[٣].

اتصفت علاقة الزعر مع بعضهم البعض بالعداء وعدم الوئام فقد تم سنة (٩٢٢هـ/١٤٨٣م) اجتماع زعر حارتين فالتقوا بالسيوف وغيرها فجرح جماعة وقتل غيرهم فرمى الاستاددار[٤] مالاً على حاراتهم. وكان المماليك من جانبهم يساعدون على إذكاء نار الفتنة الفتنة وإبقاء العداوة بينهم ليضمنوا ابتعادهم عنهم وانشغالهم ببعضهم، فلجأ بعضهم إلى تقريب زعر حي على حساب آخر، ومن ذلك ما تم سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) عندما طلب دوادار السلطان من زعران الشاغور إقامة عرض أمامه في اصطبل دار السعادة فلبّوا طلبه ثم خرجوا ومرّوا على حارة المزابل فاقتتل زعر الحارتين بسبب شعور زعر المزابل أن الدوادار فضّل زعر الشاغور عليهم، كما أن خروجهم وتجوالهم كان تحدّياً سافراً لهم، وكانت نتائج القتال موت نحو عشرة من الناس وجرح آخرين وإغلاق الأسواق " وذلك كله بسبب الدوادار، ولا قوة إلا

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص١٤٨

(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٤١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٤، ١٤٩- ١٥٠، ٧٩، ١٩٣- ١٩٤، برغوث، جوانب، ص٤٠٧، العلبي، دمشق، ص٩٨

(٣) العلبي، دمشق، ص٩٨

(٤) استاددار أو أستاذ الدار: أستاذ معناها السيد، ودار ممسك، يتولى شؤون البيوت السلطانية كلها من مطابخ وشراب خاناه وحاشية والغلمان، ويمشي بطلب السلطان في الأسعار وإليه أمور السماط. القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٠-٢١، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٢، ابن كنان، المواكب، ق٢، ص١٤.

بالله". وحدث سنة (٩٠٦هـ/١٥٠١م) أن اقتتل زعر الشاغور مع زعر ميدان الحصى بسبب خروج زعر الشاغور مع دوادار النائب لاستقبال دوادار مصر تحدّياً ونكاية بزعر ميدان الحصى، فقتل من أهل الشاغور رجل يقال له ابن الكساوي فاشتد حنقهم بسبب هذا فمنعوا أهل الميدان من الانتشار(١).

وقد فطن الزعر إلى تدبير المماليك في الايقاع بينهم فحاولوا سد الطريق عليهم بإقامة ولائم لزعرهم وإصلاح ما فسد بينهم، إلا أن هذا لم يكن مثمراً حيث استمرت العلاقات العدائية بين أفرادهم وزادت حدّه بلجوء بعضهم إلى التقرب إلى بعض المماليك دون غيرهم ففي سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) أولم أهل الصالحية لدوادار النائب وليمة حافلة اشترك فيها زعر ميدان الحصى ثم القبيبات فالشاغور وباب المصلّى(٢).

أما عن علاقة المماليك بالزعران فيظهر عدم ثباتها على حال وتغيّرها وتبدلها من حين إلى آخر حسب الأوضاع والضرورة، فتارة توصف بالشدة مثلما كان في سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) حيث أمر النائب بقتل رجل زعر بسبب إجرامه وإدانته بالقتل، وما تم في سنة (٨٩٩هـ/١٤٩٤م) عندما قتل الأزعر علي بن بلغان بتدبير النائب وتم القبض سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) على قريش كبير الزعر بالشاغور، كما خوزق رجل أزعر من الصالحية في العام نفسه بأمر النائب(٣). وتارة كانت توصف باللين والوئام والمهادنة، وقد بدا ذلك واضحاً سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٨م) حيث تحدث ابن طولون عن هذا الأمر قائلاً "وتعاظم الأوباش من الزعر وغيرهم لميل الترك إليهم لجعلهم مشاة لهم". وقام نائب دمشق سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) باستدعاء كبير زعر الشاغور المعروف بابن الطباخ فطيّب خاطره وخلع عليه وتعهد أمامه بعدم رمي دية على مقتول إلا من يستحق ذلك، وتم الصلح بينهما وطلب منهم نائب غيبة دمشق سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) مساعدة نائب دمشق في قتاله ضد العرب في حوران مقابل مال يؤخذ من عرفاء الحارات. ونرى العلاقة غامضة لا يمكن الجزم بحقيقتها أو الحكم على طبيعتها عندما تتجمع الشدة مع اللين في آن واحد(٤). فقد لبس النائب سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) خلعة جاءته من مصر وأحضر زعر الحارات ليمشوا أمامه بالسلاح، وكان من مدة قريبة أي قبل شهر قد نادى في دمشق بإبطال الزعارة وحمل السلاح. وكان النائب سنة (٩٠٥هـ/١٥٠٠م) قد طلب من زعر أهل الشاغور تزيين حارتهم لأن موكبه سيمر منها، فقاموا بتزيين الحارة من أموال الناس.

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص ١٨٩
(٢) المصدر السابق، ص١٤٧، ٢٠٤
(٣) المصدر السابق، ص٩٣، ١٢٧، ١٧٨، ١٧٩، Tarawneh, the pronince, p. 114-115
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص١٥٩، ٢٠٤، ٢٦٧ ــ ٢٦٨

وفي سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) دخل نائب دمشق الجديد قانصوه البرجي إلى المدينة فتلقاه زعر الصالحية مع كبيرهم فمروا على ميدان الحصى وتعدّوا على أهلها فجرحوا جماعات منها، فلما وصلوا إلى النائب قانصوه اليحياوي عاتبهم على خروجهم للقائه وقام بتوسيط كبيرهم ونهب بيته وصودرت العدد من جماعة منهم[١].

وسواء كانت علاقات الزعر مع بعضهم أو مع المماليك عدائية أم حسنة أو بين بين، فالذي يهمنا "تأثيرهذه العلاقات على حياة أهالي دمشق".

كان الزعر يستغلون الأحداث السياسية في إثارة الفساد وفي الإساءة إلى الناس وينشطون مع ضعف السلطة المملوكية[٢]، فحينما يرون تهاون أرباب السيوف في مهامهم إضافة إلى غياب النائب يقومون بتنفيذ مخططاتهم وأعمالهم السيئة كما حدث سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) عندما توفي النائب فحصل بدمشق فساد من زعرها على النقباء ومن استضعفوه.

وحينما انهزم قانصوه الغوري سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) أمام العثمانيين قام الزعر بالدوران في دمشق وضواحيها وقتلوا سبعة أنفس من صالحية دمشق، ونهبوا بيوت بعض الأمراء والمشاة وأرادوا حرق ونهب حارة السمرا فقدم لهم بعض المكلفين بحماية القلعة مالاً فتركوا الحارة[٣]. لقد سببت هذه الحوادث وغيرها الرعب والفزع لأهل دمشق ففي سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م) قتل أناس في القبيبات ونهبت بيوت وصودر أناس وأدت تصرفاتهم إلى موت آخرين رعباً[٤]، فقد حدث سنة (٨٩٩هـ/١٤٩٤م) أن قُتل أزعر بتدبير النائب فقام أخو المقتول بالاعتداء على والي الشاغور وقتله فتوجه النائب ومماليكه إلى الشاغور للاقتصاص من أهلها ومعاقبتهم فخافت امرأة من الشاغور لها بنت قد حان زواجها فهربت مرعوبة من الشاغور إلى السويقة، فماتت عند وصولها دار أختها.

وزاد تأثير الزعر السيء على الناس سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) فقد قاموا حينها بالسيطرة على الأسواق وممارسة النهب والفساد في نساء المسلمين ودمائهم وأموالهم. واستمروا في غيّهم أيضاً سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م) فنهبوا حوانيت الناس واتخذوا بائعين يقومون بالبيع لحسابهم، وحينما رمى المحتسب عليهم الرميات وقفوا في وجهه وتخلصوا منها[٥].

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ٢١٦ــ ٢١٧، ١٨٢
(٢) برغوث، جوانب، ص٤٠٨
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص ١٣٨، ١٤٤، ١٨٩، ٣٣٤، ٣٣٧
(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٠٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢٧
(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص١٢٧، ٢٣٦، ٢٥٥

أما فيما يتعلق بالحرافيش، فقد غلب عليهم الطابع الاستعراضي المسالم، ومن ذلك أن أحد القضاة لبس خلعة في دمشق سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) جاءته من مصر وكان الحرافيش يتقدمون موكبه، ودخل الخازندار[١] إلى دمشق قادماً من حلب سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) والحرافيش تتقدمه[٢]. ولبس ابن شعبان كبير الأسقاط والحرافيش سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) خلعة قدمت من القاهرة ادعى أن مصدرها مرسوم من السلطان سقط من القاصد، ولكن الحقيقة أنها جاءت من رمضان كبير أسقاط القاهرة وحرافيشها، فلما لبسها ابن شعبان نادى منادٍ بحمايته ورعايته مع ما سبق ذلك من تزيين دمشق ثلاثة أيام بمصاحبة الرقص واللهو[٣]. وتكررت هذه المشاهد ولكن بتفاصيل أكثر سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م)؛ فقد دخل دمشق قادماً من مصر ابن شعبان سلطان الحرافيش وكان الأوباش يحيطون به ومعهم الطبول والصفاقات والأعلام الصفر، فلما أوصلوه إلى بيته راحوا إلى منزل زوجته وبرفقتهم مائتي امرأة كن راكبات حولها يرتدين خرقاً صفراء اللون ملفوفة على عصائبهن إلى أن أوصلنها إلى منزلها[٤].

تميز الحرافيش أيضاً بارتباطهم بزوايا الطرق الصوفية، فقد كان سلطان الحرافيش محمد بن شعبان سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) مؤيداً لبيع الحشيش والخمر مسانداً لمن يتولون بيعهما سالكاً في ذلك طريق بعض المتصوفين ورواد الزوايا[٥].

---

(١) الخازندار: موضوعها التحدث عن الخلع والتشاريف السلطانية بالقلعة، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٨٦.
(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٨٢، ٤٩٩، وللمزيد ص٤٤٢، ٤٨٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧
(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٤٠
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٩٦ـ ٩٧
(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٧٥، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٨٧، زكار سهيل ، من ملامح الحياة الاجتماعية في دمشق، دمشق أقدم مدينة في التاريخ، ندوة آذار الفكرية/ مكتبة الأسد، دمشق ـ سوريا، (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص٢

الفصل الثاني

مظاهر النشاط الاجتماعي لسكان نيابة دمشق

تعددت صور النشاط الاجتماعي لسكان نيابة دمشق نظراً لتعدد الفئات السكانية فيها ولاختلاف المؤثرات والعوامل المسببة لظهورها.

لقد ساهمت بيئة دمشق الطبيعية مساهمة فعالة في ازدياد النشاط الاجتماعي لدى الأفراد وتفاعلهم معها، فكانت المتنزهات والبساتين والأنهار والجنان كالربوة والغوطة مصدر جذب لرحلات الدمشقيين ولارتيادهم وتمتعهم بمناظرها وقضاء أوقاتهم الطويلة في أكنافها. كما كان لفئة المماليك والأمراء ومن يقعون في إطارهم تأثيراً آخراً على حياة الدمشقيين، حيث ألف هؤلاء حياة الترف والبذخ فكانت قصورهم وأسمطتهم وملابسهم واحتفالاتهم خير شاهدٍ على إسرافهم، فتبعهم بعض سكان نيابة دمشق متشبهين ومقلدين.

وحاولوا كذلك تقليد المتعممين في سلوكياتهم ومنهجهم، فساروا على خطاهم في الالتزام بتعاليم الدين الحنيف والخلق الحسن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة مرتكبي المعاصي وارتياد دور العبادة ومصاحبة الصالحين وتقدير العلم والعلماء وتبجيل المتصوفين.
واشترك الدمشقيون في احتفالات أهل الذمة ومناسباتهم، واقتبسوا من الأيوبيين بعضاً من المظاهر الاجتماعية، كما اقتبسوا من الأمم الأجنبية والفئات المستألفة والدنيا أنماطاً أخرى بدت على طرق حياتهم وأنماط عيشهم.

واختلفت العادات والتقاليد عند الدمشقيين باختلاف المناسبات، فقسم منها ظهر في مناسبات الأفراح والأعياد وآخر في الأتراح والأحزان، ومنها ما كان خاصاً بالمماليك، وغيرها بالعامة، وهناك عادات ارتبطت بالمصريين والمواسم الزراعية والحمامات الدمشقية.

١) الأسرة وتقاليد الزواج

أ- زواج المماليك

عُدَّ الزواج النواة الرئيسية للحياة الأسرية المملوكية في نيابة دمشق، وقد كانت مراسيمه تبدأ بالخطوبة، فكانت الفتاة في هذا العصر تتزوج في سن مبكر، فقد تزوج الأمير سودون الحمزاوي سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) من خوند زينب ابنة الملك الظاهر برقوق وعمرها نحو ثماني سنوات، وتزوج الأمير محمد بن السلطان قانصوه الغوري سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) من

ابنة سيباي نائب الشام "شقرا" وعمرها ثماني سنوات[1]. وكان العريس أيضاً يتزوج في سن مبكر، كما حدث مع محمد ابن السلطان قانصوه الذي تزوج وله من العمر ما يقارب الثلاث عشرة سنة[2].

وشاع الزواج الطبقي بين المماليك حيث يتزوج الأمراء وغيرهم من أرباب السيوف من الأميرات "الخوندات"، كما وُجد أيضاً بين هذه الفئة الزواج السياسي في بعض الأحيان[3]. وكان الزواج يبدأ بالخطوبة ، فيقوم الخاطب بإرسال والده أو أحد أركان دولته إلى والد العروس أو وليها لخطبتها، أو يتولى هذا الأمر بنفسه مباشرة، وغالباً ما تكون هذه الخطوة مدعومة بالهدايا المختلفة والخلع لأهل العروس، وكان يُسمح لهذه الفئة برؤية العروس قبل العقد في الحالات النادرة[4]. ويتم بعد ذلك دفع الصداق أو المهر، وقد تميزت مهور هذه الفئة بالغلو، وإما أن يدفعها الخاطب أو يتولى غيره دفعها كالسلطان، ففي سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٥م) عقد الأمير ناصر الدين محمد بن ابراهيم بن منجك على بنت الأمير محمد شاه ابن بيدمر على صداق بلغ ألف دينار. وخطب الأمير الطنبغا القرمشي سنة (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) على ابنة السلطان المؤيد شيخ على صداق مقداره خمسة عشر ألف دينار[5].

وبعد دفع العريس المهر أو الصداق يبدأون بعقد النكاح، فترسل الدعوات على رقاع من حرير أصفر أو غيرها من الألوان للمعارف والأصدقاء، تتضمن وقت العقد ومكانه، وتحتوي صيغة العقد خطبة العقد (النكاح) التي تستهل بالبسملة ثم حمد الله على نعمة الإسلام والآيات والأحاديث النبوية التي تحث على الزواج وتبين أهميته، ثم مدح الناكح والإشادة بنسبه، ثم اسم الزوجة ونسبها وصداقها وطريقة دفع هذا الصداق معجلاً أم مؤجلاً، ثم التنويه إلى اسم ولي أمر الزوجة والقاضي العاقد فمزايا الزوجة وصفاتها لا سيما الإخبار عن حالها ثيباً أم بكراً، ثم الشروط الخاصة بالعقد والمكلف الزوج بتنفيذها كمعاملة الزوجة بالمعروف وتقوى الله فيها،

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص١٠٧. ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٨٠٣، ج٤، ص٣٩٩، ٤٠٦. الطراونة، الحياة، ص٣٢٤-٣٣٧.

(٢) ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٤٠٦، وللمزيد ابن حبيب، تذكرة، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص٣١٧، ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص١٥٧، المنهل، ج٣، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ن، ص١٠٩.

(٣) ابن حبيب، تذكرة، ج١، ص٧٢، المقريزي، السلوك، ج٢ق٢، ص٥٣٤، ج١ق٣، ص٧٠٩، ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٤٠٨

(٤) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص١٥٥، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٩٠، ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٣٩٩

(٥) ابن الفرات، تاريخ، م٩ج١، ص٣٤، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٥٥٢، ابن اياس، بدائع، ج٤ق١، ص٥٣٦

وقبول الزوج على هذه الشروط، وأخيراً ذكر اسم وكيل الزوج وولي الزوجة والشهود وتاريخ عقد الزواج وسنته هجرياً[١].

وكان العقد يتم في المساجد غالباً أو في قاعات معينة أو في بيوت الأمراء أو دار السعادة، وبعد العقد ينتقل الناكح إلى إعداد الشوار "الجهاز" ونقله إلى منزل العروس[٢]. كما تميزت المهور بالغلو تميز الجهاز كذلك، فقد ذكر الصيرفي أن جهاز خديجة ابنة الأمير جركس الخليلي كانت قيمته ثلاثين ألف دينار، وذكر السخاوي أن جهاز خوند البارزية سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) فيه ما يفوق الوصف، بحيث أخبر من يرجع إليه في هذا أنه لم يعهد نظيره ولم يُحمل على رؤوس الحمالين كالعادة بل أُخرج من الحواصل[٣].

وعندما يتم الانتهاء من الجهاز وملحقاته، تُقام حفلات الزواج التي تتراوح ما بين ثلاثة أيام إلى سبعة[٤]. ويصحب حفلات الزواج إقامة الولائم، وكما كان الصداق والجهاز باهظي الثمن كانت الولائم كذلك. وتكون الولائم قبل الدخول وبعده[٥]، وتُقدم في هذه الولائم مختلف أنواع اللحوم والشراب، وكان يتم فيها فصل الرجال عن النساء فتقام وليمة للرجال وأخرى للنساء في بيت الزوج. وقد وصف الصيرفي هذه الموائد وصفاً مختصراً لكنه معبراً فقال عن إحداها "يكفينا أنه شيء ملوكي"[٦].

وعندما تنتهي الولائم تُقرأ الموالد النبوية في الغالب، ويُزف العريس بعدها من الحمام إلى بيت العروس ويحيط به الأمراء والأعيان، وقد ذكر ابن حجي سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٥م) أنه سمع بزفة عظيمة لم ير مثلها من سنين قديمة للأمير يلبغا الاشقتمري الظاهري، أحد مقدمي الألوف، حيث كان العرس بمنزله، وكانت الزفة ما بين حمام بيدمر إلى جانب الفراديس إلى منزل الزوجة بنت شمس الدين ابن مشكور ناظر الجيش، قيل ما شوهد بعد زفة ابن سندمر نائب الشام سنة (٧٦٠هـ /١٣٥٩م) مثلها[٧]. أما العروس فكانت تتزين من قبل الماشطة

---

(١) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٧٥، الهواري، حسن محمد، عقد زواج قديم مضى عليه ٦١٨ سنة، مجلة الهلال، ج٥، سنة ٤١، (١٣٥١هـ/١٩٣٣م)، انظر صورة العقد في ملحق ٣، ص ١٧٨

(٢) ابن قاضي شهبة، ج٤، ص١٧، الصيرفي، إنباء، ص١٢٣، ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٧٤٧، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص٣٨، ابن الحمصي،م٢، ص٢٧٥، ٢٨١، م٣، ص٣٥٥

(٣) ابن قاضي شهبة، ج٤، ص١٧، الصيرفي، إنباء، ص٢٥٣، نزهة، ج١، ص٤٩٢، للمزيد، ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ص١٠٩، النجوم، ج١١، ص٣٥٢، السخاوي، التبر، ص٣٠١– ٣٠٢

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص٢٤٩، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٣٤٦، ج٢، ص٣١٤

(٥) ابن حجر، إنباء، ج٧، ص١١١

(٦) المصدر السابق، ج٥، ص٥، ج٧، ص٢٩٤، المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص٢٨٨، ج٣ق٣، ص١٠٧٦، ج٤ق١، ص٤٣٤، الصيرفي، نزهة، ج١، ص٩٤، السخاوي، التبر، ص٣٠٢

(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٢٢، ابن قاضي شبهة، ج٤، ص٥٠–٥١، انظر كذلك عن جهاز زوجة جان بلاط، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٩٣

وتخرج من بيتها إلى مكان الحفل، وعندما كان يبدأ الحفل تصدع أصوات المغنيات بالغناء ويشرع الحضور في تقديم الهدايا والتقادم إلى أصحاب العرس[(١)].

ب- زواج العامة

كانت مراسيم الزواج عند العامة تبدأ بالخطوبة، حيث يقصد الراغب بالزواج الخاطبة، كونها تعرف كل حرة وعاهرة ومليحة وذميمة، فكانت تتظاهر ببيع الطيب والبخور والمرايا وغير ذلك من لوازم النساء، أو ترتاد الحمامات لانتقاء العروس. وحينما تجد الخاطبة مبتغاها في العروس التي تمتلك الشروط المطلوبة تبادر إلى إخبار العريس فإن رضي وأعجبته كافأها بهدية، ثم أرسلها مرة أخرى إلى عائلة الفتاة لتبلغهم برغبته في الاقتران بابنتهم، ويظهر أن الفتاة العروس لم يكن لها رأي في اختيار زوجها، بل كان يرجع ذلك لوالدها مع مشاركة والدتها في بعض الأحيان وكانت أعمار العروسين صغيرة وقد تمت الإشارة إلى سنهما دون ذكر ذلك صراحة فقيل الطفلة المراهقة، البنت البكر المراهق، الشاب الأمرد، الحالي العذار[(٢)].

حرص الشباب على تفضيل العروس كثيرة المال والجهاز والجمال غير مبالين بالدين والنسب اللذين شدد الرسول صلى الله عليه وسلم على الأخذ بهما عند النكاح[(٣)].

كما شاع الزواج الطبقي بحيث كان يختار الزوج شريكته ممن تكون من طبقته أو مستواه، فالعوام يتزاوجون فيما بينهم على الأغلب، وكذلك العلماء وغيرهم، وفضلت فئة الاقتران بفتيات من العائلة ذاتها أو ممن يشتركون في مصلحة واحدة، سواء كانت العروس بكراً أم ثيباً.

كما ظهر زواج (الشغار) أي أن يبدل الرجل ابنته بابنة غيره بدون مهر[(٤)]. وبعد الخطوبة واختيار الزوجة، كان يتم عقد النكاح في منزل أحد العروسين أو في المسجد أو غيرهما من الأمكنة بحضور متواضع من الناس مقتصراً على من هم من طبقتهم[(٥)].

---

(١) ابن قاضي شهبة، ج٤، ص١٧، المقريزي، السلوك، ج٢ق١، ص٩، الصيرفي، نزهة، ج١، ص٤٩٢، ج٢، ص١١٦، إنباء، ص٢٥٣، السخاوي، التبر، ص٣٠٢، ابن طولون، إعلام، ص٢٢٢٠، عاشور، المجتمع المصري، ص١٢٢

(٢) ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٦٨٠، ٧٣٠، ٧٥٣، ٩٢٥، ١٠٣٩، وثيقة زواج من العصر المملوكي، مجلة الغرباء الالكترونية، العدد ٧٧، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، لندن، ص١، ليلى محمد محمد، عادة ارتياد النساء لحمامات دمشق، مجلة الحرس الوطني، العدد ٢٧، السنة ٢٢، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص١١٤، عاشور، سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار الأحد، بيروت، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٧م، ص٢٤.

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٦٥، الشيخ علوان علي بن عطية بن الحسن بن محمد الهيتي (ت٩٣٦هـ/١٥٣٠م)، نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء والأخبار، ط١، تحقيق، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية- بيروت، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، ص٢٥٥

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٩٢، ٣٧٩، ٤٩٨، ج٢، ص٦٥٨، ٧٣٠، ٧٨٤، ١٠٤٧، ج٤، ص١٧٣٤، ١٩٠٦، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٧٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٤، ٣٢٤، ٣٨٧. عمارة، محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، ط١، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٣١٦.

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٢٢، ١٤٣، ٣٤٣، ٣٨٧، م٢، ص١٠٣٦

وتضمنت كتب العقود اسم الزوجة إذا كانت ذات جاه على الأغلب، أما إذا لم تكن فيشار إليها بـــ "ابنة فلان"، كما تضمنت اسم الزوج والقاضي الذي عقد النكاح حيث كان يتم العقد حسب المذاهب الأربعة المتعلقة بالزوجين، وكان يشار إلى أسماء الشهود الذين حضروا العقد، والمكان الذي تم فيه العقد والمهر، وقد اختلف من عقد لآخر تبعاً لحالة الزوج الاجتماعية، وقد تراوحت المهور ما بين ١٥٠ درهماً إلى ٣٠٠ ديناراً[(١)].

وكان عقد النكاح يُسجل بالمحكمة في المدرسة الجوزية بستة وعشرين درهماً عن زواج البكر وأربعة وعشرين عن زواج الثيب[(٢)].

وبعض الناس كان يغالي في الأفراح رياء وسمعة ليشار إليه بالبنان. وعلى الغالب فقد كانت تكاليف الزواج باهظة بعض الشيء مما أوجد أوقافاً خُصصت لتجهيز البنات إلى أزواجهن من اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، كما قام بعض الأزواج باستعارة الأقمشة الخاصة بالجهاز من آخرين[(٣)].

وخلال فترة الخطوبة كانت تُرسل اطعمة من لحم وغيره على رؤوس الحمّالين مكشوفة ليراها الناس فيقال هذا عشاء فلان، وكان يُدعى إليها الأغنياء ورؤساء الحارات ولا يلتفت إلى الفقير والمسكين. وقد تُرسل هدايا أخرى تحوي أواني فيها مياه وشراب، وتمر وحرير[(٤)]. وكان لكل عروس جهاز (الشوار) يقوم والدها بأعداده، وقد اختلف جهاز بنات الأمراء عن جهاز العامة. فظهر في الأول البذخ والترف البالغين بينما احتوى جهاز الفئة الثانية على قماش وفرش وأثاث ونحاس وحلي متوسط القيمة[(٥)].

وكان الجهاز يُنقل إلى بيت العروس بمرافقة أهل محلة الزوج، وحينما يقترب من بيت الزوجة يُمنع من الوصول إلى دارها حتى يتم تقديم عدد من الأغنام كهدية، فيرد أهل محلة الزوج بعدم إجابة طلبهم حتى يضيفوهم الضيافة اللائقة، فيذهب أهل الزوجة إلى بيوتهم لإعداد الطعام. وبعد الوليمة يُنشر الجهاز بما فيه من قماش وحلي ومتاع وأثاث فترتفع أصوات النساء بالزغاليط، ويختلط النساء بالرجال في الأزقة والأسواق. وعندما تنتهي الوليمة يشرع في أخذ النقوط "شاباش" بالجبر وذلك بأن ينادى على الدافع (شاباشي يا فلان) مما يسبب إحراجاً، مع

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٢٤، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٦١، انظر الملحق رقم (٤)، ص١٧٩.
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٤٨
(٣) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٩٦، الشيخ علوان، نسمات، ص٢٤٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٩، هاشم عبد الهادي، أعراس الشام في أواخر القرن التاسع، مجلة المجمع العلمي العربي، ج٢، مجلد ٣٢، دمشق، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص٣٣٣.
(٤) الشيخ علوان، نسمات، ص٣٤٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٧
(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص١٣٢، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٣٧، الشيخ علوان، نسمات، ص٢٤٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠٣

استمرار أصوات الزغاليط خاصة إذا كان المنادى باسمه من وجوه الناس. ثم يذهب الجميع إلى الحمام ومعهم الشموع وخلال ذلك كانت ترتفع أصواتهم بالتهليل لهواً وطرباً ولعباً مع مطمطة بعض الحروف وإخراجها عن محلها[١]. وبعد الحمام يُزف العريس إلى الزوجة. أما النساء فكن يجتمعن في بيت الزوجة، حيث يقمن بارتداء الثياب ولبس الزينة والخضاب بالحناء والتحلي بالذهب والشموع موقدة. ومن العادات المستحبة عند الدمشقيين أن ينام احد الصالحين في فراش العروسين قبل العرس بثلاثة أيام لتعم بركاته على أهل البيت[٢].

أما عن تزيين العروس فتتولاه الماشطة، فتزيل الشعر من وجهها وتخضبها بالسواد والحناء وتطرف أصابعها إضافة إلى قيامها بوشمها بغرز ابرة أو مسلة في ظهر كتفها أو معصمها أو شفتها وعندما يسيل دمها تقوم بحشي الموضع بالكحل ونحوه فيخضر ثم تلبس رأسها شربوشاً، وهو المقنزع أي العمامة أو العصابة الكبيرة الملفوفة ونحوها. وفي النهاية تضع الجلاية على وجهها.

وحينما يحضر الزوج يكشف الجلاية عن وجه العروس، فتميل وتتكسر في حركتها أمامه وتدور، وكلما دارت مرة لصق الزوج ومن معه من الأقارب الدراهم على جبهتها وعلى خديها. ثم تخلع الماشطة ثياب العروس وتلبسها ثياباً أخرى وتضع على رأسها عمامة كعمامة القاضي، فتمسك العروس سيفاً وتأتي للزوج فيتناول منها السيف ويضربها ببطنه – السيف – على رأسها ثلاث ضربات علامة الخضوع. ويأخذها فتتلقاهما والدة الزوج. وترقب النساء من كوات "طاقات" ما يجري بينهما إلى الفجر، ولا يتركن المكان حتى يتأكدن من عفاف الزوجة[٣].

وفي حالة فشل الزوج في النيل من زوجته فإن أمره سرعان ما ينتشر، فقد حدث سنة (٨٩٦هـ/١٤٩١م) أن شكت إحدى النساء زوجها للنائب بأنه عنين[٤]، وأنها ما زالت بكراً، ووقف معها جماعة إلى أن طلقها النائب منه بعد أن أخذ منها نحو مائة وعشرين أشرفيا. وحدث سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) أن تزوج كاتب السر محب الدين الأسلمي من ابنة المزلق البكر، ومضى على زواجهما عشرة أيام ولم يستطع "أخذ وجهها"[٥].

وكان يتخلل حفل الزواج في بعض الأحيان قراءة الموالد النبوية، وبالمقابل كان بعضهم يقيم مسرحاً ويدعو المغنيين ومن يضربون على الدف، فتحدث منكرات كثيرة من مثل اختلاط

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٥٨١-٥٨٢، ابن علوان، نسمات، ص٢٤٨، ٣٤٦، ٣٤، هاشم، أعراس، ص٣٣٣.
(٢) ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٥٨٠.
(٣) الشيخ علوان، نسمات، ص٣٥٢- ٣٥٣، ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٩٤٤، هاشم، أعراس، ص٣٣٦ – ٣٣٧.
(٤) العنين: الذي لا يأتي النساء ولا يريدهن. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٩١.
(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص١١٢، ١٦٨

الرجال بالنساء والغناء الفحش وتشبه النساء بالرجال وكثرة الضحك وترك الصلاة والاستهزاء بالدين وكشف العورات[(١)]. وفي بعض الأحيان كانت المرأة تختار زوجها حباً وعشقاً. وبمجرد انتهاء مراسيم الزواج، يتم بناء الأسرة في بيت إما أن يكون مؤجراً أو ملكاً أو في بيت العائلة والذي يسمى "البيت الكبير"[(٢)].

وقد بلغ عدد البيوت في دمشق سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٤م) ثمانية آلاف بيت وسبعمائة، أي أن عدد السكان كان حينها تقريباً اثنين وخمسين ألفاً ومئتين على اعتبار أن كل بيت يتكون من ستة أفراد، وتبدو البيوت متلاصقة بحيث أن الجيران كانوا يسلمون على بعضهم من أسطحها ويتناقلون الأخبار فيما بينهم. وتتواجد البيوت في محلات وأحياء وحارات، وضمت دمشق حوالي سبعين حياً، بينما ضمت الصالحية ثلاثين حياً[(٣)].

والبيت الدمشقي غالباً ما يتكون من قاعة وحجرة وطباق ومنافع، وتعتبر البحرة صحن البيت وفيها تتناول الأسر الطعام، وهناك مربع البيت وهو يشبه الحجرة المعدة للضيوف وحوش وايوان، وتفصل الأبواب بين كل قسم وآخر. وفي البيت الواحد كان يوجد أسرّة للنوم وفرش ولحف ومخاد وثياب وبسط تغسل في الصوابية الشرقية، وصناديق وخزائن لحفظ الثياب، أما المطبخ من البيت فيحوي دست كبير وصغير ومقلى وطاسة، ويتم تبييضها بين فترة وأخرى مما يرجح أنها كانت من النحاس، إضافة إلى صينية ومنقل حديد ومنصبة وكيزان لشرب الماء. ويتم الاهتمام بمونة البيت من قمح وبرغل فتوضع في مكان خاص، أما تنظيف البيت فيعتمد على الماء الذي كان يُحصل عليه من أحد العيون كعين الكرش، في حين أن الطبخ يتم غالباً خارج المنزل لغلاء الحطب[(٤)].

كانت كل أسرة تطمح أول ما تطمح إلى رؤية ثمار الزواج وذلك بإنجاب الأطفال، فكانت الزوجة تحمل "تحبل" مولودها وتتعرض في بداية الحمل للوحام. وأثناء الحمل وقبله وبعده لا يبخل الزوج في إحضار لوازم البيت من خبز ورمان وتفاح وعلب ملبس ودجاج ولحم وملابس للزوجة وأواني، كما كان يحضر جارية لمساعدة الزوجة في أعمالها[(٥)].

---

(١) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٨١، الشيخ علوان، نسمات، ص٣٥٤
(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٠، ٧٥، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٢٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٥٣
(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥١٤، ابن الحمصي، حوادث، م٣، ص٦١، لابدوس، مدن، ص١٤٦
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٥١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٧٣، ١٣١، ١٤٥، ١٦٢، ١٧٥، ٢٦٠، ٣٠٢- ٣٠٣، ٣٢٠، ٤١٩، ٤٧٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٣، سجل ١٨٩، مدينة دمشق، شريط ٢، حجة ٤٠، شريط ٣، حدة ١٣، ١٨، ٢٦، شريط ٩، حجة ٣٥، ٣٨، العلبي، دمشق، ص١١٧، وللمزيد حول البيت الدمشقي انظر عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق نجدة فتحي صفوة، ط١، دار الفكر – دمشق، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص١٠٢- ١١٠
(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٥، ١١٣، ١٣٥، ١٣٧، ٣١٦، ٣٢٦، ٣٣٤، ٤٠٣، ٤١٩، ٥٤٨

وقد يحدث أن تجهض "تطرح" الزوجة مولودها، أو تلده سبيعياً. وحينما كان يقترب موعد الولادة كانت الزوجة تعاني الطلق فتقوم الداية أو القابلة بتوليدها مقابل أجر، وبعد الولادة تمر في النفاس وتبقى الداية ترعاها حتى تدخلها الحمّام وتنقل طفلها إلى سريره الخاص.

ومن اللافت للنظر أن بعض المواليد يتسمون ثم يُكنون، فقد وُلد محمد وتكنى بأبي الفضل، ووُلدت فاطمة وتكنَّت بأم الفضل، وعالية أم هاني وأسما أم السعود وجميعهم أولاد المؤرخ شهاب الدين أحمد بن طوق[١].

ويظهر من أسماء الإناث أنها كانت عربية أصيلة ذات معاني جميلة فمن الأسماء ست القضاة، وألف وهاجر، حليمة، ست الفضل، وأسماء، وأصيل ونجوم وزينب ورونق وليلى، ست المنى. ولم تخرج أسماء الذكور عن العربية فوُجد اسم محمد، عمر، ابراهيم، عبد الكريم، يوسف، عبد الرحمن، وغيرهم[٢]. وبعد ولادة الزوجة بسبعة أيام تُذبح شاتان عن الذكر إذا كان حال الأسرة ميسوراً حسب السنة، أما إذا كانت الأسرة متوسطة الحال فتذبح شاة، كما تُذبح شاة أيضاً عن الأنثى وقد يتأخر موعدها عند بعضهم لأسباب لم يرد ذكرها[٣].

وخلال السنوات الاولى من عمر الطفل فإنه قد يرفض الرضاعة أو يلجأ إلى البكاء الشديد – النكد– وغالباً ما يكون متأثراً بحالة أمه النفسية فيفرح لفرحها ويبكي من ألمها، أو يكون سبب البكاء الفطام. كما يصيبه ارتفاع حرارة حمى وسعال ورمد، فيتم اللجوء إلى الطبيب الذي يصف بدوره علاجاً يعتمد على نبات مسهل لخفض الحرارة وللسعال والتشريط لعلاج الرمد. ويستدل على شفاء الطفل بدخوله الحمّام[٤]. وقد يقع الطفل في بداية مشيه كما حدث سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) لابن شهاب الدين أحمد بن طوق (ت ٩١٥هـ/١٥٠٩م) محمد أبو الفضل، حيث وقع بايوان القاعة على وجهه فسقط سن من الرباعيات العلويات فخرج منه دم أسود، وكان سنه في الثالثة وله نحو شهر ونصف أو أكثر قد مشى مستقلاً، أو قد يتعرض الطفل للقتل بسبب السرقة، فقد خُنقت بنت صغيرة سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) وأُخذ ما بأذنيها من الحلق وما

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٨، ٤٥، ١٠٢، ١٣٢، ١٩٥– ١٩٦، ١٩٩، ٢١٥، ٣٤١، ج٢، ص٧٣٥، كرد علي، غوطة، ص١٤٣.
(٢) ابن حجي، تاريخ، م٢، ج١، ص٥٦، ٩٨، ١٤٢، ١٧٢، ١٧٧، ١٨٢، ١٩٤، ٢٢٧، ٢٤٦، ٢٥، ٢٧٤، ٢٨٧، ٢٩٢، ٢٩٦، ٣٩٢، ٤٠٢، ٥٢٥
(٣) المصدر السابق، ص٨٩٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٢
(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٣٥، ١٤١، ١٤٦، ١٧٠، ١٧٣– ١٧٤، ١٧٧، ٢٠٦، ٤٩٧

بيديها من الأسورة وما برجليها من الخلاخيل[١]. ولما يبلغ الطفل الرابعة من عمره يُؤتى به إلى الكتاب عند أحد الشيوخ[٢].

ويُعنى بتربية الأطفال دينياً فيُكلفون بحفظ القران وهم صغار، وكثيرٌ منهم يختمون القران فيُحتفل بهم مع القضاة والأفاضل[٣]. ومن جهة أخرى فإن الأسرة الدمشقية لم تكن تكتفي بإنجاب طفل واحد بل كانت ترغب دوماً بإنجاب أكثر من طفل، حتى أن بعض النساء كن يحملن بعد نفاسهن مباشرة. غير أن متوسط الانجاب عند الأسر لم يتجاوز خمسة أطفال، مما أوجد الزواج الثاني أو الثالث في بعض الأحيان. ويظهر أن الزواج من المصريات كان شائعاً بحكم الصلة والروابط القوية، كون مصر مركز السلطة المملوكية[٤].

وعانت بعض الأسر من الفقر المدقع، ففي سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٩م) عرض جماعة أولادهم لمن كانوا ينزلون عندهم عجزاً عن إطعامهم. كما تضررت بعض الأسر من أربابها فعلى الرغم من امتلاك بعض الأزواج المال الوفير كانوا يقترون على أولادهم وأهليهم ويعاملونهم بمنتهى العنف والايذاء، وكانت مثل هذه المشكلة سرعان ما تؤدي إلى طلب الزوجة الطلاق من زوجها، إضافة إلى عدم تقوى الزوج وعدم غيرته على أولاده وحريمه، أو إساءة إحدى زوجتيه له إن كان متزوجاً باثنتين إساءة تتسبب في مرضه أو ارتكاب زوجته فاحشة مع غيره من الرجال[٥].

وقد يحدث لدى الأسر خلافات عائلية سببها مخالفة الزوجة لطلبات زوجها أو عدم رضاها عن تصرفات زوجها الإجرامية، وكثرة المجادلات – النكد – الذي قد يتطور فيؤدي إلى طرد الزوجة زوجها من منزله وإظهارها الغضب، فيضطر حينها إلى اللجوء إلى بيت والدته[٦].
والدته[٦].

وتتأثر الأسرة بفصلي الصيف والشتاء، فقبل هطول المطر يُعمدُ إلى ترقيع أسطح المنازل غير أن غزارة المطر وسقوط الثلج تجعل أسطح المنازل تدلف على أصحابها مما لا ينفع معها الترقيع فيتم تجريف الثلج ودحل الأسطح بعد ذلك ثم إصلاحها بإضافة التراب الأحمر وتطيينها. ولجأت بعض الأسر لتجنب الدلف مؤقتاً بالانتقال من مكان إلى آخر داخل المنزل.

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٦٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٩
(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٤١- ٥٤٢، ابن طولون، مفاكهة، ٢٣٥، فص الخواتم فيما قيل في الولائم، تحقيق: نزار أباظة، ط١، دار الفكر- دمشق، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٦٠
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١١٧، ١٩١
(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٠، ١٣٥، ١٧٤، ٢٠٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٩
(٥) البصروي، تاريخ، ص٣٦، ١٠٠، ٢٠٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٠، ٣٨٥
(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٣، ٢٣١، ٣٢١، ٣٤٣، ٥٢١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٧

وتقوم الملابس بدور فعال في الوقاية من برودة فصل الشتاء، فكان يلبس الرجال الفروة وتلبس النساء الملوطة[١] الفتايل، ويتم الاستعانة بالفحم جلباً للدفء حيث يتم إشعاله ومن ثم الدوران حوله جلوساً[٢]. وفي فصل الصيف كانت تلجأ الأسر إلى النوم فوق أسطح المنازل، كما كان يقوم رجالها بخلع الفروات ولبس الملابس الخفيفة. وتنشر الأسر في جرود العنب فوق الأسطح ليجف ويصير زبيباً في حين ينقل أهل منين الثلج بعد قيامهم بتخزينه في المغاور والكهوف إلى القاهرة مسرعين[٣].

أما علاقات الأسرة مع الأسر الأخرى فبدأت من الجيران ثم الأقارب فالأصدقاء فالمعارف، فقد ذكر صاحب التعليق جيرانه: أم عمر المطلقة والحريري وفاطمة التركمانية وزوجها وأم جماعة وعبد الرحمن الحوراني وعلاء الدين ابي العباس واسماعيل بن المصرية وابن خطاب و ابن الحمامي الأقباعي، كما أشار إلى أحوالهم من وفاة وولادة وإقامة موالد وتعمير البيوت[٤].

أما أقاربه فقد نال بيت خاله النصيب الأكبر من حديثه، كما أشار إلى إقامة زوجة خاله عندهم من الخامس والعشرين من شعبان إلى الثامن عشر من رمضان، وأن بنت بنت خاله نجوم ولدت ذكراً، وتكلم عن ابن خاله الذي أجّرهم البيت، كما قامت زوجة خاله بزيارتهم ومعها كنتها وحضرت لعنده بنت بنت خاله حليمة. ثم أشار إلى والدته ــ الست الكبيرة ــ وأخبر عن زيارة عائلته لها لما مرضت[٥].

وخلال حديثه عن الأصدقاء نراه أسهب أكثر ما أسهب في التعرض لأخبار سيده الشيخ المتزوج من المصرية، حيث ذكر أنه قام بزيارته له في بستانه مع بعض الشيوخ وولادة زوجته المصرية بنتان والعلاقات السيئة بينه وبينها تلك، والتي بسببها امتنع عن الفطور. كما أخبر عن معاناة زوجته القديمة – العتيقة – آلام الإجهاض والطرح، وذهابه إلى عين الحمة لأجل وجع ظهره. ثم عاود الحديث عن المصرية وازدياد أذاها وشرها إلى أن جعلت شيخه ينام بالحوش مغتاظاً منها، وتكرر نكد زوجته وغضبها مما اضطره في رمضان للإفطار عند والدته وهجره لمنزلهم[٦].

---

(١) الملوطة: كلمة يونانية الأصل، والجمع ملاليط وملوطات وهي جبة تلبس فوق الفرجية أو قميص واسع الأكمام. عمارة، قاموس، ص٥٦٣.

(٢) ابن تغري بردي، حوادث، م١، ص١٣١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٩٥، ٢١٤، ٢١٦، ٢٧٨، ٣٠٢، ٣٠٩– ٣١٠، ٤٠٣، ٤١٢

(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٧٩، ٢٣٦، ٣٤٣، ٣٥٧، ٣٨٦، ٣٩٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٩

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٩٨، ١٠٧، ١١٣، ٢٣٢، ٢٤٣، ٢٥٩، ٢٨٠، ٣٥٦، ٤٥٦، ٥٥٤

(٥) المصدر السابق، ج١، ص٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٩٢، ٣٥٢، ٣٩٣

(٦) المصدر السابق، ج١، ص ٣٨، ٥٦، ١٠٠، ١٠٢، ١٤٢، ١٦٢، ٢٣١، ٥٢١

وفي إخباره عن المعارف نجده يستعرض المناسبات التي مروا بها من زواج وطلاق وعزائم وولائم وإجازات وولادة وفطام وموالد وختان وحج وما يليق ببعض هذه المناسبات من هدايا، حيث كانت هدية الزواج والقدوم من الحج علب ملبس، وهدية الفطام والولادة قوالب سكر وبعض رمان ودجاج، والموالد شمعة مذهبة، والختان نقوط.

وكانت وسيلة الذهاب والتنقل الخيل والحمير بالأجرة. ولم تقتصر الصلات الاجتماعية على الزيارات بل ظهر إلى جانبها المراسلات البريدية عن طريق نقلة الثلج، حيث كان يجمع الثلاجة مع حرفتهم ايصال الكتب والرسائل إلى أصحابها في مصر[١].

٢) العادات والتقاليد

أ- دق[٢] البشائر وتزيين دمشق

(المواكب السلطانية)

كان سلاطين المماليك باستثناء السلطان قانصوه الغوري إذا أرادوا السفر إلى البلاد الشامية علقوا الجاليش، وهي راية عظيمة في رأسها خصلة من شعر الخيل، على الطبلخاناة قبل خروجهم بأربعين يوماً. وكانت تُعرض عليهم العساكر التي سترافقهم فيُنفقون عليها نفقة السفر، ويبقى الجاليش معلقاً إلى أن يخرج السلطان حتى ولو بعد شهرين[٣]، وعندما يحين موعد السفر، والذي يكون في أوائل فصل الربيع، كان يستدعي قسم من مماليكه فيأمرهم بالتوجه نحو البلاد الشامية مع أطلابهم[٤] قبله، بينما يُبقي القسم الآخر ليرافقوه مع أطلاب آخرين بعدهم، وينطلق الموكب من بين الترب وفي القاهرة عند الخروج، بينما يشقها عند العودة. وتكون نيابة غزة أول محطة يضع فيها ركابه، فيقوم نائبها باستقباله بحفاوة بالغة مع أرباب الوظائف وباقي الرعية، ويقيم فيها ثلاثة أيام ثم يغادرها متجهاً إلى نيابة دمشق[٥]، وقبل وصوله النيابة يلتقي مع نائب دمشق والأمراء والقضاة في قلنسوة، فيلبس الكلوتات والقماش ويُفرش له البساط ويوضع كرسي من فولاذ أُعدّ خصيصاً لجلوسه، ثم يسمح للنائب ومن معه بالدخول عليه حسب ترتيب معين،

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٤، ٤٩، ٥٦، ٥٨، ٧٤، ١١٢، ١٤٢، ١٦٣، ١٥٤، ٢١٠، ٢٩٢، ٣٣٢، ٣٧١، ٤٠٣، ٤٥٩

(٢) المقصود بـــ دق الطبلخاناة، أي الطبول المتعددة من أبواق وزمر بالقلعة، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٨

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٤٥، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٨، المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص٣٢٦-٣٢٧، ابن اياس، بدائع، ج٥، ص٣٣، ٣٧

(٤) الطلب: فريق من المقاتلين يتكون من خمسمائة فارس، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤١٩، ابن اجا، تاريخ الأمير يشبك، ص١٧٤

(٥) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص٣٢٦، ابن الجيعان، القول المستطرف، ص٥٠، العليمي، الأنس، ج٢، ص٣١٤، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص١٤٧

وعند دخولهم يعمدون إلى تقبيل الأرض بين يديه والسلام عليه وهو جالس على الكرسي[١]، وعندما يأتي دور القضاة في الدخول يقف منتصباً نصف انتصاب، بينما ينتصب قائماً عندما يدخل نائب دمشق فيسلم عليه ويشكره على المجيء لاستقباله، ثم يأمر بفرس فيُؤتى بها فتوضع قرب بساطه فيركبها النائب ويسير الاثنان نحو القابون، ومن ثم يذهب كل منهما إلى مخيمه. وبعدها يمد سماط سلطاني عظيم من الطعام والشراب للضيوف، ثم ينعم بفرسين بكنبوشين للنائب وخلعة، كما يلبس خلعاً أخرى لنائب غزة والقضاة الشاميين الأربعة، ويتوجه الجميع إلى مخيماتهم[٢].

وكانت تصل الأخبار السعيدة بما حصل مع النائب والقضاة إلى دمشق فتُدق الطبلخاناة في دار السعادة فرحاً ثم تُزيّن دمشق ابتهاجاً بقدوم النائب والأمراء والقضاة، وكانوا يدخلونها وهم يرتدون الخلع السلطانية.

ويجتهد النائب حينها في تهيئة سبل الراحة وأسباب الملك للسلطان، أما الأمراء فيبدأ وصولهم تباعاً مع طلبهم إلى المصطبة عند القابون ثم ينتقلون منها إلى قبة يلبغا ويكون النائب قد سبقهم إليها، ويصل السلطان إلى القبة فيستقبله النائب، ثم يمد سماطاً بين يديه فيلبسه خلعة للمرة الثانية، كما يلبس خلعاً لسبعة أمراء معه ويبقى مقيماً في القبة، فيهرع الأمراء والقضاة والمشايخ للسلام عليه. ويستأذن النائب وقتها السلطان في الرجوع إلى دمشق فيُأذن له فيدخلها في أبهة زائدة، ثم يشرع في إعداد ما يليق بمقام السلطان من حفاوة وتكريم، ويغادر السلطان القبة ماراً بالمصطبة عند القابون الفوقاني خارج دمشق من جهة الشرق في موكب عظيم لم يُر مثله فيدخل دمشق[٣] وعن يمينه نائب دمشق حاملاً القبة والطير (الجتر)[٤] فوق رأس السلطان وأمامه الغاشية[٥] ووراءهم الصنجق[٦] السلطاني وأمامهم الخليفة وقضاة مصر ونوابها وقضاة وأمراء دمشق وأرباب الوظائف ومشايخ الصوفية وأمير التركمان[٧]. ويتقدم الجميع محفتان[٨]

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٦٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٤
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٤- ٣٢٥
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٥
(٤) القبة والطير: من رسوم السلطنة المملوكية، أُخذت من الدولة الفاطمية، وتُدعى أيضاً بالمِظَلة، وهي قبة من حرير مزركش بالذهب فوقها طائر من فضة مطلي بالذهب، وتحمل هذه على رأس السلطان في العيدين وفي المناسبات الهامة، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٧- ٨
(٥) الغاشية: وهي من رسوم السلطنة المملوكية خاصة، عبارة عن غاشية سرج من أديم محزوزة بالذهب يخيل يخيل للناظر أنها مصنوعة من الذهب، تُحمل بين يدي السلطان عند الركوب في مواكب حفلات الميادين والأعياد وغيرها، المصدر السابق، ص٢٧
(٦) الصنجق: هي رايات صفر صغار، أُخذت من الدولة الزنكية، المصدر السابق، ص٧- ٨
(٧) ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٧٦٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٥- ٣٢٦
(٨) المقصود بغلان مزينان قريبان في السن عليهما قباءان أصفران من حرير، للمزيد انظر القلقشندي، صبح، ج٤، ص٨

على بغال واحدة للسلطان والثانية لابنه إذا كان معه، كما كان يرافق ذلك مائة من الخيل ومائة من الهجن الملبسة والتي كُتب عليها اسم السلطان ويسبقها كرسي الملك المرصع بالدرر والجواهر والمحمول على بغل مع ثلاثة بغال أخرى معه، ويتوسط الركـــب ثلاثة أولاد صغار – منشدين – وقدامهم أربعة أفراد راكبين، خلف كل واحد فهد، والطبول والزمر وخيل السباق والبارودية أمامهم(١).

وعندما كان يمرّ الموكب السلطاني بأحياء دمشق يتلقاه الأهالي ومعهم اليهود والفرنج الأجانب وقناصلهم بالفرح والسرور، حيث كانو يعبّرون عن فرحهم بنثر الدراهم، ولما يصل موكبه قلعة دمشق يفرشون شققاً من الحرير أو قطعاً من الجوخ تحت حوافر جواده، ويعقب ذلك تهافت الناس على الدراهم والشقق بالنهب(٢)، وكانت توقد الشموع وتزغلط النساء حوله وقدامه، وقدامه، وتعلو أصوات الأغاني فيرقص الناس فرحاً ويدعون له، إلى أن يصل محل إقامته في القلعة، في حين يقيم ضيوفه ومرافقيه في القصر والميدان(٣).

وفي اليوم التالي، والذي يكون عادة يوم الجمعة، كان يسير السلطان إلى الجامع الأموي للصلاة في المقصورة مرتدياً الكلوتة، فيخطب قاضي قضاة الشافعية المصري خطبة الجمعة، وبعدها يصلي بالناس فيكبّر خلفه مؤذنو السلطان ثم يسبحون الله فيقوم الصبيان الذين كانوا مع السلطان في بداية سير موكبه بالإنشاد بأصواتهم العذبة الشجية وسط حضور جم غفير من الناس جاءوا للتمتع بالمشاهدة.

بعد وقت قصير أي يوم الأحد، يُرسل النائب تقدمته للسلطان فيخلع عليه، كما يرسل مقدم العشير تقدمة أخرى، وكذلك يبعث قنصل الفرنج وجماعته بهداياهم. ويرحل السلطان عن المصطبة بعد سبعة أيام فتُزال الزينة من دمشق(٤).

وقد يتجه إلى حماة ومنها إلى حلب، غير أنه لا يدخل حماة بأبهة السلطنة لما عُرف من قواعد الملوك من أن البلاد التي يدخلها بأبهة السلطنة هي دمشق وحلب ومصر، اما باقي البلاد فكان يدخلها على عادة سفره، إلا الملك المؤيد شيخ فإنه سافر إلى حماة فدخلها بالموكب السلطاني(٥). ولما يدخل السلطان حلب يهرع نائبها وأرباب الوظائف فيها للتسليم عليه والترحيب والترحيب بقدومه فيخلع عليهم، ولا يألُ جهداً في تهيئة أسباب السعادة والعظمة لمقامه

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٧
(٢) المصدر السابق، ص٣٢٧- ٣٢٨
(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٦٤، المقريزي، السلوك، ج٣ق٣، ص٩٩٣
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٢٨- ٣٣
(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص١١، ابن اجا، تاريخ الأمير يشبك، ص٧٠

الشريف[١]، وعندما تنتهي مراسيم الاحتفال يغادر السلطان حلب بموكب فخم فيدخل دمشق ثانية ويُستقبل فيها بنفس الحفاوة عند دخوله الأول، ثم يخرج منها إلى مصر عائداً، بعد أن يكون قبل وصوله لها قد عرج على بيت المقدس والخليل زائراً[٢]. ولما كان يصل إلى القاهرة سالماً مع أمرائه تُضرب البشائر في القلعة في بداية الساعة السادسة، ثم على أبواب الأمراء ثلاثة أيام وتُزيَّن البلد أسبوعاً[٣].

ب- عادات خاصة بالنواب

حكم نيابة دمشق في دولة المماليك ثمانية وسبعون نائباً[٤]، منهم سبعة وأربعون نائباً في دولة الجراكسة[٥]، أولهم الأمير سِيف الدين بيدمر الخوارزمي[٦] وآخرهم سيباي بن بختجا[٧]، وقد اختلفت مدة نيابة كل نائب، فبعضهم تولى دون الشهرين كسيف الدين اشقتمر[٨]، وبعضهم دام في النيابة سبع سنين كتنم الحسني[٩]، ومنهم من عُزل قبل أن يدخل دمشق كسودون العجمي[١٠]، ومن النواب من تقلد النيابة أكثر من مرة كالأمير علاء الدين الطنبغا الذي تولى نيابة دمشق مرتان سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٦م) و(٧٩٣هـ/١٣٩٠م)، والأمير شرف الدين شيخ ثلاث مرات (٨٠٥هـ/١٤٠٧م) و(٨٠٨هـ/١٤٠٦م) و(٨٠٩هـ/١٤٠٧م)[١١] والأمير سيف الدين بيدمر ست مرات[١٢] ويبدو من خلال تتبع سيرهم أن معظمهم قد تدرج في المناصب العسكرية والرتب المرموقة قبل تولي نيابة دمشق[١٣].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٥٥

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٩١ ، المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص١٦٤، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٨٩

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٣٣

(٤) البصروي، تاريخ البصروي، ص ١٤، ابن طولون، إعلام، ص١٧٥.

(٥) تمت معرفة ذلك بإحصاء النواب وتعدادهم لدى ابن طولون، إعلام، ص٣٠-١٧٥

(٦) سيف الدين بيدمر الخوارزمي تولى نيابة دمشق المرة الاولى سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م)، والثانية (٧٦٣هـ/١٣٦١م)، والثالثة (٧٧٥هـ/١٣٧٢م)، والرابعة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، والخامسة والسادسة (٧٨٣هـ/١٣٨١م)، انظر صصري، الدرة، ص١٨٨ـ ١٩٠، ابن طولون، إعلام، ص٢٥-٣٠

(٧) سيباي بن بختجا: تولى نيابة دمشق سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م)، وتوفي قتيلاً سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) على يد يد عسكر السلطان سليم الأول، ابن إياس، بدائع، ج٥، ص٦٩، ٧٧، ١٠٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٣٦

(٨) سيف الدين اشقتمر: تولى النيابة بعد سيف الدين بيدمر سنة (٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م)، وكان بطالاً في القدس القدس الشريف. انظر ابن طولون، إعلام، ص٣٠

(٩) تنم الحسني: هو الأمير تنبك الحسني الظاهري المدعو تنم الشام من أعيان الظاهر برقوق، أصبح نائباً للشام للشام بعد موت الأمير كمشبغا الأشرفي، توفي سنة (٨٠٢ هـ/ ١٣٩٧ م)، انظر ابن تغري بردي، نجوم، ج١٣، ص١٧

(١٠) سودون العجمي: عُين نائباً لدمشق سنة (٩١٠هـ /١٥٠٤م)، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٢١، البصروي، تاريخ، ص١٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٢، ٢٣١

(١١) ابن طولون، إعلام، ص٣٠ – ٣٢، ٣٤ – ٣٦

(١٢) ابن صصري، الدرة، ص١٩٠. ابن طولون، إعلام، ص٢٥-٣٠.

(١٣) المقريزي، السلوك، ج٤، ق٣، ص١١٩٦، ابن تغري بردي، حوادث، ص٥٥١، النجوم، ج١٢، ج١٣، ص٢١، ج١٥، ص١٨٨

كان نائب دمشق يُعيَّن من قبل سلطان مصر، الذي يرسل بدوره متسلم النيابة أو الخاصكي[١] فيمهد الأمور للنائب[٢]، ومن ثم يقوم كاتب السر وناظر الجيوش أو القاضي الشافعي[٣] بقراءة التوقيع ومعهم التشريف[٤] والتقليد[٥] والخلع[٦].

كان قبول خلعة التشريف دلالة للتعبير عن الخضوع والولاء للسلطان[٧]، بينما كان رفض الخلعة يعد إساءة خطيرة تعني العصيان أو على الأقل المجاهرة بالعداء[٨]. والخلعة في حقيقتها كناية عن تثبيت نيابة النائب، في حين عدم ارسالها معناه عزله من النيابة[٩]. وقد يسبق إرسال الخلعة قدوم مبشر يخبر النائب والناس بخروج الخلعة من مصر، فيأخذ لأجل بشارته المال الكثير أو الخلع[١٠] وينادي بزينة دمشق، فتزين أسواقها وحاراتها[١١] ثم تبدأ مراسيم التقليد بأن يلبس النائب الخلعة من مصطبة القبق التي تقابل مسجد القدم قبيل مدينة دمشق حيث قبة النصر وقبة يلبغا أعظم مدخل جنوبي لدمشق أو من مصطبة السلطان في سهل القابون بين القابون وبرزة شمالي دمشق فيدخل بأبهة حافلة واستقبال من أرباب الوظائف والأتراك[١٢]، ويدور مع مرافقيه سبع دورات حول القلعة ثم يأتي إلى باب السر فيصلي ركعتين مستقبلاً القبلة، ثم يدخل إلى دار السعادة، ويتجه منها إلى دار العدل فيُقرئ تقليده[١٣]، ثم ينطلق موكبه الحافل في أنحاء دمشق وأجواء الفرح والبهجة ورائحة الزعفران تسير برفقة موكبه[١٤]، وتتقدمه

---

(١) الخاصكي: نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا خدمته صغاراً ويجعلهم حرسه الخاص، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٥، ابن طولون، إعلام، ص١٤

(٢) البصروي، تاريخ، ص١٢٣، ابن طولون، إعلام، ص٧١، ٨٣، ١٨١، ١٠٠

(٣) ابن طولون، إعلام، ص٤٦ – ٤٩، ٥٢، ٧٢، ٩٩

(٤) التشريف: هي الأوامر التي تصدر عن السلطان بمرسوم شريف وهي على طبقات وقد تمنح التشاريف في مناسبات منها: إذا ولي أميرٌ أو صاحب منصب وظيفة كبيرة، وتمنح في الأعياد كعيدي الفطر والأضحى وفي الميادين وعند دوران المحمل الشريف، وأول من قرر ذلك الناصر محمد بن قلاوون، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٥٢ – ٥٤، ابن كنان، المواكب، ق٢، ص١٥

(٥) التقليد: هو التولية أي تفويض الأمور للوظيفة التي قلد صاحبها فيها، وهو أكبر قيمة من المرسوم، ويكتب التقليد من السلطان لكفلاء الملك كأكابر النواب والوزراء ومن كان في معناهما، وقد يكون الأكابر قضاة القضاة، أما في حال تعيين ناظر فيكتب له مرسوم، ابن كنان، المواكب، ق٢، ص٨

(٦) انظر على سبيل المثال لا الحصر ابن طولون، إعلام، الصفحات ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٩٤ – ٩٥، ٩٩

(٧) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص١٧٦، ج١٣، ص٦٥، ٧٢، ابن طولون، إعلام، ص٥٤، ٨٥، ١٠٥، ماير، الملابس، ص ١١٠

(٨) ابن طولون، إعلام، ص١١٤، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٣١٨، ماير، الملابس، ص١١٠

(٩) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، دار الكتب، مصر، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٢٣١، ابن طولون، إعلام، ص١١٤

(١٠) ابن طولون، إعلام، ص٩٥، ١٠٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٢

(١١) ابن طولون، إعلام، ص٩٢، ١١٦، ١٨٢

(١٢) المصدر السابق، ص٤٤، ١١٦، ١٦٠، ١٨٥

(١٣) البدري، نزهة الأنام، ص ٢٧–٢٨، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٢، إعلام، ص٥٤، العلبي، دمشق، ص٥٤ –٥٥

(١٤) ابن طولون، إعلام، ص١١٢، ١١٩، ١٢٨

الأطلاب – فرق الجيش وكتائبه – ويكون هو آخر أطلابها على خيل بكنبوش[١]، وقد أُشعلت الشموع أمامه ودقت له المغاني، والناس تنثر على رأسه الفضة والدراهم[٢] والنساء تزغلط[٣].

كان من عادة نائب دمشق أن يزور السلطان في مصر مرة في السنة، فيحط ترحاله في غزة ثم يبعث مملوكاً من مماليكه ليخبره بمقدمه ويأخذ إذنه بالحضور، ولمّا يؤذن له يتوجه إلى مصر[٤]. وقد يطلب السلطان من نائب دمشق أن يُطلعه بحقيقة بعض الأمور التي تنامت إلى مسامعه عن تقصير بعض الأمراء، فيلبي النائب أمره ويسافر إلى مصر بالمحاضر، فيصل قبلها إلى سرياقوس شمال القاهرة، فيقبل عليه السلطان ويعظمه غاية التعظيم ويرسل المطابخ له، كما يتلقاه أكابر الدولة[٥].

وفي حالة تعيين أحد الأمراء نائباً للشام من مصر، كان يتوجه الأمير ومعه الأعيان إلى منزل أحد أرباب الوظائف كالدوادار فيحلّفونه على المصحف الشريف أمام الخليفة والقضاة الأربعة بأن لا يعصِ السلطان ولا يخونه، فيحلف ويكتبون صورة الحلف وشهادتهم عليها، ثم يخلع عليه السلطان بعد ذلك فينزل إلى قلعة الجبل في موكب حافل، ثم يسير إلى نيابة دمشق، ولما يبلغ الرملة يرسل مبشّراً بوصوله إليها فيتهيأ أهل الولايات الدمشقية بتلقيه بالفواكه والحلاوات والمعمول وغيرها. وأحياناً ينطلق المبشّر من مصر إلى نيابة دمشق مخبراً الأهالي بخروج خلعة النائب فيتلقّى المال نظير ذلك، وتُدق البشائر فرحاً[٦].

ويظهر أن خروج الخلعة من مصر ودق البشائر بمجرد خروجها لم يكن يروق للبعض مثل ابن طولون، فقد ذكر في سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) أن بشائر دمشق دُقت لما قيل أن السلطان قد عيّن لنائب الشام خلعة، فقال "وهو عجيب لكونه بمجرد التعيين تُدق البشائر، فقد يبدو للسلطان رأي آخر، وقد تصل الخلعة وقد لا تصل"[٧]. وحدث فعلاً أن تأخرت خلعة أحد النواب سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م)، وبقي ينتظر قدومها مدة في مصطبة القبق مدخل دمشق الجنوبي قرب قرية القدم، فاستماله القضاة والأمراء لدخول دمشق بدونها فأذعن لرأيهم غير أنه دخل بلا طلب

---

(١) كنبوش جمعها كنابيش، وهو طرف الحل للدابة وكان يزخرف بالذهب أو البرذعة تجعل تحت سرج الفرس، الفرس، ويجعل فوقها الغاشية، وهو غطاء مزركش يوضع فوق البرذعة، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٧٠ابن طولون، إعلام، ص٧٩

(٢) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٨٧، م٢، ص٢١٨

(٣) ابن صصري، الدرة، ص٢٥، ٦٨، ١٣٣

(٤) اليوسفي، نزهة، ص٦٥، ابن طولون، إعلام، ص١٩٤

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٠٢، ابن طولون، إعلام، ص٦٠.

(٦) ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٨٩، ابن طولون، إعلام، ص١٣٠، ١٤١، ١٩٥

(٧) ابن طولون، إعلام، ص٧٧

ولا تشريف ولا تقليد من السلطان المملوكي. ولما وصلت الخلعة لبسها من قبة يلبغا كالعادة، ودخل هذه المرة دمشق بأبهة حافلة وبرفقة أرباب الوظائف والأمراء[١].

ودخل بعض النواب بأطلابهم دمشق كهيئة السلاطين وعلى يمينهم نوّاب حلب، فأوقدت لهم الشموع ودُقّت الطبول وغنت المغاني ونثرت على رؤوسهم الفضة، وحينما اقتربت مواكبهم من القلعة داروا حولها سبع مرات، ثم دخلوها من جسر الحديد إلى باب السر فصلّوا على الجسر ركعتين ثم توجهوا بعدها إلى دار السعادة لتُقرأ تقاليدهم من قبل كاتب السر.

وعندما كانوا يستقرون في دار السعادة يقبل عليهم الأمراء والأعيان بالتهنئة وتقديم الهدايا[٢]، كما يحضر عندهم القضاة للمباركة وتقديم الهدايا وللحصول على الخلع التي دأب كل نائب جديد تقديمها لهم بعد تقليده، وبعض النواب يعلن بمرسوم أمام الناس إبطال المظالم والرميات[٣]. ولما يحين موعد الصلاة يتوجه النائب إلى الجامع الاموي فيحتفل به أهل البريد ويوقدون له شموعهم، ويصلي في المقصورة على يمين المنبر خلافاً للعادة، لأن المقصورة معدة فقط لصلاة السلاطين، وقد قام بعض النواب بالصلاة فيها تلبية لأمر القاضي الشافعي حتى يسمع النائب خطبته. والمتعارف عليه أن النواب يصلّون بالشباك الكمالي بالجامع الأموي[٤]. لم تكن هذه هي مواكب النواب فقط، فقد وُجد بجانبها المواكب الأسبوعية حيث ذكر القلقشندي أن النائب كان يركب مع العساكر والأمراء ومقدمي الحلقة وأجنادها في يومي الاثنين والخميس بموكب وأبهة بينما يركب يوم السبت مجرداً من دار العدل والسماط، وكان يخرج إلى سوق الخيل تحت القلعة ولا يتعداه، ثم أصبح يخرج إلى ميدان ابن أتابك أو إلى قبة يلبغا أو إلى المزة غربي دمشق أو إلى القابون شمالي دمشق. ويستمرون بالسير حتى ارتفاع النهار، فيترجل المماليك عن الخيل ثم يعودون إلى باب الحديد في القلعة فيترجل الأمراء ثم يصلون إلى دار السعادة، ويبقى النائب راكباً إلى أن ينتهي إلى قاعة عظيمة فيها كرسي خشب مُغشّى بالحرير وعليه سيف فيجلس عليه النائب. ويجلس بقربه القضاة وكاتب السر وكتّاب الدست[٥] والوزير وناظر الجيش

---

(١) البصروي، تاريخ، ص٢٣٩– ٢٤٠، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٠– ١٧١، إعلام، ص٩٤–٩٥، ١٦٠، العلبي، دمشق، ص٥٤.

(٢) ابن صصري، الدرة، ص٦٨، ١٣٣، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٨٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٢، إعلام، ص٤٦ــ٤٧، ٥٦، ٧٩، ٨٦، ١٠١، ١٦٩

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٢، إعلام، ص١٢٤، ١٦٩

(٤) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٨٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢٦، ١٣٧، ١٨١، إعلام، ص١٨٢، ١٩٥، ١٩٧

(٥) كتاب الدست: هم الذين يجلسون مع كاتب السر في دار العدل ويقرءون القصص على السلطان ويوقعون عليها بأمره. القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٠.

وأتابك العساكر والأمراء ومقدمي الحلقة وأجنادها ومماليك النائب والحجّاب ونقباء الجيش[١]، فتُقرأ القصص وبعدها ينصرف القضاة وكاتب السر والوزير وناظر الجيش وأرباب الأقلام، ويمد السماط فيأكل الحضور، وبعد انتهائهم منه يُرفع، فتُقدّم المحاكمات للنائب فيفصل فيها ثم يتحدث ناظر الجيش بأمور الجيش والإقطاعات، وبعدها يقوم النائب من مجلسه، وينصرف من كان معه[٢].

وكان للنائب مواكب أخرى كمواكب استقبال نظائره من النواب، فقد دخل نائب غزة دمشق سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م) ونزل في الميدان الأخضر فاستقبله نائب دمشق مع جيشه من باب دار السعادة إلى جسر الزلابية، ثم خرج النائب مع أولاده راكبين الخيول يتقدمهم طلب دوادار السلطان والحاجب الثاني وبينهم المشاة[٣].

وقد تُدقّ البشائر وتُزيّن دمشق بدون مواكب كما حدث في عدة مناسبات منها تعيين سلطان جديد ومبايعة آخر وشفاء ثالث من مرضه والانتصار على عسكر ابن عثمان، وعودة النواب إلى كفالاتهم وشفاء نائب ومجيء ولد للسلطان ومجيء خلعة للنائب، وعودة نائب من سفره، وخروج نائب دمشق من مصر، وانتصاره على العرب، واستمراره في النيابة، ودخول أرباب الوظائف كالخازندار والقضاة إلى دمشق[٤].

كما كانت تُدقّ البشائر وتزيّن القلعة دون أن يُعلن السبب الموجب لذلك[٥]. وقد اعتبر البعض ذلك قلة عقل وطيش، من ذلك تزيين دمشق زينة عظيمة لأجل الانتصار على ابن عثمان سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) بأمر دوادار النائب، فعيب هذا عليه، وقيل في شأنه "زُيّنت دمشق بأمر دوادار النائب وهو خفة عقل، وكان القياس الحسن أن يأمر باجتماع أهل الخير والعلماء بالجامع، وأن يقرءوا الأنعام ويختموا البخاري، ويدعون للسلطان وللعسكر بالنصر والتأييد في هذا العُشر الشريف"[٦].

وكانت بعض المناسبات تحل على أهل دمشق بدون أن يحتفل الناس بقدومها، فقد حدث سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) أن لبس نائب دمشق خلعة جاءته من مصر من القبة فلم يحتفل الناس على عادتهم بها وبالنائب بسبب هطول المطر.

---

(١) نقباء الجيش: هم ثلاثة نفر، أكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء، تارةً يكون أمير طبلخاناه وفي غالب الأوقات أمير عشرة ودونه اثنان من جند الحلقة، ويكتب لكل منهما توقيع كريم من النائب على قدر رتبته، القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٨٦.

(٢) القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٩٤– ١٩٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٥

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٣

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٨، ٢٦٢، ٣٤٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٣، ١٣٥، ١٨٥، ١٨٧، ٢٢٥، ٢٥٥ ٢٧٤–٢٧٥، ٣٤٢، ٣٦٢، إعلام، ص١٧٣، ١٨٧

(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٦١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٣، إعلام، ص١٩٥

(٦) ابن طولون، مفاكهة، ص٨٣

ولكن بغض النظر عن هذه الأمور فقد كانت الزينة في دمشق تبقى سبعة أيام متتالية يتخللها سهر أرباب الأسواق وقلقهم وضجرهم في حوانيتهم، ثم مبيتهم بعيدين عن أهلهم وحريمهم، وانتشار الفساد لكثرة الخمر وبنات الخطأ (البغايا) وخروج النساء للفرجة. ويبدو أن كثرة الاحتفالات وتزيين دمشق المتكرر قد سبّبا الكثير الكثير من الضرر والأذى وبحيث جعل الناس يلجأون إلى العصيان والتمرد في إظهارهم ما يليق بالمناسبات، ولأجل ذلك نلحظ عبارات "فزُيّنت دمشق غصباً لوقوف الحال" أو "فزُيّنت دمشق جبراً مع تضجر الناس ومبيتهم"(١).

أما ثمن ومكافأة أهل دمشق على تعبهم ومعاناتهم جراء الزينة والاحتفالات فلم تكن سوى شكر النائب وثنائه عليهم أحياناً، وإشهاره المناداة بينهم "أن بيّض الله وجوهكم وأكثر خيركم، فارفعوا زينتكم"، ففي الحال تُرفع وتعود الحياة اليومية إلى سابق عهدها(٢).

جـ- الختان والطهور

-ختان المماليك

كان الختان من المناسبات الاجتماعية المشهورة التي احتُفل بها في الدولة المملوكية، ففي سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م) كان ختان ولد السلطان الناصري قايتباي المحمودي الظاهري (ت٩٠١هـ/١٤٩٦م) محمد وعمره سبع سنين وأشهر، حيث زُيّنت القاهرة وأسواقها واجتمع فيها المغنيون، والناس الذين أتوا للمشاهدة. وخُتن مع ابن السلطان أولاد الأمراء والخاصكية وكانوا زيادةً عن أربعين ولداً، وقُدم لكل صبي كسوة بحسب مكانة أبيه. وقد بدأت مراسيم الاحتفال باجتماع الأمراء وأعيان الناس بالحوش السلطاني ثم ركب ابن السلطان من قاعة البحرة وأمامه المشاة والأمراء والخاصكية وقاضي القضاة واعيان المباشرين والخدم، واتجه الموكب إلى باب الستارة، ففُرشت تحت جواد ابن السلطان الشقق الحرير ونُثر على رأسه الذهب والفضة، ثم نزل عن فرسه فدخل إلى باب البيسرية فختنه المزيّن وتلقى نظير ذلك خمسة آلاف دينار أخذ منها ألف وتقاسمها مع رؤساء المزينين. وقد استمر الاحتفال سبعة أيام متوالية نال السلطان فيها الهدايا الكثير الكثير من المال والخيل والقماش والسكر والأغنام والأبقار أي ما تقارب قيمته بخمسين ألف دينار(٣).

وتشابهت الاحتفالات التي أقامها المتنفذون من رجالات الدولة في هذه المناسبة باحتفال ختن ابن السلطان باستثناء بعض الأمور منها، أن البيوت الواقعة على طريق الاحتفال كانت تُضاء بالقناديل، حيث كان والد المختون يُرسل لهذه البيوت الزيوت والطعام الفاخر المُعد على

(١) ابن طولون، مفاكهة ، ص١١٥، ١٣٥، إعلام، ص١١٦، ١٥٢، ١٨٨
(٢) ابن طولون، إعلام، ص١١٦
(٣) ابن اياس، بدائع، ج٣، ص٢٧١- ٢٧٢، ٣٢٤، ٣٧٩، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٩

طبليات لهذه المناسبة، كما كانت تُحرق حرّاقات النفط ثلاثة أيام يتخللها غناء النساء والرجال بأصواتهم العذبة وانطلاق ألسن النساء بالزغاليط. والناس يتمتعون فرحون بالفرجة، وزاد من سرورهم تناول الطعام والحلويات الني كانوا يشترونها من الباعة(١).

لم تختلف احتفالات الدمشقيين في المناسبة المذكورة عن المصريين إلا ببعض الأمور البسيطة، فقد تم في سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) ختن ابن النائب سيف الدين تنبك الحسني فجُهّز مأدبة عظيمة دعيت "إعذاراً" بالميدان عند القصر، فنُصب خيمة كبيرة جدا، وطُبخت هناك أطعمة فاخرة ثم مُدّ سماطٌ داخل الخيمة وُضع عليه الطعام مع الأواني امتد من المدرسة الأسدية الواقعة بالشرف القبلي ظاهر دمشق إلى قريب باب الميدان الأوسط، ثم أُذن للناس رجالاً ونساءً بتناول الطعام فتزاحم الجميع عليه وخطفوه خطفاً فانكسرت غالب الأواني. وعُمل أحد عشر حوضاً ملئت بالماء وألواح من السكر، وسُقي الحاضرون منها واندفع غيرهم نحوها حتى قلبت وتغير ما فيها، ثم أمر النائب بخيول مسرجة مذهّبة فأُركبت لمن حضر من الأمراء الكبار ثم جيء بولد النائب إلى الخيمة فخرج الأمراء راكبين خيولهم والنائب وابنه خلفهم، والأغاني تزفه فلما وصل دار السعادة خُتن(٢). وتم سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) ختن النائب أركماس لابنه البالغ نحو العشر سنوات وابن ابنته البالغ سبع سنين وأُعلن ختانهما في دمشق ففرح الناس بهما(٣).

- **ختان العامة**

كان هناك حفلات أخرى للختان أقامها أهل دمشق ومنها ما كان خاصا بالأيتام، فقد حدث سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م) أن خُتن مائة وأربعون ولدٌ في المدرسة البادرائية برعاية عدد من الشيوخ وحضور جمع غفير من الناس وطُبخ لهم حينها في جنينة البادرائية(٤) مشمشية(٥) وأرز وأرز حلو، وسُقوا أقسُماً(٦) وسكراً وسُويقاً ثم دخلوا الحمّام وأكلوا وشربوا وزُفوا ثم خُتنوا. وتم

---

(١) ابن اياس، بدائع، ج٣، ص١٨٦

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٧٠، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٨-٢٩. ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٥، وإعلام، ص٣٣.

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٣، للمزيد انظر: ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٨-٢٩، النعيمي، الدارس، ج١، ص١٥٢،

(٤) البادرائية: تقع داخل الفراديس والسلامة شمالي جيرون وشرقي الناصرية الجوانية، سميت بهذا الاسم نسبة لمنشئها نجم الدين أبو محمد عبد الله بن عثمان البادرائي (ت٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، وكانت مخصصة لتدريس المذهب الشافعي، النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٠٥

(٥) المشمشية: كبة مطبوخة بلبن وفول وسلق ولحم مسلوق، كببها صغار بحجم ثمرة المشمش، يوضع فيها الطرخون، وما تزال تُطبخ بدمشق، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٦١

(٦) الأقسِما: نقيع الزبيب معروف بهذا الاسم، يُعتقد أنه معرب أبسما، عرّبه المولدون والصحيح أنه معرب عند الرومية، وهو شراب يُتخذ من مزيج العسل والخل والماء، الظاهري، زبدة، ص١٢٥، ابن المبرد، نزهة، مجلة المشرق، السنة ٣٧، ١٩٣٩، ص٢٧

في سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) طهور مائة وستين يتيماً كذلك، حيث تغذوا سمبوسك[١] ثم دخلوا الحمّام وركبوا بعد الظهر من المدرسة القيمرية وحولهم الطبول والمزامير والأعلام ثم داروا حول البلد وخرجوا من باب الجابية ثم دخلوا الباب الصغير حتى وصلوا المدرسة البادرائية فطُهّروا بها وأكلوا هريسة وحامض بدبق وأرزاً حلواً وشربوا أقسُماً وسكراً، وبقوا يحتفلون إلى بعد العصر ثم انصرفوا قبل مغيب الشمس بقليل[٢]. وأما عامة أهل دمشق فقد احتفلوا بختان أولادهم بحضور القضاة الأربعة والشيوخ وجموع غفيرة من الناس، وأحرقوا باروداً كثيراً، وكانوا قبل الختان ينقشون على أيدي أولادهم، ويبدو أن الأداة المستخدمة في النقش لم تكن متوفرة عند الجميع مما ألجأ أهل المختون إلى استعارتها ممن يعرفونهم. ومن عاداتهم إقامة وليمة الطهور للرجال في اليوم الأول وللنساء في اليوم الثاني، وكانوا يتلقون النقوط من المباركين بعد الختن ويقرأون القرآن الكريم وينشدون الأناشيد. وكان بعض الضيوف بعد تناول الطعام والذي يكون أحياناً شواء ولبن ومأمونية وشراب سكر وأقسُما يبقون في بيت المختون لليوم التالي[٣]. وكانت تُقام للمختون إذا كان ابن أحد الزعران زفة بطبول ومزامير وأغاني يشترك فيها الشباب من جميع حارات دمشق وضواحيها كالشاغور والقبيبات وكفر سوسية والمزة والقابون وبرزه وحرستا، فيجتمعون في الصالحية بأسلحتهم الكاملة وأقمشتهم الفاخرة مع خيول تم استعارتها من حكامهم، فيدورون من الصالحية إلى نواحي دمشق بدءاً من باب الجابية فالشاغور ثم الشيخ رسلان فالسبعة فمسجد القصب ثم حارة المزابل، وفي هذا المكان كان يحدث ما لم يكن في الحسبان حيث يتعارك أهل المزابل مع شباب الزفة بسبب العداوة القديمة لكون شباب الزفة من القيسية وأهل حارة المزابل يمنية، فيُجرح بعض الناس ويهدأ العراك ثم يتلاشى بتدخل نائب الغيبة، ويعود أهل الصالحية إلى محلتهم[٤].

من الملاحظ أن حفلات الختان كانت مكلفة بعض الشيء، وقد حاول الدمشقيون الحد من ذلك بختان مجموعة من الأولاد في وقت واحد، وقام آخرون بختان أولادهم سراً للهروب من تكاليف هذه المناسبة. وكان النصارى يُختتون عند اسلامهم، فقد حدث سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) أن أسلم افرنجي، ثم أُخذ إلى أحد الشيوخ وخُتن[٥].

---

(١) سمبوسك: فطيرة ذات ثلاث زوايا تصنع من رقائق العجين المعجون بالسمن وتحشى بقطع اللحم والجوز معرب سمبوسة، د. غنام، رياض، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية الدخيلة، ط١، بيسان للنشر، بيروت – لبنان، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص١٨٩.

(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ١٥٨، ٢٤٨، النعيمي، الدارس، ج١، ص٤٤١، ج٢، ص١١٤

(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٠، ١٥٤، ٢٤٦، ٣٦٢- ٣٦٣

(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٤٠٠

(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٣، ٤٨٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٥، المحبي، خلاصة، ج٤، ص٣٩١.

د- المآتم والجنائز

اعتاد الدمشقيون عند وفاة أحد منهم المناداة في المدينة وإخبار الجميع باسمه ومكان الدفن ووقته ووقت الصلاة والعزاء[١]. وكان هناك مجموعة من الناس مهنتهم غسل الموتى وتكفينهم بمال، ولا يتم الغسل إلا بموافقة الدولة وتحت إشرافها في بعض الحالات، والدليل على هذا ما حدث سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م) فقد شنق رجل كان يبيع الصابون نفسه في بيته لأجل طرح الصابون بواسطة حبل فمات، فانطلقت زوجته إلى والده فأخبرته بالحادثة فأتى إليه وأنزله وغطاه ثم ذهب إلى المغسل لغسله، فلما رأى المغسل آثار الخنق بادية عليه امتنع من تغسيله وقال: لا أغسله حتى تنظر فيه الحكام، ولم يغسله إلا بعد أن دفع والده للنائب مائة دينار وللدوادار خمسة وعشرين[٢].

كان غسل الميت يتم إما في المغسل أو في مسكن المتوفى أو في أحد المدارس[٣]، غير أن بعض الفئات لم تراعي هذه الأمور، فقد توفي سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) العواني الرافضي[٤] شهاب الدين أحمد بن صبح فغُسّل في الخلاء، وعندما توفي ابن أخي أم النائب قانصوه البرجي المحمدي سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م)، الذي تعدّى على مال عرب بني صخر فقتلوه، دُفن من غير غسل ولا صلاة، وكذلك زوجة أحمد بن الحرامي البيطار سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) حيث استحل منها زوجها ما حرمه الله، فأخرجها بدون غسل وكفن، ثم قام بدفنها ولم يعلم بموتها أحد[٥]. وعندما ينتهي الغسل يُكفّن الميت ثم يُحمل إلى الجامع للصلاة عليه[٦]. ولأهل دمشق تقاليد في اتباع الجنائز، فهم يمشون أمام الجنازة ومعهم حفظة القرآن يقرأونه بأصواتهم العذبة وتلاحينهم المبكية حتى يصلون بالجنازة إلى المسجد الجامع قبالة المقصورة، فإذا كان الميت أحد أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وإن كان من غيرهم توقفوا عن القراءة عند باب المسجد وأدخلو الجنازة، وبعض الناس يجلس غرب الصحن قرب باب البريد يقرأ ربعات القرآن ويدعو لمن يتقدم من كبار البلد وأعيانها بالعزاء. وبعد الانتهاء من القراءة يأمر المؤذنون الناس بالصلاة على الميت، بعد أن يكونوا قدموا لهم موعظة تتعلق بالموت، وذكروا صفات الميت الحسنة. وفور الانتهاء من الصلاة يُحمل الميت ليُدفن في

---

(١) ابن صصري، الدرة، ص٢٣٤، علي كرد، محمد، خطط، ج٥، ص٢٧٦، الطراونة، الحياة، ص٣٤٣
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٠
(٣) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٥٣، ابن طولون، مفاكهة، ص١٩، ١٨٨، ٢٢٦، ٣١٣
(٤) الرافضي: من خرج عن الاسلام بكفر كأن يتعرض لله ولرسوله وللصحابة مثل أبي بكر وعمر وكذلك عائشة زوجة الرسول رضي الله عنها، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٥٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٤، ١٩٨
(٥) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣١٠، ابن طولون، مفاكهة، ص ٢١٠، ٢١٤، ٣١٦
(٦) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٣٤ـ ٢٣٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٨، ١٥٢، ٢٠٢، ٣١٣، ٣٦٨

المقابر[١]، فإذا كان الميت من الأكابر أو من علية القوم أو الصالحين خرج في جنازته الحمالون والقضاة والعلماء وأرباب الدولة والنساء وخلق لا تُحصى، أما إذا كان سيء الخلق فيخرج في جنازته الحمّالين فقط، وربما يتعرض نعشه للرجم من قبل العوام.

وفي بيت الميت كانت تتم بعض العادات التي نهى عنها الشرع الشريف وأنكرها العلماء[٢]، فقد مارست بعض النساء حرفة اللطامة والنياحة، فكانت اللطّمات وعددهن من أربع إلى عشر نساء يلبسن الثياب السود ويسخّمن وجوههن وأيديهن بالفحم ويحللن شعورهن على أكتافهن ثم يدرن حول البيت ويقدن أهل الميت بالولاويل والصراخ والبكاء والنحيب والندب، وخلال ذلك يقمن بتعداد صفات الميت ومحاسنه بمساعدة أهله، ويبقين على هذا النسق حتى يُخرج الميت من الدار[٣]. وبعضهن خرجن مع جنازة الميت إلى المقابر على كيفية لا ترضي الله – سافرات –، وقد أشار ابن طوق في تعليقه سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) إلى ما قامت به النساء في بيت العزاء عندما توفيت بدرية بنت المرحوم الصارم ابن منجك بعد إجهاضها بنتاً فقال "وعملوا بيت ابن منجك في العزا المناكير ما لايحل ولا يجوز، ذُكر أنه جُعل للميتة منصة وألبسوها، وأتوا بمغاني ومواصيل – التي تتولى تزيين العروس– ولبسوا المسوح، إلى غير ذلك من المحاربة، إنا لله وإنا إليه راجعون"[٤]. وقد لجأ كثير من الناس إلى دعوة فقراء الزوايا ومجاوري الترب والمدارس للحضور إلى منازلهم عند فقدهم عزيز للتبرك بهم وقراءة الختم، وصنعوا لهم طعاماً وقبل تناوله تظاهروا بقراءة الختم وإهدائه للميت، والحقيقة أنهم لم يكونوا قد قرأوا إلا ثمن القرآن أو سورة الإخلاص ثلاث مرات، ولما انتهوا من هذه الأكاذيب قُدم لهم السماط فأكلوا منه كأكل الأطفال الجياع وبعضهم لم يكتفِ بالأكل بل حمل معه وعاء غرف منه ما أراد من الأطعمة أو وضعه في كمه[٥].

ومن المتعارف لدى قسم منهم "الصُبحة" وتسمى الآن "الصُبحية"، حيث كان يخرج أهل الميت في اليوم التالي من وفاته عقب صلاة الفجر إلى المقبرة ومعهم قارئ ويجلسون حول القبر أو تحت سقيفة المقبرة أو يضعون خيمة على القبر فيقرأون القرآن. وقد تقام مراسم الصّبحة في بيت الميت بين صلاتي المغرب والعشاء، وأحياناً كانوا يعقدون اجتماعاً في المسجد للاتفاق على

---

(١) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٩٨

(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٧٧، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٢٧، ٢٩٥، ٣١٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٦

(٣) ابن طولون، فص، ص٥٥

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٥٥، ٢٥٩، ٥٠٢، للمزيد انظر، المحبي، خلاصة، ج٣، ص٣٨٧، ظافر القاسمي، المظاهر الاجتماعية في قاموس الصناعات الشامية، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج١، جامعة دمشق، ١٩٣٩ م، ص١٥٩ –١٦٠

(٥) ابن طولون، فص، ص٥٦– ٥٧

الخروج أو عدمه بعد صلاة الفجر، وخلال الاجتماع يُقدم الماء والسكر للحضور، فإذا قرر أهل الميت عدم الخروج نادى منادي في المشاركين بعدم الخروج[١].

وإذا كان الميت من علية القوم حدث تغيير في بعض عاداتهم، ومن ذلك ما تم سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) عندما توفيت زوجة ملك الأمراء نائب الشام أقباي المؤيدي (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م) ومستولدة السلطان الملك المؤيد شيخ وأم ولده الأمير ابراهيم (ت٨٢٣هـ/١٤٢٠م) فحضر جنازتها القضاة والأمراء، وبطل عمل القضاة وحكمهم بسببها، وعندما زار ابنها ابراهيم دمشق سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) توجه إلى قبرها وعمل هناك ختمة حضرها القضاة والقرّاء، ثم وقف على التربة التي فيها قبرها وقفاً ورتب بها أربعة مقرئين[٢]، وما تم سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) عندما توفي ابن النائب قانصوه البرجي المحمدي مطعوناً فأُخرج من باب العمارة بالاصطبل وصلى عليه بباب دار السعادة، ثم ذهبوا به إلى باب الجابية فالشاغور ثم إلى تربة النائب، وكان يرافق الجنازة حمّالون وضعوا فوق رؤوسهم خبزاً وزبيباً وملحاً، فقام الناس بخطفها جميعها، ونادى النائب بإبطال المحرمات على باب البريد وفي أطراف الطرقات وأُغلقت الأسواق، وفي سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) توفيت ابنة النائب سيباي فقفلت الأسواق ثلاثة أيام. كما قام بعضهم بتفريق الدراهم الكثيرة على القائمين في الترب أو المقابر وخصصوا غيرها للقرّاء الذين يتلون القرآن عند قبرها سبعة أيام[٣].

كان الميت من أهل دمشق يُدفن في تربته كما يُدفن فيها الميتون من العائلة، أو في مقابر دمشق المختلفة كالمقبرة الصوفية ومقبرة باب الصغير والفراديس وغيرها. وكانت قبور المماليك بشكل عام مستطيلة الشكل مبنية من الحجارة ومزينة بآية الكرسي المكتوبة بخط الثلث الكبير، وربما وُضع لأحدهم على قبره علامة دلالة على أنه مبارك كما حدث للأبله ابن الخطاب الشويكي سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م)[٤].

وقد يترك الميت وصية يشير فيها إلى دفنه في غير موطنه، فقد أوصى الأمير علاء الدين علي ابن نائب قلعة الصبيبة سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) أن يُنقل إلى تربة بالقدس، لكن تم دفنه بالقبيبات في دمشق، وتوفي جانم الأمير الكبير في الشام سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، وكانت وصيته أن يُدفن في القاهرة بجانب أستاذه، فوُضع في سحلية ــ النعش- ودُفن لحين موافقة

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٠، ج٢، ص٨٧٥، ج٣، ص١٤٨٣، ١٤٩٧، ١٥٠٥.

(٢) النعيمي، الدارس، ج١، م٢، ص٢٥، ٢٨٨، وانظر أيضاً عن المقرئين على الترب، ص٢٥٨، ابن طولون، إعلام، ص٤٠

(٣) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٥٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٢١٩، ٣٧١

(٤) ابن المبرد، ثمار، ص١٩٩، ٢٢٢، ٢٩٢، النعيمي، الدارس، م٢، ص٢٢٦، ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٥٧، ٢٨٨، ٥٥٠- ٥٥١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٥٧

السلطان على نقله للقاهرة. وربما تُنقل جثة من مكان لتوضع في مكان آخر دون وصية، رغم فتوى العلماء بعدم جواز ذلك[١].

من جانب آخر فقد عانى الدمشقيون من موظفي ديوات المواريث الحشرية وهم الذين يُنتدبون من قبل الديوان في دمشق، ويحضرون إلى منزل المتوفى الذي لا وارث له أو له وارث لا يستطيع الوصول إلى ميراثه، إلى غير ذلك من المهام[٢]. ولقد أصبحت أموال المواريث بدءاً من سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦م) تُرد إلى ديوان السلطان وكانت سابقاً ترجع إلى ديوان النائب[٣].

لقد تطاول المماليك في عملهم في الديوان حيث صاروا يشاركون الورثة، ويصادرون التركة كلها لا سيما إذا كان المتوفى من رجال الدولة، فقد تأخر دفن الخاتون بنت الصارم المتوفاة سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) حتى يحسم موظفو الديوان أمرها على الرغم من أنها تركت بنتاً. كما تم بيع تركة قضاة بنت بدر الدين سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) من قبل موظفي الديوان بالظلم والقوة، ولم يلتفتوا لحضور عصبتها – قرابتها – ولوجود نائب القلعة والخازندار وشهود القضاة، والظاهر "أن الكل متفقون" فلا حول ولا قوة إلا بالله[٤].

والغريب في الأمر أن موظفي الديوان كانوا يحضرون أحياناً إلى منزل الشخص وهو حي لمجرد سماعهم خبر موته من الناس أو مرضه أو نزاعه، ومن ذلك ما تم سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) لما أُشيع وفاة المعلم محمد بن سليمان القابوني وبيده بعض وظائف، فأُخذت منه وتجهز الموظفون ليرثوه مع جماعة نائب القلعة والاستاددار وكان حياً، ثم توفي وترك أختاً[٥].

هـ- تقاليد الحمام الدمشقي

انتشرت الحمامات العامة في نيابة دمشق بحيث بلغ عددها في فترة الدراسة أكثر من ثمانين حماماً تقريباً[٦] وكان الهدف الرئيس من إقامتها النظافة والاغتسال والوضوء ثم تطور

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٥، ١٤٣، م٢، ص٧٤٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٤٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٤٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٧
(٢) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٣
(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٧٣
(٤) البصروي، تاريخ، ص١١١، قارن ذلك: ابن طوق، التعليق، ج١، ص٩٢، ٢٩٣
(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٨، وانظر كذلك حول الموضوع نفسه ص٣٠٨، وحول أسماء الحمامات انظر: ابن عساكر، تاريخ، ج٢، ص٣٨٦-٣٨٩. ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٩٢.
(٦) العلبي، دمشق، ص١١٨، ليلى، عادة، ص١١٤، الكواكبي، سعد زغلول، الحمامات في حلب عبر التاريخ والأدب، مجلة عاديات حلب، الكتاب الأول، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص١٦٩.

الأمر فصار وسيلة من وسائل المتعة والترفيه والتسلية والتواصل الاجتماعي والعلاج الطبي والاجتماعات السياسية(١).

لقد فاقت الحمامات الدمشقية غيرها في الاتقان والنظام والهندسة وغزارة المياه والخدمة والإكرام وزهد الأجرة، إضافة إلى جودة صابونها وشهرة عطورها وتوافر مستلزمات الحمام فيها، مما شجّع الناس على الاقبال عليها بحيث غدت بالنسبة إليهم ضرورة من الضرورات، خاصة وأن معظم بيوتهم كانت تخلو منها لارتفاع أثمان الحطب باستثناء بعض البيوت والقصور، وكانت الدولة من جانبها تولي اهتماماً زائداً بالحمامات فترتب أوضاعها عن طريق استاددار الحمامات(٢).

وقد كان للرجال حمامات خاصة وللنساء كذلك، غير أن غالب الحمامات وضعت نظاماً تستقبل فيه الرجال والنساء بحيث جعلت أوقاتاً للرجال من الفجر إلى الظهر وللنساء من الظهر حتى غروب الشمس(٣). وترتيب الحمامات واحد سواء ما كان منها للرجال أو النساء أو كلاهما معاً، فهو يُقسم إلى دائرة خارجية أو ما يُدعى بالبراني تتوسطه بحرة مستديرة مبنية من الرخام الملون في داخلها نافورة ينسكب منها الماء من أربعة أو خمسة أنابيب وحولها مصاطب يخلع عليها المغتسلون ثيابهم (مشلح) ثم يعلقونها على مشاجب ويُقدم لهم ما يحتاجونه من بشاكير ومناشف وفوط(٤).

ويلي ذلك دائرة الاستحمام الوسطاني، وتقسم إلى خارجي و داخلي ولكل منها أجران، ولكل جرن أنبوب ماؤه حار، وفي بعض الحمامات لكل جرن أنبوبان واحد حار وآخر بارد. ويحتوي هذا الجزء على مصاطب خشبية ومجالس يستريح عليها المستحمون ليعاودوا اتمام استحمامهم. أما القسم الأخير فهو الجواني، ويتميز بأنه أشد حرارة من الوسطاني، ويقع ما بين إيوانيين تتصدرهما الأجران التي تتدفق إليها المياه الحارة والباردة. والحمام المملوكي مبني على النمط الروماني مع وجود بعض الاختلافات(٥).

---

(١) ابن الفرات، تاريخ، م٩ج٣، ص٢٧١، الصباغ، ليلى، عادة، ص١١٤، منير كيّال، الحمامات الدمشقية وتقاليدها، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ص٥- ٧، عاشور، بحوث، ص٢٥.

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٣٨، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٠٨، العلبي، دمشق، ص١٢١، عاشور، بحوث، ص٢٥.

(٣) ابن بطوطة، رحلة، ص٦٤، ابن المبرد، رسائل دمشق، تحقيق صلاح محمد الخيمي، ط١، دار ابن كثير – دمشق، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص٦٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٣٠، ٣٢٦، ٤٢٦، ج٤، ص١٦٤١، كيّال، الحمامات، ص٦١، ٦٣، ٦٥- ٦٦، ٦٨، ٧١- ٧٢، ٧٦، ٨٣، ٨٥، ٨٩، ٩٨، انظر رأي الكواكبي المخالف لمواعيد دخول الحمامات في مقاله الحمامات، ص١٧٢.

(٤) ابن المبرد، رسائل ص٦٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٣٠، ٣٢٢، ٣٧٦، ٤١٧، ٤٢٦، ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٤٦، كيّال، حمامات، ص١٥٥، ١٥٨

(٥) ابن المبرد، رسائل ص٦٠، كيّال، حمامات، ص١٥٩- ١٦٠

يشرف على إدارة الحمام المعلم، وهو إما أن يكون مالكاً للحمام أو مستأجراً له ويخضع جميع الصنّاع لإمرته، وفي بعض الأحيان تتواجد المعلمة في حمامات النساء، كما يتواجد الحمامي والحمامية (ويبدو أن الكلمتين مرادفتين للمعلم والمعلمة)، فقد ذُكر سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) أن حمامي أدار حمام برهان الدين. وينوب الناطورمكان المعلم في حال غيابه، كما أنه يشرف على نظافة الحمام ومظهره الخارجي وتأمين سبل راحة المرتادين[١]، وهو يُعد حارس الحمام وينبغي له ملاحظة ثياب المستحمين والحرص عليها، فلو سُرقت ملابس المرتادين من مشلح الحمام وهو جالس في مكانه مستيقظ فلا ضمان عليه، وإن نام أو قام من مكانه عليه الضمان. وتتواجد في حمام النساء ناطورة أيضاً وتقوم بما يقوم به الناطور[٢]. والداية للنساء أو القابلة وهي المرأة التي عندها معرفة ومهارة في صنعة التوليد. والوقاد، وهو الذي يجهز ويشعل مواقد الحمامات (الإقميم) ، وكانت العادة تجهيز المواقد من القمامة والزبل اللذين يحضرهما القميمي[٣].

كانت الأجور متفاوتة بين الصنّاع، وكانوا يتلقونها من المعلم، إضافة إلى الإكراميات التي يتلقونها من مرتادي الحمام رجالاً أو نساءاً. والعادة المتعارف عليها في الحمامات أن يدخل الرجل إليها ومعه مواد التنظيف وهي الصابون والسدر والأشنان أو العدس للتدليك أو ما يسمى "حوايج الحمام". في غالب الأحيان يؤمّن الحمام للمرتادين هذه المواد[٤]. وعندما يتهيأ الشخص للدخول إلى الحمام يستقبله المعلم في البراني بالترحاب، فيضع نقوده وحاجاته الشخصية في صندوق خاص كأمانة عند المعلم، وينتقل بعدها إلى قسم الوسطاني فيسلمه عامل قبقاباً خشبياً ثم يسأله عن نوع الخدمة التي يريدها فيؤديها له، وقد يختار المرتاد الجواني كما يفضل بعضهم الاستغناء عن الصنايعية ليقوم بتنظيف نفسه بنفسه، وبعد الانتهاء من هذه المراحل يقدم العامل للمستحم مناشف جديدة استعداداً للخروج للبراني. وقد يتناول بعد استحمامه بعض المرطبات

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٣٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٢٧، ١٤٢، ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤٨، ٣٠١، ٣٢٢، ٣٥٢، ٤٠٩، ٥٤٤،٥٣١ــ٥٣٢، كيّال، حمامات، ص١٧٢

(٢) السبكي، معيد، ص١٣٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٥، ١٣٢

(٣) ابن حجي،تاريخ، م١، ص١٩٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٤٢، ١٩٦، ٢٤٨، ٤٢٦، القاسمي، المظاهر، ص١٥٨، وللمزيد حول وظائف الحمام الأخرى انظر كيّال، حمامات، ص١٧٤– ١٧٩

(٤) السبكي، معيد، ص١٣٥، ابن طوق، ج١، التعليق، ص٣٥، ١٤٢، ٢٧٣، كيّال، حمامات، ص١٧٣، ١٧٦، ١٩٥

والمشروبات كالفقاع[١] وغيره، ويرافق ذلك تناول الأحاديث وألطاف الكلام والقصص والأخبار الاجتماعية[٢].

وتتميز حمامات الأكابر بالأبهة والفخامة والعناية الفائقة التي تليق بمن يحلون بها. فقد كملت عمارة حمام ومدرسة النائب قرب المدرسة العذراوية[٣] سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) وكان الحمام رائعاً وتم توزيع الدشيشة، وأتى النائب سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) إلى حمام القاضي الشافعي فأضافه فيه ضيافة هائلة، ودخل سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) السلطان سليم ومن معه إلى حمام الحموي المنسوب إلى الأمير الكبير عز الدين ايبك الحموي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٤م) بمسجد القصب، فأعطى لمن حلق له خمسمائة درهم ولمعلم الحمام مثلها ولمعلم الحمامين كذلك[٤]. ومن اللافت للنظر أن هناك بعض الحمامات كانت مخصصة لفئة من الناس، فقد كان حمام الاقباعية للاقباعيين[٥] وحمام الجند للجنود. أما حمامات النساء فقد تميزت هي الأخرى بميزات خاصة حيث كانت المرأة التي تود الذهاب إلى الحمام تجهز مسبقاً "حوايج" الحمام كالحناء والسدر والأشنان ودقيق الترمس، وكانت الموسرات يأخذن بقج الديباج[٦] والأواني الجميلة والأطعمة المختلفة والفواكه كالرمان والتفاح، ويلبسن أغلى الثياب وأجملها، فقد كان ارتياد الحمام بالنسبة لهن سبيل للترويح عن النفس والنزهة[٧]. وكانت بعضهن تذهب وبرفقتها الأولاد والجارية ومجموعة من النساء ليزيد استمتاعهن وسرورهن ولإظهار كرمهن، وفي بعض الأوقات ينفصل الأولاد عن أمهن فيرتادون حماماً خاصاً كحمام برهان الدين بن عبد الوهاب الذي كانت تديره فاطمة التركمانية، وأحياناً يعزف الأولاد عن بعض الحمامات والذي قد يكون السبب لما حدث فيها من سرقات. وقد يتم ولادة النساء في الحمام بإشراف الداية أو القابلة فتتقاضى لقاء عملها من ولادة المرأة ونفاسها مبالغ من المال[٨].

---

(١) الفقاع: شراب يتخذ من الحبوب والثمار، ابن المبرد، نزهة، ص٢٧.

(٢) السبكي، معيد، ص١٣٥، ابن طوق، التعليق،ج١، ص٣٥،١٣٠، ١٤٢، ٢٧٣، ٣٣٥، ليلى، عادة، ص١١٤

(٣) المدرسة العذراوية: تقع بحارة الغرباء داخل باب النصر المسمى بباب دار السعادة، وهي وقف على المذهب الشافعي والحنفي، أنشأتها عذراء بنت أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت٥٩٣هـ/١١٩٧م)، النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٧٣

(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٣٩، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٥٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٥، ٣٤٠

(٥) وُجد في نيابة دمشق سوق الاقباعيين، ويقع تحت سوق الطواقين، يُباع فيه اقباع الفلاحين والبدو، ابن المبرد، نزهة، ص٢٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٩، ١٢٧

(٦) الديباج: كلمة عربية من أصل فارسي وتعني الحرير الملون المنسوج يعبر عنه أيضاً إبريشم وإبريسم. غنام، معجم، ص١٦٠.

(٧) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٢٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٥، ١٣٢، ١٤٢، العلبي، دمشق، ص١٢٣ ص١٢٣

(٨) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٦٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٨، ٦٠، ٩٠، ١٣٢، ١٦٦، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٤، ٤٠٦

لقد كانت الحمامات تدر أرباحاً لا بأس بها، مما جعل أهل دمشق يقبلون على إقامتها وتزويقها وإصلاح ما خرب منها(1)، فقد بلغت أجرة حمام الأمير غرس الدين خليل (ت٨١٨هـ/١٤١٥م) في كل يوم أكثر من أربعين درهماً. وعمل آخرون على وقفها على مؤسسات خيرية كالترب والزوايا والأيتام والمدارس(٢).

لكن رغم المظاهر الايجابية الآنفة الذكر للحمامات فقد تعرض بعضها لمشاكل وحوادث تركت آثارها السلبية عليها بحيث أبعدتها عن القيام بأدوارها الرئيسية بعض حين، ومنها ما حدث سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٧م) حيث امتنعت النساء من دخول حمام بجانب باب الاقباعية لوجود مصطبة كبيرة فوقها سقف كان يجلس عليها أشخاص وأصدقائهم يتبادلون الأحاديث ويستمرون بالجلوس فترات طويلة يتخللها أنواع من الفساد، فأمر قاضي القضاة بهدم المصطبة(٣). وما حدث سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٨م) عندما نزل مطر غزير ومعه بَرَد حجم الواحدة منه دون بيض الدجاج وفوق بيض الحمام فساق في طريقه الحجارة والحصى والتراب وأوصلها إلى الأنهار فانطمر بعضها وانكسر البعض الآخر، فتقطعت المياه من خمسة أنهر يزيد والمزة وداريا والقنوات وبانياس، وفاض بردى فغرقت طواحين كثيرة وتعطلت الحمامات(٤). وما تم سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م) عندما أمطرت السماء فوقع طباق على سطح حمام خارج مدينة دمشق فماتت معلمة الحمام ومعها نساء كن بالمشلح، وحصل للمتجردات داخل الخزانة حرج كبير بسبب إخراجهن عاريات من الحمام. وسنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) حيث احترق اقميم حمام، ولولا الاسراع في إخماده لاحترقت الحارة التي كان فيها(٥).

وبعض الحوادث كانت لأفراد بعينهم مثلما حدث سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) عندما توفي أحد الشيوخ بسبب سقوطه من المصاطب على البلاط فحصل ضرر في رأسه وكُسرت يده وتم تجبيرها إلا أنه توفي في اليوم ذاته. وما حدث سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م) لما دخل قاضي الشافعية حمام منصور وترك ثيابه واستعمل صانعاً، فجاء مملوك وأمر الصانع بحلاقة رأسه ودلكه وغسله وأطال الجلوس ثم خرج فادعى أنه سُرق من جيبه مائة دينار، فأخذ من الحاضرين ثلاثمائة دينار ومنهم القاضي، عدا عن كلفة الحمام. وبعد ذلك بأربع سنوات جرت حادثة أخرى مع أحد الصنّاع تسببت في موته، حيث نزل هذا الصانع إلى الماء الذي بقدرة الحمام ليسد العيب

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٧٣، ٢٢٢، ٢٥٥- ٢٥٦، م٢، ص٦٩٢، النعيمي، الدارس، م٢، ص٢٤٠، ابن طولون، مفاكهة، ص١٩٧، ٢١٠، ٢١٤، ٢٥٢، ٣٠٨، قضاة، ص٢٣٦

(٢) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٩٢، ٨١٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٥، ٣٠٨، ٣٧١

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٠٢

(٤) المصدر السابق، ص٢٨٥، وللمزيد حول تعطل الحمامات بسبب انقطاع الماء انظر ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٢٢

(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٠٩، ٢٨٤، ٥٣٩

الذي بها على عادته فمات، فاتُهم معلم الحمام في أنه السبب الرئيسي في موته[١]. أما أخطر الحوادث فهي محاولات القتل، أي ترقب أحدهم لآخر وانتظاره أمام الحمام، وفور خروجه يتم قتله، فإما أن ينجو أو يموت، ومن ذلك ما تم سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) عندما هجم حاجب الكرك مع الأهالي على الأمير شيخ المحمودي قبل توليه السلطنة في حمام الكرك لقتله، وكان قد سبقهم أحد المماليك فأعلمه بما دُبر له، فخرج من الحمام ولبس ثيابه ووقف في مسلخ الحمام عند الباب مع أصحابه فتعرض له القوم بأسلحتهم وكادوا يقتلونه لولا دفاع بعض الأمراء[٢]. وماحدث سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) لما قتل بردار النائب في الحمام عدماً[٣].

و- عادات أخرى

- مواجهة وباء الطاعون

ألف الناس في نيابة دمشق على مقاومة الطواعين بالتقرب إلى الله وتجنب المعاصي والآثام، وكانت لهم تقاليد معروفة منها ما حدث سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) عندما انتشر الطاعون بين أهالي دمشق فأمر ملك الأمراء نائب دمشق فيها منادياً ينادي بالناس أن يصوموا ثلاثة أيام ويطبخوا بالسوق، فصام الناس ثلاثة أيام متتالية كان آخرها يوم الخميس، ثم اجتمع الأمراء والقضاة والفقهاء منهم وأعداد كبيرة من الأهالي في الجامع الأموي، فباتوا ليلة الجمعة بين ذكر وصلاة ودعاء ثم صلوا الصبح وخرجوا على أقدامهم وفي أيديهم المصاحف، والأمراء حفاة ومعهم جميع فئات الناس من ذكور وإناث وصغار وكبار ويهود ونصارى بكتبهم السماوية وعائلاتهم، وكلهم يبكون ويتضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه أن يصرف عنهم الوباء، ثم اتجهوا إلى مسجد القدم فأقاموا به إلى قريب الغروب ثم عادوا إلى دمشق فصلّوا الجمعة[٤].

وانتشر الطاعون سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) في دمشق فاجتمع الناس بعد صلاة الجمعة تحت قبة النسر بالجامع الأموي، وجلس قاضي القضاة ونوابه والعلماء وطلاب العلم والفقراء والصالحين فقرأوا جميع صحيح البخاري مرتين كما قرأوا أربع ختمات للقرآن الكريم، وانتهوا من القراءة وقت آذان العصر ثم سألوا الله أن يرفع عنهم الطاعون[٥]. وتم أيضاً سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م) انتشار الطاعون في نيابة دمشق فأمر النائب بالتقوى وصيام ثلاثة أيام

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤١٧، ج٢، ص١٠٦٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠١، ١٢٩

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص١٦١- ١٦٢، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص١١٦، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٨٠٩، للمزيد أنظر، الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٦٦.

(٣) البردار: كلمة فارسية الأصل، وصاحبها صاحب الستارة أو الحاجب، البصروي، تاريخ، ص٢٠٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٦

(٤) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٩٢- ٩٣

(٥) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٣٥

وإظهار التوبة والخروج إلى الصحراء وزيارة المزارات لينقطع الوباء، وكانت مناداته استجابة لدعوة بعض المتمصلحين، حيث زعم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وأنه أشار عليه بذلك، فنودي بعدم فتح أي حانوت إلا حوانيت الخبّازين والطبّاخين وأن يخرج الصالحون والعلماء بالتكبير والتهليل إلى سطح المزة للدعاء، فخرج النائب ومعه القضاة الثلاثة ما عدا الحنبلي بسبب وفاته.

كما خرج الشيوخ بأعلامهم وربعاتهم وعبارات الذكر والتضرع والانابة لا تفارقهم، وأثناء ذلك غادرهم النائب وذهب إلى الربوة راجعاً من حيث أتى مخالفاً بذلك العادات ببقائه مع خواصه حتى صلاة العصر ثم الاستماع إلى دعاء الإمام بصرف الوباء ومن ثم العودة إلى البيوت(١).

- **سبوت(٢) دمشق**

احتفل أهل دمشق بيوم السبت احتفالاً بحيث تساوى فيه الغني بالعبد، وقد توسع القزويني في وصف سبوت دمشق فقال "في هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حجر، ولا للوالد على الولد ولا للزوج على الزوجة ولا للأستاذ على التلميذ، فإذا كان أول النهار يطلب كل واحد من هؤلاء نفقة يومه فيجتمع المملوك بإخوانه من المماليك والصبي بأترابه من الصبيان والزوجة بأخواتها من النساء والرجل أيضاً بأصدقائه"(٣).

ويقضي المماليك وقتهم في السبوت في قصورهم وسط البساتين والرياض، في حين تقضي العامة وقتها في الميدان الأخضر، وينتشر أصحاب الحوانيت فيبيعون فيه ما لذ وطاب، ويُظهر المغنيون والقصاصون والمصارعون وغيرهم فنونهم أمام الجميع، وكانوا يقصدون الربوة بشكل خاص. وأضاف أهل دمشق أحياناً ليوم السبت يوم الثلاثاء(٤).

- **شرب القهوة**

كثرت الفتاوى الدينية حول بعض القضايا المرتبطة بحياة أهل دمشق ونمط عيشهم، ومن أبرز هذه القضايا شرب القهوة فقد استفتوا في أمرها سنة (٩٥٠هـ/١٥٤٤م)"(٥) هل يحل شربها

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠٧

(٢) سبوت: يشير حبيب الزيات إلى أن أصله ربما يعود إلى الفرس واحتفالهم بيوم مهران، وأن الاحتفال لم يكن خاصاً بأهل دمشق بل بأكثر مدائن الشرق. انظر مقالته: أيام السبوت بدمشق، مجلة المشرق، ج١، سنة ٣٦، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ص٤١.

(٣) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت ٦٨٢هـ-١٢٨٢م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٣٧٨هـ-١٩٦٠م، ص١٩١

(٤) حبيب الزيات، أيام السبوت بدمشق في عهد العباسيين، مجلة المشرق، ج١، سنة ٣٦، (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، ص٤٣-٤٤

(٥) البصروي، تاريخ، ص٥٠، ١٢٤، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٧٦، ٤٥٥، ٦٤٣، العليمي، الأنس، ج٢، ص٣١٢، العيدروسي، النور، ص١٢٠، ١٢٤

شربها بغناء وإدارة زبادي صيني أم لا" فذكر ابن طولون أنه وقف على محضر بسبب تحريم القهوة سنة (٩١٧هـ/١٥١١م)، ملخصه أن شربها بهذه الكيفية حرام[١].

-هطول الثلج

اعتاد أهل دمشق إقامة الاحتفالات الخاصة عند سقوط الثلج فكان شبّان دمشق وصغارها يصنعون تماثيل على شكل أسود ضخمة، فيضعون واحداً منها غربي المدينة وثانياً شرقيها وثالثاً وسط السوق ورابعاً عند باب خان الصابوني، ثم يجيئون بأسد منها فيضعونه على منصة كبيرة من الخشب ويحملونه ثم يطوفون به على الأسواق فيلتمسون من الناس مالاً، وفي حالة امتناع الناس عن الدفع يقوم الشباب والصغار بضربهم وإهانتهم[٢].

- كسر النيل أو فتح السد

كسر النيل من الأعياد الهامة لدى المصريين والشاميين على السواء، حيث تشترك جميع الطبقات في مصر بالاحتفال به، فينزل السلطان وجنوده في موكب وقت فيضان النيل، ويكسر السد فتجري المياه في الخلجان والترع، أو يرسل السلطان من ينوب عنه للقيام بهذه المهمة، وتصل بشائر كسر النيل إلى نيابة دمشق فيفرح الأهالي وترخص الأسعار[٣].

- غرائب

وقع بنواحي حوران سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٣م) برد كبار على صور خشاش الأرض، كعقارب وضفادع وسرطانات[٤].

وفي سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) قدم إلى دمشق رجلٌ في أعلى رأسه لحم يشبه شختور الغنم غطى وجهه إلى صدره، وكان له عين واحدة، فإذا أراد النظر أو الأكل رفع اللحم النازل على وجهه[٥].

---

(١) ايبش، أحمد، حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام، (٩٢٦-٩٥١هـ / ١٥٢٠ - ١٥٤٤م)، صفحات مفقودة تنشر للمرة الأولى من كتاب مفاكهة الخلان من حوادث الزمان لابن طولون الصالحي، دمشق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٣٥٧، ٣٥٩- ٣٦٠

(٢) ابن طوق، التعليق، ج٤، ص١٦٨٩، برغوت، جوانب، ص٤١٢

(٣) مغلطاي، ابراهيم، (ت بعد ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها، مخطوط، الجامعة الأردنية، مكتبة الجامعة، مخطوط رقم ١٠٤٢، ورقة٨٢، ٨٥، ٩٥، ٩٩، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٣٣، الغرسي، نيل، ج٢ق٦، ص١٩٤،ابن اياس، نشق، ص٩٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧١، ٢٩٠، ٣١٢، طرخان، النظم، ص٣٢٣، للمزيد حول أهمية نهر النيل انظر، المقريزي، الخطط، ج١، ص٦١، ٧٠. عاشور، بحوث، ص٤٢٨.

(٤) ابن حجر، إنباء، ج٨، ص٢-٣ ، الجزيري، الدرر، ج١، ص٤٤١-٤٤٢.

(٥) ابن سباط، تاريخ، ج٢، ص٩٢٥، للمزيد انظر، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، حُسن المحاضرة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة التجارية، مصر، عام (١٣٧١هـ/١٩٥٣م)، ص٥٠٣ ، الغرسي، نيل، ج١ق٣، ص١٩٣

ز- الأعياد والمناسبات والمواسم

١- الأعياد والمناسبات الدينية

-إحياء رمضان

عُدّ شهر رمضان عند الدمشقيين شهر عبادة وخير وبركة وأداء الطاعات واحتفلوا بقدومه أيما احتفال. وكانت مراسيم الاحتفال تبدأ بإثبات رؤية هلال الشهر من قبل شخصين، يتم تزكيتهما من آخرين أمام قاضي القضاة ثم المناداة بالإمساك(١)، وقد حدث خلاف على تحديد وقت الرؤية، ففي سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م) شهد رجال من الصالحية برؤية الهلال يوم الثلاثاء لكن أغلبهم في المدن والقرى شهدوا برؤيته يوم الأربعاء، وبعد ذلك بسنة اختلف في تحديد رؤية الهلال مرة أخرى هل هو يوم السبت أم يوم الأحد، وأخيراً استقرت الرؤية على يوم الأحد. واختلف في رؤيته سنة (٨٠٢هـ/١٤٠٠م) حيث أُثبت يوم الثلاثاء وكان المفروض أن يكون الاثنين فأوجب قضاء صومه، وكان أهل حلب قد صاموا يوم الأحد فأوجب عليهم إفطار يوم من آخر رمضان(٢).

واشترك المنجمون - المؤقتون- والعلماء في تحديد موعد الصيام باستخدام القياس، فقد أصبح الناس صياماً يوم الخميس بدمشق سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) لأن أول شعبان كان الثلاثاء، وعلى قياس القاعدة يكون أول رمضان الجمعة كون رابع رجب الجمعة. وكان رمضان سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) الأربعاء لأن رابع رجب كان الأربعاء حسب القاعدة المشهورة أن رابع رجب أول رمضان. وكذلك كان أول رمضان سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م) الأحد لا الاثنين وهو موافق لقاعدة أن رابع رجب أول الصيام(٣).

وبعد أن يثبت لدى قاضي القضاة وقت الصوم يرسل بذلك للنائب، فيقوم الأخير بإعطاء أوامره بضرب طبلخانة البشائر والايعاز للمؤذنين بالتكبير والمناداة بصوم رمضان، ويتم ايضاً ايقاد قناديل الجوامع ومنها مئذنة العروس بالجامع الأموي وجامع يلبغا احتفالاً بمقدم رمضان، كما يوقد الأهالي القناديل(٤) ويقومون بتحضير أقراص المشبك والبسيس وغيرها من الحلويات ابتهاجاً بمقدم الشهر الكريم، كما ويقبلون على شراء السكاكر والشموع والقطر(٥). واعتاد

---

(١) البصروي، تاريخ، ص١٥٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٩

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٦٧، ١٢٦، ٤٢٧

(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٢٤، م٢، ص٦٣٩، ٩٩١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٩٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٢، ٣٠٦، الحلاق، حوادث، ص٢٣.

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٦٧، ٧١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥١٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٧، ٣٠١، ٣٦٨، الحلاق، حوادث، ص٢٣

(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥١٦. ابن طولون، مفاكهة، ص١٠٧.

الدمشقيون فيه أيضاً ارتياد الجوامع رجالاً ونساءً وحضور الخطب ودروس الوعظ وقراءة القرآن وحفظه غيباً أو ما يسمى بــ الختمة[١] حيث كان كثير من الأولاد يختمون القرآن في هذا الوقت فيُحتفل بهم ومنهم ابن كاتب سر دمشق أمين الدين الحمصي (ت٨٠٠هــ/١٣٩٧م) الذي ختم القرآن سنة (٧٩٨هــ/١٣٩٦م) وعمل الختم بالمدرسة الظاهرية فاحتفل به ووزع والده أنواعاً كثيرة من الحلوى على الناس، والطفل زين الدين العابدين شمس الدين الخطيب المصري ابن الثماني سنين الذي ختم القرآن سنة (٩٠٦هــ/١٥٠١م)[٢]. وختم القرآن جماعة من الفتيان سنة (٨٠٢هــ/١٤٠٠م) بالجامع الأموي وهم طلبة من المدرسة البادرائية ومن الشامية الجوانية[٣] وقد تلقوا النقوط بعد ختمهم من المدعوين[٤].

وألف الدمشقيون سماع وختم صحيح البخاري في الجوامع والبيوت، وأداء صلاة التراويح[٥] وتخصيص الأوقاف لتصرف أكثر ما تصرف في هذا الشهر على الشمع الذي يوقد لقراءة البخاري والتراويح، ولم يقتصر ذلك على العامة بل شمل الخاصة، فقد تم في رمضان من سنة (٨٠٣هــ/١٤٠١م) ختم قراءة صحيح البخاري بدار السعادة بحضور السلطان والقضاة والشيوخ، وبعد الختم خُلع على القارئ وأُعطي الحضور مالاً[٦]. وعُرف عنهم الكرم وحسن الضيافة في الأيام الفضيلة فقلما يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده، فالأمراء والقضاة يدعون أصحابهم والفقراء للفطور، والتجار والبائعون يفعلون مثلهم، أما الضعفاء والمعوزون فيجتمعون كل ليلة في دار أحد الكرماء أو في المسجد فيأتي كل دمشقي بما عنده فيفطرون[٧]. ومما يدل على ذلك ما حدث سنة (٨٠٨هــ/١٤٠٦م) حيث نودي على الفقراء يوم الجمعة للاجتماع في الميدان يوم السبت، فقدم خلق كثير منهم ففرق النائب ومعه القضاة والأمراء والتجار والأغنياء عليهم ما بين خمسة إلى مئتي درهم. وقد حدث نتيجة الازدحام على الطعام أن مات عدد من الرجال والنساء كما جرى في السنة ذاتها عندما وُزّع الطعام بمطبخ النائب بالاصطبل على الفقراء أن مات أربعة عشر نفساً من الرجال والنساء. ومن القربات الأخرى

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٤١، م٢، ص٨٢١
(٢) المصدر السابق، م١، ص١٨١، ٣١٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١٩١
(٣) المدرسة الشامية الجوانية: تقع قبلي المارستان النوري، أنشأتها ست الشام بنت نجم الدين أيوب (ت٦١٦هــ/١٢١٩م) وكانت داراً ثم حُولت إلى مدرسة خاصة بالفقه الشافعي، النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٧٧، ٣٠١
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٣٠
(٥) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٩٩، ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٨١، م٢، ص٨٢٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٨٦، ١٨٩، ٢٩٤، ٥١٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٦، انظر عن ختم البخاري أيضاً في مصر، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص٢٩، ج٤، ص٨٨، للمزيد انظر الحسيني، رحلة، ص٢٤٤
(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٥٤، النعيمي، الدارس، ج١، ص١٠
(٧) ابن بطوطة، رحلة، ص٩٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥١٤، ٥١٦، ٥١٩– ٥٢١، النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٧٢

التي حرص عليها النائب توزيع الأقراص المحشوة وغير المحشوة على العوام والفقراء وإطلاق المحابيس المعسرين بدفع ما عليهم من غرامات.

وقام أهل دمشق أيضاً بإحياء العشر الأواخر من رمضان والاعتكاف في الجوامع(١). وعلى النقيض من مراعاة حرمة الشهر والتزام غالب أهل دمشق بالدين وإظهار التقوى فقد وُجدت فئة تجاهرت بارتكاب المعاصي والفواحش وعلى رأسهم نائب دمشق نفسه، ففي سنة (٩٠٤هــ/١٤٠٩م) توجه النائب جان بلاط إلى دير زينون وهو مفطر، وقيل أنه كان يشرب الخمر، وعندما انتهى من زيارته وعاد إلى دمشق كان أحد رجاله –المهتار- يسير وأمامه وعاء الخمر(٢).

لجأ بعض الفرنج إلى شرب الخمر في هذا الشهر نكاية بالمسلمين، فقد حُبس ابن أحد القضاة بدار السعادة في هذا الشهر من سنة (٩٠٤هــ/١٤٠٩م) وكان بقربه جماعة من الفرنج محبوسين من مدة، فأخذوا يشربون الخمر أمامه(٣). ويبدو أن تلك الحوادث لم تكن الوحيدة في التنغيص على أهل دمشق في هذا الشهر بل كان هناك ارتفاع أسعار بعض الأطعمة كالقمح واللحم والدبس والزيت والسيرج(٤)، أو كان تواجدها أحياناً بكميات قليلة كالرطب والأرز. وجاء وجاء رمضان في إحدى السنوات في الصيف فعانى الدمشقيون أشد المعاناة من شدة الحرارة والعطش الشديدين ولكنهم احتسبوا الأجر والثواب عند الله(٥).

- **عيد الفطر**

بعد نهاية شهر رمضان يأتي عيد الفطر ويسمى أيضاً بالعيد الصغير، وكان يتم اثباته بعد ادلاء رجلين فأكثر بشهادتهم برؤية هلال شوال أو سؤال المؤقتين، وقد جرت قلاقل وخلافات من جهة رؤية الهلال(٦)، فعلى سبيل المثال ما تم سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) حيث أشاع بعض الناس أن أول شوال هو يوم السبت بينما قال آخرون ومعهم المؤقتون باستحالة رؤية

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٢٣، ٧٢٥، ٨٦٠، ٩٣٣

(٢) دير زينون: من قرى الغوطة الشرقية الدوائر، أُضيفت اليوم إلى أراضي قرية عربين، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٩٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٥، إعلام، ص٩٧

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٥

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٤٠، ٤٢٧، م٢، ص٧٢٤، البصروي، تاريخ، ص٣٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٨٠، ابن طواون، مفاكهة، ص٣٠٦، ٣١٤

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٧٠، ١٢٦، ١٨١، ٢٣٩

(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٥٨٢، البصروي، تاريخ، ص١١٤، ١٣٠، ١٤٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٦، ص٢٦، ٣٠٢، ٣٧١

الهلال في ذلك اليوم، وشوهد في ليلة الأحد فعيّد الناس فيه. كما جرى اختلاف على الرؤية سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م) وسنة (٩٢١هـ/١٥١٥م)[١].

وكان النائب يتدخل في تحديد يوم العيد أحياناً، فقد أراد سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م) جعله الخميس لا الجمعة ودبر الأمر بأن أحضر رجلاً للشهادة زوراً برؤية هلال العيد يوم الخميس بحضرة قاضي القضاة، ونودي بذلك في دمشق، "وعيّد الناس ولم يكن عيداً" حسب قول ابن طولون[٢]، لأن المماليك كانوا يتطيرون من حدوث خطبتين في يوم واحد حيث يعني ذلك في نظرهم زوال حكم السلطان[٣]. كما تدخّل الحنابلة في تحديد يوم العيد سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م)، فقد أرادوا أن يكون الثلاثاء وسعوا في إثبات ذلك، فلقنوا من شهد برؤيته مع الاستحالة بسبب تراكم الغيوم، فجاءوا بالشاهدين إلى القاضي الشافعي وزكّوهما فنودي بالعيد، وأغلب الناس صاموا لاعتقادهم ببطلان شهادتهم، وأفطر آخرون[٤].

اعتاد الدمشقيون صنع الكعك المحشو بالعجوة فرحاً بقدوم العيد، والتكبير في المآذن قريب ثلث الليل ثم الابتداء بأكل التمر وشرب الماء، ثم التوجه قبل صلاة الصبح يوم العيد إلى دار الإمام وزفه إلى المسجد والقناديل تنير دروبهم والتكبيرات تصدع من أفواههم[٥]، وبعد أداء صلاة الصبح يرجع الإمام إلى منزله بزفة ثانية، ثم يؤدون صلاة العيد بالمصلّى اتباعاً للسنّة لا بالمسجد، وفي حالة سقوط المطر وغيره من الأعذار الشرعية كانوا يؤدون الصلاة في المسجد، ويقوم قاضي القضاة الشافعي بالمصلّى بإلقاء خطبة العيد بحضور النائب والقضاة والنواب والأمراء، ولما تنتهي الخطبة يخلع النائب خلعة مميزة على الخطيب – قاضي القضاة– ثم يركب الأخير ومعه بقية القضاة إلى المدرسة العادلية فيمد للنائب سماطاً، وقد يعدل الخطيب عن السماط فيشيع النائب إلى باب البريد ثم يعود إلى بيت الخطابة[٦].

وتشترك النساء مع الرجال في الخروج إلى الجوامع وأداء الصلوات وسماع الذكر، فيحدث بسببهن في بعض الأحيان فساد كبير وفواحش جراء الاختلاط مع الرجال مما لجأ البعض أن يدعو عليهن بقوله "لا كثّر الله منهن" ويتضرع إلى الله في إزالة ما أحدثنه من فساد.

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص ١٧٦، ٢٥١، ٣١٤

(٢) المصدر السابق، ص٢٥١

(٣) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص١٠١، الغرسي، نيل، ج١ق٦، ص٢٤٠

(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٢١ – ٨٢٣

(٥) ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي (ت٧٣٧هـ/١٣٣٧م)، مدخل الشرع الشريف على المذاهب، ٤م، دار الفكر، م١، ص٢٨٧، م٢، ص٢٨٦ـ٢٨٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٦، ٢٠٧

(٦) ابن الحاج، مدخل، م٢، ص٢٨٥، ٢٨٩، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٣٢، م٢، ص٦٢٦، ٦٦٨، ٩٩٣،، البصروي، تاريخ، ص٧٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٩٢، ابن طولون، مفاكه، ص١٧٦، ٢٠٧

وفي حالة قدوم العيد وسلطان مصر في دمشق فإنه يؤدي صلاة العيد في الميدان الصغير مع حاشيته ثم يعود للقلعة والجيش أمامه[١]. وفي حالة غياب النائب عن دمشق أو مرضه يوم العيد فإنه لا يجد ضيراً بأن يعيّد في أماكن أخرى كالغور أو الاسطبل[٢]. ومن عادات بعض الدمشقيين فور أداء صلاة العيد وسماع الخطبة التوجه إلى زيارة القبور خلافاً للسنّة التي دعت إلى سرعة العودة إلى الأهل وزيارة الأحباء والمعارف والصالحين للتبرك برؤيتهم والتماس الدعاء منهم[٣].

- يوم عرفة[٤]

ويسمى أيضاً وقفة عرفة والوقفة المباركة، وكان الحجاج عن طريق كتبهم أو بمجرد حضور قسم منهم يخبرون أهل دمشق بيوم وقوف الحجاج على جبل عرفات وهم يرتدون الشاش الأزرق أو الأبيض، ويكونون قبلها بيوم قد باتوا بمنى ويتباهون في ايقاد الشمع. أما في دمشق نفسها فقد جرت اختلافات بين القضاة في تحديد وقتها، كما حدث سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) حيث أرجع ابن طولون سبب الاختلافات إلى "قلة اعتناء القضاة بأمر الدين"[٥]. وكما كان مستهل شهر رمضان ومستهل شهر شوال يثبتان برؤية الهلال من قبل رجلين أو أكثر فإن يوم عرفة كان يتم بالطريقة ذاتها[٦].

وعندما يُعلن عن يوم عرفة يخرج أهل دمشق بعد صلاة العصر من ذلك اليوم فيقفون في صحون المساجد كالجامع الأموي وغيرها مع أئمتهم، كاشفي رؤوسهم خاشعين متضرعين لله يلتمسون الخير والبركة، ثم يترقبون الساعة التي يقف فيها الحجاج بعرفات، فيدعون الله ويتوسلون إليه حتى مغيب الشمس، فينفرون كما ينفر الحجاج والدموع تملأ أعينهم لأنهم ليسوا مع إخوانهم الحجاج بعرفات، ويبتهلون إلى الله بأن يوصلهم إلى أرض الحجاز ويُطعمهم الحجة ولا يخيب آمالهم من بركة قبوله لهم بأعمالهم.

وألف أهل دمشق إلقاء الدروس والمواعظ التي تبين فضل يوم عرفة. أما النائب فكان في هذا اليوم يقوم بتفرقة الأغنام والأبقار الكثيرة في الميدان على خواصه ومعارفه[٧].

---

(١) ابن صصري، الدرة، ص١٦٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٩٥
(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٩٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٦٨
(٣) ابن الحاج، مدخل، م٢، ص٢٨٨- ٢٨٩
(٤) انظر: الطراونة، الحياة، ص٢٦٧.
(٥) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص١٥١، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣، ١١٢، ١١٢، ١٢٧، ١٨٠، ٢٧٦، ٢٨٥، ٣١٦- ٣١٧
(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٤- ١١٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٧٦
(٧) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٩٨، ابن صصري، الدرة، ص١٢٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٨

- عيد الأضحى

بعد يوم عرفة يأتي عيد الأضحى ويسمى أيضاً يوم النحر والعيد الكبير، وكان القاضي الشافعي بعد إثباته وفي ليلة العيد يرسل للنائب شخصاً لإخباره بأن غداً العيد، فيقوم المؤذنون بايعاز منه بالتكبير في جوامع دمشق ما بين آذان العشاء وآذان الصبح، وقد يخرجون على العادة فيكبّرون في آذان الظهر كما حدث سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م)[١]. ثم يتوجه النائب بأبهة حافلة إلى المصلّى لأداء صلاة العيد ومعه القضاة وأركان الدولة فيستمع للخطبة التي يلقيها عادة القاضي الشافعي وهو متقلد سيفه، وتتضمن الخطبة أحكام الأضحية[٢]. وبعد الانتهاء من الخطبة يخلع النائب على الخطيب ثم يتجه نحو المنحر فيذبح أضحيات كثيرة، ثم يركب والقضاة والأمراء معه فيوصلونه إلى القصر. وقد يفضّل النائب أحياناً أن يعيّد خارج دمشق، فقد عيّد سنة (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) في قرية ضمير[٣] حيث غنم منهم شيئاً كثيراً، وعيّد سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) (٨٨٦هـ/١٤٨١م) في قرية البلاط[٤] وكان عزمه الإقامة فيها حتى انتهاء العيد هرباً منه ومن تفرقة الأضحية، ولما وصله حديث الناس عن قراره أجاب "يقولون ذلك ولا ألف دينار"[٥].

أما أهل دمشق فقد فضّلوا قضاء العيد فيها وذبح أضحياتهم اتباعاً للسنّة، واعتُبر ذلك عندهم من ضرورات العيد ومتطلباته، من هنا سموه "يوم النحر"، فتوزيع الكعك بعيد الفطر يقابله توزيع اللحم في عيد الأضحى[٦]. غير أن أسعار اللحوم في بعض الأعياد كانت باهظة الثمن مما جعل أحد الكتّاب سنة (٧٩٤هـ/١٣٩٢م) يقول في شأنها "وكانت الضحايا غالية نار تشعل"[٧]، وفي بعض السنوات فُقدت، ففي سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) فُقد غنم العيد كما فُقد اللحم وعزّ وجودهما بحيث بلغ سعر اللحم بلا عظم تسعة دراهم، واللحم بعظم خمسة وستة وسبعة دراهم مع قلة وجوده ، وبلغ رأس الأضحية من الستين إلى التسعين درهماً، ثم زاد حتى وصل مائة وعشرة واثني عشرة وخمسة عشرة وهو "عُدم ولا يوجد" في حوانيت اللحامين، مما دفعهم إلى إغلاقها. وقد عزف كبار رجال دمشق عن شراء الأضاحي[٨]، وهذا مما دفع بعض الناس

---

(١) البصروي، تاريخ، ص٩٩، ١٠٦، ١٢٧، ١٤٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٤٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٣١٦، القلائد، ص٢٦٧

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٣٦، ٣١٢، ٣٧٠، م٢، ص٦٧٩، البصروي، تاريخ، ص١٠٦، ١١٦، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٢١، ٥٤٨

(٣) قرية ضمير: بلدة تقع شرقي دمشق حيث تبعد عنها بحدود ٦٠ كم، ابن طولون، مفاكهة، ص٨

(٤) قرية البلاط: قرية من قرى الغوطة – غوطة دمشق– غربي زبدين، ابن المبرد، ثمار، ص١٣٧، النعيمي، الدارس، م٢، ص٣٦٧

(٥) ابن الحاج، مدخل، م٢، ص٢٨٩

(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١١٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٨، ١٨٦

(٧) ابن صصري، الدرة، ص١٢٩

(٨) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٤٧– ٥٤٨

إلى شراء اللحم خفية بسعره المرتفع. ومما ذُكر في هذا المجال أن رجلاً سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) اشترى ثلاثة أرطال لحم بلا عظم من لحام بثلاثين درهماً فعُدّ ذلك غريباً، وبيع رطل اللحم سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) بثمانية دراهم والبقري منه بستة.

إلا أن غالب الدمشقيين راعوا سنّة الرسول صلى الله عليه وسلم فقاموا بذبح الأضاحي[١]. وكان الذبح يتم في "الحوش" من المنزل ويتم فيه كذلك توزيع غنم الأضحية على الأقارب والجيران، وعادة يكون بعد صلاة الظهر، ومن العبارات المتداولة التي كانوا يقولونها عند أخذ لحم الأضحية بعد شكر المُضحّي والدعاء له "جبركم الله كما جبرتم بيت فلان – فيسميه – ويرد المُضحّي "الكل من فضلكم". ويبدو أن الأضحيات التي كانت تُذبح لدى الفرد الواحد كثيرة مما جعل المُضحّي في عصرهم يرسل للبيت الواحد رأس غنم أو رأسين، ومن ذلك ما قام به القاضي الشافعي سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م)[٢].

وكان من عادات الدمشقيين وقف أضحياتهم على دور العلم، فقد ذُكر في وقف دار القرآن الدلامية[٣] سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م) تخصيص رأسي غنم أضحية تقدم سنوياً لأرباب الوظائف في الدار[٤]. وأشارت وقفية المدرسة العمرية بالصالحية كذلك إلى تقديم أضحيات لكل نزيل في المدرسة، ومن الجدير بالذكرأن بعض القضاة أفتى أن تترك الأضحية في هذه المدرسة وتوزع بدلاً منها دراهم، فرد عليه ابن طولون قائلاً "هذا لا يجوز لأنه لو وقف على أضحية لم تجز الصدقة عنها بدراهم"[٥].

- **الحج الشامي**[٦]

كان للحج الشامي الأثر الكبير في حياة أهل نيابة دمشق دينياً واجتماعياً واقتصادياً. فقد اعتاد أهل نيابة دمشق إقامة الإحتفالات عند خروج قافلة الحج الشامي إلى الحجاز وعند عودتها. وكانت مراسم الاحتفال تبدأ بإشهار النداء بالحج وإعلان اسم أمير الركب والذي يكون من ذوي أرباب الوظائف والمتنفذين، ثم يوضع صنجق الجراكسة وهو عبارة عن راية من حرير أصفر مزركشة بشراريب وهلاله من ذهب شبه نعل المصطفى صلى الله عليه وسلم في جامع بني أمية على الباب الأوسط، ولا يوضع الصنجق إلا إذا اجتمعت شروط السفر كضبط

---

(١) ابن الحاج، مدخل، م١، ص٢٨٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٤٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٨
(٢) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢١٦، ٣٠٦، ٤٢١
(٣) دار القرآن الدلامية، تقع قرب المدرسة الماردانية بالجسر الأبيض، على الجانب الشرقي من الشارع الآخذ إليه بالصالحية، أنشأها زين الدين دلامة البصري (ت٨٣٥هـ/١٤٣٢م)، النعيمي، الدارس، ج١، ص٩، الحلاق، حوادث، ص٢٦.
(٤) النعيمي، الدارس، ج١، ص١٠
(٥) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٠٠، ابن طولون، القلائد، ص٢٦٧
(٦) انظر عنه: الطراونة، الحياة، ص٢٤٥-٢٥٦.

العربان والأمراء[١] إضافة إلى عدم وضعه إشارة بطلان الحج تحت قبة النسر كل يوم جمعة لمدة ثلاثة أشهر، ولما يحل منتصف شهر رجب أو شعبان أو رمضان تُستأنف المراسيم ويؤتى بالمحمل المجهز من قبل أحد النجارين والمزيّن بالثوب المشمشي والذهب المزركش الذي تُقدر قيمته بخمسة وثلاثين ألفاً ، فيُدار ومعه الخيول الملبسة والهجن والجمال والبغال والعسكر والطبول وجموع هائلة من الناس قدموا للتمتع برؤيته[٢]، وقبل الدوران بثلاثة أيام يُنادى على البيوت والحوانيت الواقعة على طريق الدوران بأن تزيّن بالحرير والحلي، ويكون الدوران في يومي الاثنين والخميس فيوضع المحمل على جمل ويخرج من دار السعادة إلى جامع يلبغا المطل على القلعة ويكون النائب في انتظاره أو من ينوب عنه في حال غيابه[٣]، فيجيء بجمل المحمل أمامه، فيبرك على ركبتيه ثم ينهض وكأنه يقبل الأرض، ثم يخرج المحمل والصنجق السلطاني للدورة ومعهما القضاة وأمير الحج حول دمشق ولا يعوقه عن الخروج المطر، وقد يعاود دوران المحمل مرة ثانية في شوال[٤].

وفي هذا الشهر أيضاً كان يسافر ركب الحج الشامي ثم يتوقف عند قبة يلبغا فيبيت المحمل فيها يومين ليجتمع مع بقية الحجاج والركبان، فيحضر الركب الحلبي بمجمله وبمرافقة الطبل والزمر والركب الحموي والحمصي والرومي وغيرهم فينزلون في الميدان، وتكون أحواض الماء والشراب المحلّى بالسكر منتصبة تحت القلعة لسقايتهم[٥].

وخُصّص القصر الأبلق لاستقبال الضيوف المرموقين والمتنفذين من الحجاج. وقد فضّل بعض الحجاج الإحرام من القدس الشريف ورأوا أن ذلك أكثر قربة لله من التجمع في دمشق. على أية حال حينما تتكامل جموع الحجيج في قبة يلبغا تنطلق القافلة متخذة طريقها نحو الدرب الشامي[٦] الذي يبدأ من الكسوة فخان ذي النون ثم الصنمين فالكتيبة ثم قرية زرعة (أزرع) ثم المزيريب، وتُعد الأخيرة من المحطات الرئيسية للدرب الشامي حيث كان يتزود الحجاج منها بما

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦١٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٠،٣٠٠، ٣٠٥، ٣٧١، ٤٠٧– ٤٠٨

(٢) ابن صصري، الدرة، ص١٥٨، ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦١٨، ٩٠٤، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٥٧، المقريزي، السلوك، ج٣ ق٣، ص١١٢، ج٤ ق١، ص١٤٦ البصروي، تاريخ، ص١٢٤، ابن طولون، التعليق، ج١، ص٣٩٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٤٥، ٣٨٥

(٣) ابن الحاج، مدخل، م١، ص٢٧٢، ابن صصري، الدرة، ص٢٢٤، القلقشندي، صبح، ج٤، ص٥٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٨٥

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٦١، ٢٨٥، ٣٤٦، م٢، ٩٥٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٠، ٣٠٥، ٣١٥، ٣٨٥

(٥) ابن صصري، الدرة، ص٧٠، ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٢٨، ١٨٣، ٢٤٣، م٢، ص١٠٣٦،المقريزي، السلوك، ج٣ق٣، ص١١٠٧، ابن طوق، التعليق، ص٥٢٤– ٥٢٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨، ١٩٤، ٤١٣

(٦) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٧٥، ١٨٣، ابن طوق، التعليق، ص٩٥

يلزمهم من البضائع، كما ينتظرون فيها المتخلفين من حجاج فلسطين وجنوب لبنان[١] وغالباً ما كانت البضائع تُباع فيها بالرخص، كما أن بعضهم كان يرجع منها لدياره دون أداء النسك إذا لمس الغلاء. ثم تسير القافلة من المزيريب إلى أذرعات[٢]، وقد أشارت بعض المصادر إلى بصرى كإحدى منازل قافلة الحج الشامي، كما أشارت إلى صرخد وإلى الزرقاء[٣] وإلى بركة زيزا – جيزة جنوب عمان – حيث تُعتبر مكان سوق الحجاج، وإلى اللجون وحصن الكرك وبلدة عنيزة ثم معان آخر بلاد الشام. وقد تحوّل القافلة طريقها من الطريق الشامي إلى الغزاوي القديم عندما تصل الأخبار بصعوبة الطريق وعدم أمنها[٤]. ولم يكن من الضروري أن تتوقف القافلة عند كل منزلة، والمنوط بالتوقف أو التحرك أمير الركب حيث كان يعطي تعليماته بشأنهما حسب الحاجة للراحة والماء أو ظهور الأخطار[٥]. والحقيقة أن المسافة من خروج القافلة من دمشق إلى حين عودتها كانت طويلة وتستغرق وقتاً زمنياً قدر بخمسة وتسعين يوماً أو بسبعين[٦]، غير أن هذا لم يشكل عائقاً أو عبئاً ثقيلاً على الحجاج إنما كان العبء الأكبر والخطر والخطر الجسيم في تعديات العربان فقد حدث سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) أن توفي ابن أمير الحج جراء قتاله مع العربان، وحدث سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) أن هاجم عربان الكرك إقامات الحج في عقبة ايله ونهبوها وقتلوا حراسها فأُرسلت قوات من الكرك وغزة والقاهرة لتأديبهم، وتم في سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) هجوم العربان على الحجاج وأخذهم بضائعهم ثم توجههم نحو اذرعات وقيامهم ببيع ما سلبوه، وقام مشايخ عرب بني لام من كنانة عذرة كذلك سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) بالاعتداء على الحجاج وبقوا في دمشق امنين دون أن يفطن لهم أحد إلى أن أخبر عنهم أمير العرب[٧]، وبعد ذلك بسنة تعرض الحجاج لهجوم العرب، حيث أخذوا نحو ثلثهم وسلبوا ناظر جيشهم قرابة خمسين جملاً، واستمروا في قتالهم عند منزلة اللجون إلى أن استنقذوا من قبل أحد

---

(١) ابن طولون، مفاكهة، ص٦٨– ٦٩، ١١٨، ١٣٠، ٣٠٦، ٣١٥، الجزيري، الدرر، م١، ص٤٤٢، صالح درادكة، طرق الحج الشامي في العصور الاسلامية، ط١، وزارة الثقافة، عمان– الاردن، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص٨٥

(٢) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٤٠، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٨، ٢٠٨، ٣٠٦، ٣١٥، درادكة، طرق، ص٨٦

(٣) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص١٠٤، البصروي، تاريخ، ص١٩٢، درادكة، طرق، ص٨٨

(٤) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص١٠٤– ١٠٥، ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٤٠، ٧٢٧، ٩٣١، البصروي، تاريخ، ص٤٥– ٤٦، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٣٨

(٥) البرزنجي جعفر بن حسن (ت٩٠٥هـ/١٤٩٩م)، النفح الفرجي في الفتح الجته جي، دراسة قافلة الحج الشامي وتحقيق المخطوط، مازن يوسف الغنيمي، جامعة دمشق، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص١٠٢

(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٩٥، البرزنجي، النفح، ص١٠٥

(٧) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص ١٠٠٧، القلقشندي، قلائد، ص٤٨، البصروي، تاريخ، ص١٥٦– ١٥٧، ٢١٧– ٢١٧– ٢١٨، وانظر عن تعدياتهم كذلك: ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٢، البخيت، مملكة الكرك، ص٦٢– ٦٣

مشايخ عربان آخرين فمضوا نحو سبيلهم. وبلغت تعدياتهم مبلغها سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) بحيث خرج النائب جان بلاط بنفسه لقتالهم وإنقاذ الحجاج منهم[١].

ولعبت الظروف الطبيعية من أمطار وسيول ووحل وثلوج ورياح وارتفاع حرارة وقلة ماء دوراً آخر لا يقل عن تعديات العربان في زيادة مصاعب الحجاج[٢]. وأُضيف إلى كل ذلك غلاء الأسعار وموت الحجاج والجمال ومظالم أمير الحج، فقد وصف أحد أمراء الحج سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) بالظلم والجهل والشجاعة في غير موضع الشجاعة، وقد قبض هذا الأمير على أعرابي بلا سبب فهرب العربان وتركوا أحمال الحجاج، ولم يعجب الأعيان تصرفاته فقاموا عليه، وكان يصحب معه أحمالاً من الخمر ويأخذ من الحجاج على كل حمل ديناراً ويبيعهم الماء الذي يصلون إليه[٣]، وقيل عن آخر سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) أنه كان يظلم الحجاج الحجاج لا سيما الغرب منهم من جهة الأخذ على الجمال وغيرها[٤]، كما عُرف أمير ثالث سنة (٨٩٥هـ/١٤٩٠م) بمظالمه لا سيما من جهة المواريث.

أصاب الحجاج الأذى أيضاً من استاددار الصحبة[٥] سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) فقد أوكلت للاستاددار مهمة استقبال الحجيج، فقام بتفتيش كل حاج مرّ على جسر الكسوة سواءً كان رجلاً أم امرأةً، فتأخر بعض الحجاج يومين لأجل ذلك، فلعنه الناس وذمّوا فعله ودعوا عليه بألا تصيبه بركات الله[٦].

وكان لنائب الكرك دور في الإساءة إلى الحجاج، فقد شكوه سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) للسلطان مافعله معهم عند عنيزة من نهب لأموالهم بغير حق، وتسبب غيره في تعطيل طريق الحج الشامي وذلك مافعله كبير السفارة بدرب الحجاز إبراهيم بن علي وأبو قورة القجماسي وعرب بني لام وغيرهم من العربان[٧]، كما تسبب آخرون في بطلان الحج كالخارجي إسماعيل إسماعيل الصوفي الذي أُشيع عنه أنه سيذهب للحج ويُلبس الكعبة ثوباً، حيث فرض أمير الحج

---

(١) البصروي، تاريخ، ص٢٢٣- ٢٢٤، ٢٣٠، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٧

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٩٩، ٢٥٩، م٢، ص٨٣٥، ٨٧٤، البصروي، تاريخ، ص٧٩، ١٤٥، ١٩٢، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٠١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٤، ٣١٥

(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٨٠- ٧٨١، ٩٢٦، ٩٣٠، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٥٣، البصروي، تاريخ، ص٤٦، ١١٠، ١٢٤، ١٤٠، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٤٤- ٢٤٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٤

(٤) البصروي، تاريخ، ص١٤٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٣١- ٣٢

(٥) استاددار الصحبة: موضوعها التحدث على المطبخ السلطاني والإشراف على الطعام والمشي أمامه والوقوف على السماط والعادة أن يكون صاحبها أمير عشرة. القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣١.

(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٩٥

(٧) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٣٨، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٩٧، ٢٠٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٦٧

عليهم الطرح سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) فزاد من استيائهم وظلاماتهم[١]. كانت الأخبار هذه تصل دمشق عن طريق كتب الحجاج أو بطاقاتهم ويصل معها أخبار المفقودين منهم والمجاورين والبضائع وأسعارها وكمياتها، والحرم النبوي ووقفة عيد الأضحى[٢].

أما كيفية التقليل من هذه الصعاب والحد منها فكان يتم بعدة سبل منها رد الحجاج المعروفين بارتكاب الجرائم، ومداراة أمير الحج للعربان، وعقد معاهدات مع مشايخهم وأمرائهم، فبعد انقطاع الحج سبع سنوات تصالح السلطان سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) مع أمراء بني لام والأمير محمد بن ساعد والتزموا بعده بالحج ذهاباً وإياباً، فاطمأنت النفوس بذلك. ولجأ بعض الحجاج إلى إعطاء العربان مبالغ من المال مقابل عدم تعرضهم لهم وإيصالهم بأمان إلى المنزلة التي يبغون التوجه إليها[٣].

واتقاءً للغلاء ودفعاً للجوع بسبب طول مدة السفر قام الحجاج بالتزود بالطعام اللازم، فصنعوا بعض الأطعمة كالبقسماط وهو عبارة عن كعك على شكل قوالب يصنع الجيد منه من طحين خاص، ويكون يابساً من الداخل والخارج فيعمد الحجاج عند أكله إلى إضافة الماء، وكان أمراء الحج يشترون كميات كبيرة منه تُقدر بمئات القناطير سنوياً[٤]. كما أقام أولياء أمور الحج أحواضاً من الماء على الطرق والمنازل لسقايتهم، وحصون لحمايتهم من قطّاع الطرق. وعكف آخرون على إصلاح الجسور الخراب قبل وصولهم إليها، وعمارة المطابخ الواقعة على طريق الحجاج. وأُشير إلى أعمال بعض الناس في رعاية مصالح الحجاج ونُعتوا بأنهم أصحاب الأيادي البيضاء في عمل الخير كأشراف مكة[٥].

كانت الاجراءات السابقة والسلوكيات ايجابية في الحد من مخاطر الحج، غير أن بعض الحجاج واجهوا الصعاب بطرق سلبية تمثلت في رجوعهم إلى دمشق من خان ذي النون جراء الثلج والمطر، كما أن آخرين رجعوا من المزيريب إلى دمشق نتيجة الغلاء[٦].

وعلى جميع الأحوال فقد قامت قافلة الحج بدور ايجابي مهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية حيث ساهمت في اختلاط الأجناس والثقافات المختلفة مع بعضها البعض فتأثرت بالدمشقيين وأثّرت بهم. وكان للعلماء نصيب وافر من هذا التأثر من خلال المناظرات

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٠٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩٣

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٤٤، ١٩٩، ٢٥٩، م٢، ص٧٨٠، ٧٩٥، ٩٢٦، ٩٧٤، ١٠٠٦، البصروي، تاريخ، ص٩٨، ٢٣٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٢، ٩٨، ١٣٤، ١٣٦، ٤٣٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٢، ٥٤، ٨٥، ١١٢، ١٣٢، ١٥١، ١٨١، ١٩٩

(٣) البصروي، تاريخ، ص٢٣٠، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٨٦، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٣٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩١، ١٣٤، ٢٣٤

(٤) البرزنجي، النفح، ص٩٢، الحلاق، حوادث، ص٣٧.

(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٣٤، ١٤٩، ٢٢٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١٦٠

(٦) البصروي، تاريخ، ص٧٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٠١، ابن طولون، مفاكهة، ص٦٩

والمناقشات في العلوم الشرعية والفكرية[1]. غير أن أهم من ذلك كله انعاش الاقتصاد وازدهار التجارة، فقد كان الحج دوماً ملازماً للتجارة، ولعل هذا ما أكّده البصروي في تاريخه، فقد تحدث في سنة (٨٧٤هـ/١٤٧٠م) أن الركب الشامي قد توجه إلى الحجاز ومعه من التجار ما لا يُحصى كثرة، وأشار سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) إلى توجه الحجاج إلى الحجاز دون أن يخرج من دمشق أحد إلا بعض التجار، وأكد سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) على عدم خروج أعيان دمشق للحج، وخروج تجار البهار والعبي فقط، وأضاف أن الكارم لم يأتي منه شيء، وأن الخسارة قد لحقت ببضائع التجار[2].

وعلى النقيض من الدور الايجابي للقافلة فقد عانى أهل دمشق من الجبايات ورميات المال الذي كان يُفرض على الحارات لأجل المشاة الذين يسيرون مع القافلة لحمايتها، أو بحجة حماية أمير الحج. وقد شكلت هذه الأموال عبئاً اقتصادياً على الناس بحيث أن أحدهم دعا بعدم رجوع الحجاج إلى دمشق بعد سفرهم[3].

- يوم عاشوراء

احتفل الدمشقيون في اليوم العاشر من محرم، ذكرى فجيعة كربلاء، فكان رب الأسرة فيهم يقوم بالتوسعة على أهله وأقاربه والأيتام والمساكين وزيادة النفقة والصدقة، كما كانت الخطب تعرض لفضل يوم عاشوراء. أما علية القوم كالنائب مثلاً فقد كان يلبس خلعة خضراء مميزة ويقيم احتفالاً مهيباً لهذه المناسبة[4].

وكان للشيعة مظاهر احتفالية خاصة اختلفت عن غيرهم، فقد كانوا يلطمون خدودهم ويدمون وجوههم ويبالغون في ذلك، فيتأذى الناس ويتذمرون من أفعالهم، ثم يعمدون إلى أولياء أمورهم بالشكوى بغية تغيير الحال، فلا يجدون نصيراً بل العكس يوقع بهم وينصف الشيعة[5].

وكان بعض الناس قد أحدث بدعاً في هذا اليوم كذبح الدجاج وطبخ الحبوب وإخراج الزكاة، أما النساء فقد استعملن الحناء وغزلن الكتان وصنعن أكفاناً منه، حيث زعمن أن منكراً ونكيراً لا يأتيان من تكفّن بذلك الكتان المغزول، ومن بدعهن أيضاً شراء البخور في هذا اليوم والتبخير به، وأشعن بأن من لم تتبخر نالت إثماً عظيماً، وكنّ يدخرن الحناء ويأمرن غيرهن من

---

(١) البرزنجي، النفح، ص١٠٧- ١٠٨

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤ق٢، ص٧٠٧، البصروي، تاريخ، ص٤٦، ١٦٤، ١٩٢، ٢١٨، ٢٢٢

(٣) البصروي، تاريخ، ص١٨٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٢، ٢٣٣، ٣٠٣

(٤) ابن الحاج، مدخل، م١، ص٢٨٩، ابن طولون، مفاكهة، ص١٦٤، قضاة، ص١٥٦، الطراونة، الحياة، ص٢٣٩

(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص١٩٨، إعلام، ص١٣٩، العظمة، مرآة، ص١٤٧، العلبي، دمشق، ص٨٠

النساء بادخاره لاستعماله طول السنة والتبرك به إلى أن يأت موسم عاشوراء القادم، وزعمن أن المسجون إذا بُخّر خرج من سجنه والمريض والمحسود يُشفيان(١).

- **ليلة النصف من شعبان**

أشار شيخ الربوة إلى احتفال الدمشقيين بليلة النصف من شعبان واعتبر التنوير الذي كان يتم فيها من أعاجيب الدنيا، فقد أحصى عدد القناديل التي تم ايقادها فبلغت اثنا عشر ألف قنديل بخمسين قنطار من زيت الزيتون غير ما يوقد بالمدارس والمساجد والترب والخوانق والربط والبيمارستانات(٢).

ونوّه العليمي إلى أعداد القناديل التي كانت توقد في المسجد الأقصى وقبة الصخرة تحديداً فوجدها تزيد على عشرين ألف قنديل، وعدّ الليلة ــ ليلة النصف من شعبان- من عجائب الدنيا متفقاً مع شيخ الربوة، كما أشار إلى زيارة السلطان الملك الأشرف قايتباي (ت٩٠١هــ/١٤٩٦م) إلى مدينة القدس والمسجد الأقصى سنة (٨٨٠هــ/١٤٧٥م) وايقاد القناديل ابتهاجاً بمقدمه، فشبّه الايقاد هذا بايقاد ليلة النصف من شعبان المشهورة(٣).

وخصّص الميسورون من الدمشقيين جزءاً من أوقاتهم لشراء حلوى بهذه المناسبة. كما دأب الناس من جميع أقطار الشام على زيارة قبر الولي الصالح الشهير إبراهيم بن أدهم في جبلة والزاوية الحسنة المقام عنده، ليلة النصف من شعبان، والإقامة بها ثلاثة أيام ثم التسوق بالسوق المقام خارج المدينة، والذي ارتاده الفقراء المتجردون من الآفاق بغية نيل نصيب من الخيرات التي كانت تُفرق في هذا الموسم. وقد اعتاد الزائر الدمشقي أيضاً إعطاء خادم التربة شمعة، فيجمع من الزوار شموع كثيرة تُخصص لخدمة التربة(٤).

لقد عدّ بعض الخطباء الوقود ضرباً من البدع فذكروه في خطبهم وأنكروا على الناس احتفالهم بها، ومن هؤلاء بعض قضاة دمشق حيث ألقى أحدهم خطبة سنة (٨٩٠هــ/١٤٨٥م) في شعبان، تعرض فيها لذكر الشعيل أي إشعال النار في الاحتفالات من قبل البعض فأنكر عليهم هذا السلوك(٥). كما أنكر كثرة الوقود ابن الحاج في مدخله وشبّه من يشعلونها بعبدة النار، النار، وأنكر أيضاً الصلاة التي تقام فيها، وخروج الحريم من بيوتهن كاشفات الوجوه إلى قبور

(١) ابن الحاج، مدخل، م١، ص٢٨٩- ٢٩١، العظمة، مرآة، ص١٤٧
(٢) شيخ الربوة، نخبة، ص١٩٣
(٣) العليمي، الأنس، ج٢، ص٣١٦، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص٣٢٤
(٤) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٧٥- ٧٦، ابن طولون، القلائد، ص٢٦٨
(٥) ابن طوق، التعليق، ص٥٠٤

الأولياء والصالحين والعلماء، ومعهن الدفوف والمغنيات أمام الرجال وما ترتب على ذلك من فساد[١].

- **المولد النبوي الشريف**

كان الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في مستهل ربيع الأول وحتى ليلة الثاني عشر من الاحتفالات المشهورة لدى المسلمين في السلطنة المملوكية[٢]، ففي حاضرة السلطنة كان يُقام احتفال مهيب بهذه المناسبة، فقد عمل السلطان الملك الظاهر برقوق سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٨م) احتفالاً كبيراً حضره شيخ الإسلام والقضاة وشيوخ العلم في حوش القلعة تحت خيمة أعدت خصّيصاً لهذه المناسبة. وبدأ الاحتفال بقراءة القرآن ثم ألقى الوعّاظ عظاتهم وخطبهم، وعندما انتهوا دفع السلطان لكل واحد منهم صرة فيها أربعمائة درهم فضة وكان عددهم عشرون، وأعطى لكل أمير من الحضور شقة حرير ثم أمر بالأسمطة المختلفة فوُضعت وامتدت إليها أيدي الحضور، وتبعها أسمطة الحلوى فأكلت هي الأخرى، وبعد ذلك أقيم سماع القرآن من بعد ثلث الليل إلى قريب الفجر[٣].

أما في نيابة دمشق، فقد عمل السلطان المؤيد شيخ سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) مولداً بالمصطبة ظاهر برزة، حضره خواص السلطان والقضاة والأمراء والقرّاء، وأنعم على القرّاء خلعاً ومالاً. وقد وصف المقريزي ليلة المولد النبوي التي أقامها شيخ بأنها "كانت من الليالي المشهورة المذكورة"[٤].

وكان النائب وقت احتفاله بالمولد الشريف يشرب شربة الورد على العادة بالاصطبل ثم يستمع لقراءة المولد الشريف وإنشاد المنشدين بحضور القضاة إلى آخر الليل[٥]. أما احتفالات أهل دمشق فكانت تتم بحضور جموع من الشيوخ والصالحين والمعارف ما يقارب العشرين نفساً، وكانوا يضعون الحلوى والأقراص أمام الحضور ثم يشرعون في قراءة القرآن والموالد وبعد ذلك يمدون أسمطة مكونة من الفولية والكسكون ـــ يُعتقد أنه برغل كبير الحب- بالدجاج واللحم والأرز الحلو بسكر ودهن ولوز ومشمشية، وبعد ذلك يسقون شراباً بسكر مضافاً إليه ماء الورد.

---

(١) ابن الحاج، مدخل، م١، ص٣٠٨، ٣١٠ ومن الجدير بالذكر أنه تم إبطال الوقيد بجامع دمشق في شعبان سنة (٧٥١هـ/١٣٥١م) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٣٥

(٢) ابن صصري، الدرة، ص١٣٤، البصروي، تاريخ، ص١٩٨، الطراونة، الحياة، ص٢٤١

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣ق٢، ص٨٩٠- ٨٩١، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٤٩٤- ٤٩٥

(٤) المقريزي، السلوك، ج٤ق١، ص٤٠٠

(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٤، ٢٣٨، ٤٦١، ابن طولون، إعلام، ص١١٠

ويتلقون من الحضور نقوطاً وشمعاً، وكانت احتفالات النساء منفصلة عن الرجال. وتميزت احتفالات المتصوفة بذكرى المولد النبوي الشريف برونق خاص جعل الناس يُقبلون عليها بأعداد هائلة وكان أكثر ما يشدهم شعر ابن الفارض(١). وسلكت بعض الفئات الأخرى من الدمشقيين مسلكاً آخر عُدّ من البدع، ومن ذلك الاستماع إلى الأغاني وآلات الطرب وقراءة القرآن بطريقةٍ مهيّجةٍ للنفوس(٢).

ولا بد من الإشارة إلى أن إقامة احتفالات الموالد لم تكن فقط في شهر ربيع الأول فقد كان بعضهم يقيمها إذا عقد قراناً أو إذا فقد عزيزاً أو رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه، فيعمد إلى وليمة ويدعو إليها الناس ثم يُقرأ مولدٌ يبدأ من المغرب ويستمر إلى منتصف الليل(٣).

- عيد قبر الست

وموعده أول أحد من السنة الهجرية وآخر أحد منها، فكان يخرج فيه الدمشقيون إلى قرية السيدة زينب، والتي كانت تسمى قديماً قرية "راوية"، رجالاً ونساءً وأطفالاً، والقرية قبلي البلد قرب قرية حجيرا في غوطة دمشق، وسميت بقبر الست نسبة إلى أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، ويقال اسمها زينب لكن النبي صلى الله عليه وسلم كنّاها أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. ويوجد عند مشهدها مسجد كبير ومساكن بأوقاف، كان الناس يجتمعون عند هذا المشهد بأعداد هائلة ليس فقط للتبرك وإنما أيضاً لرؤية ما يفعله الشيعة هناك، فيحدث بسبب ذلك فساد كبير(٤).

- أعياد أهل الذمة (النصارى واليهود)

احتفل النصارى في نيابة دمشق بعدة أعياد(٥)، أشارت إليها المصادر بشكل عابر كون الغالبية العظمى لسكان النيابة هم من المسلمين. فقد ذكرت عيد البشارة بمولد السيد المسيح عليه السلام وموعده في الخامس والعشرين من شهر آذار، وقد يتقدم العيد فيبدأ في خامس آذار حيث يصوم النصارى شهراً ونصف وبعدها يفطرون في عيد الفصح أو العيد الكبير.

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٧، ٢٣٩، ٣٤٦، ٤٧٠

(٢) ابن الحاج، مدخل، م٢، ص٢، ٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٧٠

(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٦٠، ٢٤٣، ٣٤٧، ٣٥٣

(٤) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٩٢، ابن المبرد، ثمار، ص١٣٩، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٢١، ٢٢٦، ٢٣١، ج٢، ص ٦٧٢-٦٧٣، الحلاق، حوادث، ص١٦٥، ١٦٨، برغوت، جوانب، ص٤١٠، العلبي، دمشق، ص٨٠

(٥) ذكر ابن اياس أن للنصارى أربعة عشر عيداً، منها سبعة كبار وسبعة صغار، فمن الأعياد الكبار عيد البشارة والفصح والخميس والميلاد، أما الأعياد الصغار فأهمها عيد النور وعيد الصليب، انظر نشق، ص٤٠١- ٤٠٣، ابن طوق، التعليق، ج٣، ص١٤٤٤، ج٤، ص١٥٧٥.

ويحتفلون أيضاً بعيد يُدعى (خميس النصارى) وهو اليوم الخمسين من القيامة – قيامة المسيح– [١]، ومن الاعياد المعروفة والتي شاركهم فيها مسلمو نيابة دمشق خميس البيض أو خميس العدس[٢] ويكون قبل عيد الفصح بثلاثة أيام، حيث يملأ الراهب إناء بالماء فيغسل أرجل عدد من النصارى ويجتمع خلق كثير عليهم من أهل دمشق لا سيما عند منطقة خان السبيل والقابون فينتشر الفساد مما يجعل النائب يأمر بإبطال العيد[٣].

ومن الاعياد التي احتفلوا بها أيضاً عيد النور أو سبت النور ويكون قبل عيد الفصح بيوم واحد، وذلك بأن يجمعوا قبل العيد في المساء أوراق الشجر كالريحان وغيره ويبيّتونه في إناء فيه ماء فيغتسلون به ثم يأخذون الماء الذي نزل من غسلهم فيلقونه في طريق المسلمين ويشيعون بين الناس أن هدفهم إبعاد الأمراض والعلل والكسل والسحر عنهم بأذية غيرهم. كما أنهم يدّعون أن شرب الدواء في هذا اليوم ليس كغيره من الأيام من حيث النفع والشفاء[٤].

وكانت نساء دمشق يخرجن في هذا اليوم لشراء البخور والخواتم، ويستعملن العدس المصقى، كما يصبغن البيض ألواناً لأولادهم ولغيرهم ثم تطور حالهن وحال غيرهم فصاروا يلعبون بالبيض مقامرة دون انكار أحد[٥].

أما أعياد اليهود[٦] في نيابة دمشق فهما عيدان عيد المظلة وعيد الفطير[٧]، وسمي عيد المظلة بهذا الاسم لأن اليهود يستظلون سبعة أيام بأغصان الأشجار المختلفة تذكاراً للغمام الذي أظلهم به الله في التيه، ويكون في الخامس من تشرين الأول. أما عيد الفطير فهو يصادف خميس النصارى ويحرمون فيه الخمير، وكان بعض الدمشقيين يخرجون إلى القابون فيظهرون مفاسدهم الأخلاقية[٨].

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢١٧، ٣٤٦، ٤٢٣، الطراونة، الحياة، ص٢٧١– ٢٧٢

(٢) ابن الحاج، مدخل، م٢، ص٥٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٠، ١٤٥، ٣٤٩، ج٤، ص١٧٠٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٤، ١٩١، ٣٠٩

(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٤٩، ج٣، ص١٤٧٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٤١٠، برغوت عبد الودود، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، من مخطوطة أحمد بن أحمد بن طوق، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ط١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٤١٠، الطراونة، الحياة، ص٢٧٤

(٤) ابن الحاج، مدخل، م٢، ص٥٦– ٥٧، الطراونة، الحياة، ص٢٧٥

(٥) ابن الحاج، مدخل، م٢، ص٥٤– ٥٥

(٦) وُجد في نيابة دمشق اليهود الربانيون والقراءون والسامريون، الزيات، اليهود، ص١٦٣–١٦٧

(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٩٠، ابن الوردي، زين الدين بن عمر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط١، ج١، دار المعرفة، بيروت– لبنان، (١٣٨٩هـ/١٩٧٠م)، ص١٢٤، وللمزيد حول أعياد اليهود الأخرى ص ١٢٥–١٢٦، ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٨٣١، برغوت، جوانب، ص٤١١

(٨) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٥٧، برغوت، جوانب، ص٤١٠، الطراونة، الحياة، ص٢٧٨

٢- الأعياد الزراعية

أ- عيد الزبيب

وموعده عند نهاية قطاف العنب أول الخريف في الخامس عشر من محرم أو في الرابع عشر من رجب أو آخر اثنين من شعبان[١]. كان الفلاحون يحتفلون ابتهاجاً بجني محصول العنب وبيعه وتوفير ثمنه بين أيديهم، فيدفعون ديونهم ويعقدون قران أبنائهم بعد الموسم. وقد أشار أحد المؤرخين إلى استحباب الصدقة فيه وقول الكلمات الطيبة مائتي مرة ، وحسبي الله ونعم الوكيل لحديث ورد في كل منهما في هذا العيد[٢].

ب- عيد الجوزة

ويقام الاحتفال به بعد قطاف الجوز في الأسبوع الأول أو الثاني من شهر ربيع الأول أو الأسبوع الثاني من جمادي الأولى. وقد عانى الفلاح في بعض الأحيان في موسم عيد الجوزة من قلة المحصول[٣].

ج- موسم الحلاوة

وهو من المواسم المشهورة في نيابة دمشق ويدعى أيضاً موسم الرغائب وخميس المشايخ. ويكون يوم الخميس من الأسبوع الأول أو الثاني من شهر رجب وقت الربيع. والناس في هذا الموسم كانت ترتاد الأسواق بكثرة لشراء أنواع الحلوى اللذيذة، ونتيجة لانشغالهم تتعطل بعض المصالح كعدم تكامل حضور القضاة في الاجتماعات وغيرها[٤]. لقد عانى الدمشقيون في هذا الموسم من قلة وجود الحلاوة وارتفاع أسعارها، ففي سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م) لم يصنع الناس شيئاً من أنواع الحلاوة بسبب ارتفاع أسعار الدبس والجوز والحلاوة السكرية والفستق[٥]. وفي سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م) كانت الحلاوة قليلة ومرتفعة السعر ولم تُشترى إلا لأجل الأطفال[٦]. ومما ذُكر من البدع التي أحدثها البعض في هذا الموسم (صلاة الرغائب)، وكانت تُقام في أول جمعة من رجب ما بين صلاة المغرب والعشاء في اثنتي عشرة ركعة[٧].

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٧٩، ابن طولون، مفاكهة، ص١٥١، ١٦٤، ٣٠٥، ٣٦٨، برغوت، جوانب، ص٤١٠

(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٦٨، برغوت، جوانب، ص٤١٠

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٥، ٢٣٥، ٢٧٨

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٦٠، ١١٦، ٢٨٢، ٥٣٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٧٨، ج٣، ص١٤٧٥، النعيمي، الدارس، ج١، ص٦٤٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠٠

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٣٤- ٥٣٥

(٦) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠٥، الحسيني، رحلة، ص٢٤٤، الحلاق، مذكرات، ص١٦٥

(٧) ابن الحاج، مدخل، م٤، ص٢٤٩، ٢٥٦، ٢٥٩

د- موسم المشمش

اشتهر الدمشقيون بإعجابهم الشديد بالمشمش وكان المتعممون منهم لاسيما القضاة وشيوخ العلم ينقطعون من أجله عند حضور المجالس والدروس ففي سنة (٧٨٦هـ /١٣٨٤م) شرع قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) في حضور الدرس بعد البطالة للمشمش نحواً من خمسين يوماً ووجد بجانبه موسم القصب في أول نيسان[١].

ح- الولائم والأطعمة

اهتم الدمشقيون بفئاتهم المختلفة بصناعة الأطعمة والأشربة وتأنقها، كما اهتموا بالتقاليد المتبعة في تقديم الأطعمة، فقد اعتاد السلاطين والأمراء العناية بالأسمطة يومياً وأكثروا البذخ فيها بحيث وُصفت مطابخهم بأن النار لا تنطفئ فيها أبداً، وأقاموا الكثير من الموظفين لإعدادها وتزويقها[٢]. ومما يدل على بذخهم ما قام به السلطان الملك الظاهر برقوق سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٨م) حيث جهّز سماطاً عظيماً في الميدان تحت القلعة في القاهرة حضره الأمراء والأكابر، اشتمل على عشرين ألف رطل من اللحم ومائتي زوج أوز وألف طائر من الدجاج وعشرين فرساً مذبوحة، وثلاثين قنطاراً من السكر لعمل الحلوى والمشروب، ومائتي نوع من الحلوى عداها ومائتي قطعة فاكهة منوعة، وثلاثين قنطاراً من الزبيب لعمل المشروب المباح وستين أردباً دقيقاً لعمل الشراب المسكر[٣]، وما أشار إليه ابن طولون سنة (٩٠٦هـ/١٥٠١م) حيث حدّد مقدار طعام نائب دمشق قصروه (ت ٩٠٦هـ/١٥٠١م) فذكر أن له يومياً من الشعير ثلاثون غرارة ومن اللحم عشرون قنطاراً ومن الدجاج عدة مائة ومن الأوز عشرون ومن الخرفان عشرة[٤].

أما العامة فقد اعتبروا الطعام ضرباً من الرفاهية والمتعة والتلذذ إضافة إلى الهدف الأساسي وهو الحاجة، فقام أغلبهم بدعوة أقربائهم ومحبيهم إلى الغداء أو العشاء في بيوتهم في باحة تسمى البحرة أو بين أحضان البساتين والجنائن والمزارع والكروم، وعُدّ ذلك من مكملات الكرم والضيافة[٥].

---

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٣٤، ابن طوق، تعليق، ج٣، ١٤٠٨، ابن طولون، قضاة، ص٣٤٤، الزيات، مشمش، ص٣٦٨-٣٦٩.
(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١٢٥، طرخان، النظم، ص٣٠٢
(٣) ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٥٠١
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٥، ١٨٨
(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٨، ٤٢، ٥٨، ٧٣، ١٤٤، ١٥١، ١٥٣، ١٧٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٧١، ص٧١، القلائد، ص٣٧٣

وكانت عادات الطعام لديهم تتطلب غسل اليدين بالأشنان والصابون ثم البسملة ثم جلوس الضيف على ركبتيه أو قعوده، ويُكره الأكل والشرب مضطجعا، وينوي بأكله وشربه التقوى على الطاعة، ويتناول طعامه باليمين إلا لعذر، ثم يبدأ الأكل بالملح كما يُستحب الختم بالملح، وينبغي أن تُقدم له الفاكهة مع الأكل لسرعة هضمها، ثم اللحم ثم الحلاوة، ويُستحب أن يكون على المائدة البقل لأنه مطردة للشيطان. وينبغي أكل الرغيف من الخبز بكامل استدارته إلا إذا كان قليلاً فيكسره ولا يقطعه بالسكين وكذلك اللحم لا يقطعه، ولا يمسح يده بالخبز، ويُستحب تصغير لقمته وإطالة مضغها، وعدم تناوله اللقمة الأخرى ما لم تنتهِ الاولى، ولا ينفخ في الطعام الحار ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق، ولا يترك بقايا الطعام غير المرغوب فيه مع القصعة لئلا يختلط عليه جيد الطعام من سيئه، وبعد الانتهاء من الطعام يحمد الله ويدعو للمضيف أن يزيد الله في بركاته وحسناته(١). وقد حرص الدمشقيون على تقديم طعامهم بأوانٍ جميلة مصنوعة من الفخار الصيني(٢).

لقد تعددت المناسبات التي جُهز لأجلها الطعام، كما تعددت المسمّيات، فكان هناك الوليمة للعرس، والخرس للولادة، والعقيقة للمولود، والوكيرة لبناء الدار، والوضيمة للميت، والنقيعة للقدوم من السفر، والعذير للختان، والمأدبة للأصحاب، والحذاق لختم القرآن، والتحفة للزائر، والقرى للضيف، والنّزُل لإطعام من ينزل عند آخر لضرورة، والأخوّة، والفرع لأول نتاج الناقة، والعتيرة لشهر رجب، والإملاك لعقد النكاح، وكان هناك الغداء الكبير ظهراً والغداء الصغير صباحاً(٣).

لقد اعتمد طعام الدمشقيين على الخبز فوجد منه الخبز الصافي ويعتقد انه خبز القمح الخالي من أي مواد أخرى والخبز المعروك أي المخلوط مع غيره كالشعير والخبز العادي أو التنوري ويبدو أنه أقل جودة من السابقين(٤). أما اللحم فقد وصف بأنه طعام أكابر الدولة وعلية الناس(٥).

وكانت الأطعمة المختلفة تُطبخ في دسوت أعدت خصيصاً لهذا الغرض، فيضاف للطعام الأرز حيناً والخبز حيناً آخر ومن أشهر أطعمتهم(٦): التفاحية، وتتم بوضع، اللحم ثم تقشير التفاح

---

(١) ابن طولون، فص، ص٧٠- ٧٧
(٢) ابن بطوطة، رحلة، ج١ ص٩٦
(٣) ابن طوق، التعليق، ج٢، ص٧٨٦، ٨٥٥. ابن طولون، فص، ص٣١- ٣٢، ٤١، ٥٠- ٥١، ٥٥، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٧- ٦٨، ٩٠- ٩١، ٩٣، ٩٥.
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص ٣٣٥، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٥٧٨، ج٤، ص١١، ٦٦٠، ٦٥٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٧٧، العلبي، دمشق، ص٢٦٧.
(٥) ابن طوق، التعليق، ج٣، ص١٢٦٠.
(٦) ابن طولون، القلائد، ص٢٦٨.

التفاح وتقطيعه، فيُلقى عليه مع الحلو، وتشبهها السفرجلية وذلك بأن يبدل التفاح بالسفرجل. – ثريد، حيث يُسلق اللحم ويُصب مرقه على الخبز ثم يوضع عليه اللبن والثوم والنعنع وفوقهم قطع اللحم، وهناك ثريد العدس ويكون بدون لحم[1]. سماقية – يُسلق اللحم أو كروش البقر أو الغنم المحشية، ثم يوضع الكرفس والجزر واللفت والحمص والسلق ومن ثم يضاف إلى الجميع السماق المنقوع[2]. ششبرك– يؤخذ اللحم المخروط فيُحشى في عجين ممدود مقطّع ويُطبخ في الماء حتى ينضج ثم يُنزل ويوضع عليه اللبن والثوم والنعنع[3]. قمحية– يؤخذ القمح فيُغلى في ماء قليل حتى ينضج ويجف الماء ثم يُزاد عليه الماء مرة أخرى ويُلقى فيه اللحم. قنبريسية– يُكسر اللبن المجفف فيوضع بالماء ثم يُغلى، ويوضع فيه اللحم والأرز، وقد يُسلق اللحم ثم يوضع عليه اللبن المجفف والمُكسر ثم يوضع الأرز[4]. النارنجية– يُسلق اللحم ويُلقى فيه البصل البصل والقلقاس[5]، ثم يُكسر اللبن فيوضع عليه ويُضاف ماء النارنج[6]. هريسة– يُسلق اللحم ثم ثم يوضع عليه القمح حتى يجف ماؤه وينضج ثم يُفصل اللحم عن العظام ويتم هرسه، وبعضهم يضع حليباً. الصفيحة– اللحم على عجين وقد توضع على الأرز المفلفل. الهليونية– يُسلق اللحم والهليون كل على حدا ثم يُخلط كلاهما فيُفقس البيض عليهما ثم يُضاف الفلفل والكزبرة اليابسة ويوضع الجميع على النار حتى ينضج[7]. شعيرية وشوربة بدجاج أو لحم– تُفلفل الشعيرية كالأرز، ويُسلق اللحم أو الدجاج ويوضع على الشعيرية[8]، أما الشوربة فتتم بسلق اللحم ووضع الأرز، وقد يضيف بعضهم إليها الحمص أو الكزبرة الخضراء. الرشتا بالدجاج أو اللحم– يُسلق اللحم أو الدجاج ويوضع الرشتا وهي تشبه الأطرية، كل ما يُطبخ ويُشرب باللبن، أو يوضع البصل أو الحمص أو الكزبرة الخضراء المخروطة[9]. ومن الأطعمة التي عرفها الدمشقيون الملوخية، وتُصنع بسلق اللحم ثم خرط الملوخية ووضعها عليه ثم توضع الكزبرة المدقوقة مع الثوم والبصل المشوي، وبعضهم يحمضها بالحصرم والليمون. والأرز المفلفل بالرمان أو ما

---

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١٢٥، ابن المبرد، كتاب الطباخة، مجلة المشرق، السنة ٣٥، بيروت، (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م)، ص٣٧١، ٣٧٣، ابن طوق، التعليق، ص١٧٥، ٣١٤

(٢) ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٧٨

(٣) ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥١

(٤) ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٦٣

(٥) القلقاس: نبات أوراقه كبيرة ولبه نشوي يشبه لب البطاطا يؤكل مطبوخاً ومقلياً، النويري، نهاية، ج١١، ص٧٠.

(٦) النارنج: نوع من الشجر المثمر دائم الخضرة رائحته عطرية يتخذ من أزهاره ماء الزهر ويصنع منه المربى. النويري، نهاية، ج١١، ص٧. ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٥– ٣٧٦، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٢٩

(٧) ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٤، ٣٧٦، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٦٢– ١٦٣، ١٧٠، ١٧٥، ٢٤٨، ابن ابن طولون، القلائد، ص٢٦٧

(٨) ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ١٥١، ١٨١

(٩) ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٧٣

يسمى بالرمانية على الأغلب، حيث يُسلق اللحم بماء قليل ثم يُعتصر الرمان أو يُدق حَبُه ويُستخرج ماؤه ثم يوضع على اللحم ويُزيّن بالخضر، أو يُفلفل الأرز ويُقدم مع الرمان[١]. كما عرفوا الأرز باللبن أو ما يُدعى باللبنية. والدشيشة أو الجريشة وهي حساء بجريش القمح. والسمبوسك والعجة[٢] والبقسماط والباذنجان المحشي والبرغل والكشك[٣].

وقد فضّل بعض الدمشقيين أكل اللحم مشوياً أو مقلياً فتناولوه مع اللبن، حيث شهرت القابون بجودة ألبانها. وكانت موائدهم لا تخلو من المقبّلات والمكمّلات أو ـــ الحواضر- كالزيتون المُتبل والقنار الحامض أو الأخضر والخيار الغوري والخردل والزبيب والخس والشومر والبقلة والجبن المقلي[٤]. كما أضافوا لطعامهم انواعاً من الفاكهة كالتوت والمشمش الحموي والعنب الداراني والإجاص والدراق والبطيخ، فكانت تُقدم هذه مع وجبات الغذاء أو العشاء جنباً إلى جنب[٥].

ومن المرجح أن أهل دمشق كانوا يفضّلون شراء الطعام الجاهز بدل الطبخ في بيوتهم لارتفاع أثمان الحطب[٦]، وقد أدى ذلك إلى انتشار المطابخ في الأسواق كمطبخ الحشيشة بباب البريد الموقوف على جهات البر[٧].

وبالغ الدمشقيون في صنع الحلويات وفي أكلها، حتى أصبحت مطلباً أساسياً لا يستطيعون الاستغناء عنه في الأيام العادية وفي المناسبات، وكانت الحلويات تعتمد على مادة السكر، ويتم استخلاص المادة من قصب السكر الذي كان يُزرع في الأغوار الواقعة بين بحيرة طبرية والبحر الميت، ويُشرف على زراعته نائب دمشق لأن أكثره ملكاً للسلطان، في حين يقوم الاستاددار بقطعه وعصره واستخراج السكر منه ثم نقله إلى دمشق[٨].

وقد ذكر ابن حجي في تاريخه سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) أن نائب دمشق أقام في الأغوار نحو خمسة أشهر في عمل القصب مما يشير إلى الانتاج الضخم الذي كان يجنيه من زراعته، غير أن هذا لم يمنع الاستاددار من طرحه على التجار بأسعار مرتفعة جلباً للربح وطمعاً بالمال

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١٢٥، ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٣، ٣٧٦، ابن طوق، التعليق، ج١،ص٢٩٧، ابن طولون، القلائد، ص٢٦٧
(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٧٨، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٤٤، ١٨١، ٢١٨، ٢٢٩، ابن طولون، القلائد، ص٢٦٧، مفاكهة، ص٣١٦
(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٦٣، ١٦٦، ١٧٥، ٣٧٤، ٣٩٩
(٤) المصدر السابق، ج١، ص١٥١، ١٥٣، ١٦٢، ٢٩٥، ٣١٦، ٣٤٨، ج٢، ص٥٨٢، ٦٢٣.
(٥) المصدر السابق، ج١، ص١٦٣، ١٧٥، ٢٩٧، ٣٧٤، ٣٧٨
(٦) ابن حجي، م١، ص٢١٩، العلبي، دمشق، ص١١٧
(٧) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص١٨٤
(٨) يوسف حسن غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ط١، دار الفكر- الأردن، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٣٦- ٣٧

الذي كان ينتفع به السلطان[١]، وقد أثر ذلك سلباً على عامة أهل دمشق فزاد من استيائهم وشكواهم. كما اعتمدت حلوياتهم على الدبس المجلوب من بعلبك والذي كان يُصنع من العنب حيث يضعون العنب في قربة فيجمد وتُكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة ويضيفون إليها الفستق واللوز[٢].

لقد ازدانت موائد الشاميين بأصناف مختلفة من الحلويات وأشهرها القطايف والكنافة والخبيص حيث كان يؤخذ الدبس أو العسل فيتم وضعه على النار حتى تظهر رغوته فتنزع ثم يُكسر النشا بالماء ويوضع عليه[٣]. وصنعوا الحلاوة اللوزية فوضعوا اللوز المحمص مع السكر حتى يعقد، ومثلها السكر على المشمش، وكذلك الجوزية والفستقية والبندقية والقضامية والسمسمية، أما الطحينية فتتم بوضع الطحين وخفقه في الناطف أي الدبس أو العسل أو السكر المعقود ثم يوضع بياض بيض عليه وتحريكه على النار حتى يقوى[٤]. وشهر أهل نابلس بحلواء بحلواء الخروب حيث كانوا يطبخون الخروب ثم يعصرونه فيُستخلص الرُّب وتُصنع منه الحلواء[٥]، وكان الأرز بالحليب قد ألفوا تناوله في معظم الأوقات، واعتادوا أيضاً أكل الأرز الحلو بالعسل أو بالقطر[٦]، وتناولوا المعمول والأقراص المشبك بالعسل في المناسبات السعيدة كمقدم ولد لأحدهم، وختم القرآن وإنهاء الدرس وقدوم رمضان وإقبال مبشر بوصول نائب إلى الرمله من مصر[٧]. وأقبلوا على الشراب المصنوع من السكر أيضاً وقدموه لضيوفهم في المناسبات المختلفة، وعُرف عندهم الأقسمة وهو مزيج العسل والخل والماء، كما عُرف الفقاع المصنوع من الحبوب والثمار[٨]، وكانوا يضيفون عليه الثلج في المواسم الحارة ويشربونه، غير غير أنهم في بعض السنوات من مثل سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٨م) وتحديداً في شهر محرم لم يجدوا الثلج إلا قليلاً، وقبل ذلك بشهر أو نحوه فُقد تماماً، وعندما توفر تم بيعه لهم بسعر مرتفع

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٤٩، ٣٩٨، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص١٧، غوانمة، دمشق، ص٣٦-٣٧

(٢) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٨٠

(٣) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٥٥، ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٢، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٤، ص١٥٤، ٢٩٧، ج٣، ص١٤٨٨، ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٢٤٧

(٤) ابن حجر، إنباء، ج٨، ص٤٤٥، ابن المبرد، الطباخة، ص٣٧٢، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٨، ١٧٥ ١٧٥

(٥) ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٦٣

(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٤٤، ١٦٢، ٢٤٨، ٣٢٨، ٣٧٤

(٧) المصدر السابق، ص٢٤٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٩٩، ١٠٧، ١٨٩، القلائد، ص٢٦٨

(٨) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٠٣، ٣٩٣، ابن المبرد، نزهة، ص٢٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥١، ٢٤٨

والسبب في ذلك ختم الاستادار على ما بقي من الثلج عند الباعة ومنع نقله ليكون مدخراً للسلطان. وكان الثلج يرخص في بعض الأحيان عندما يسقطون مكسه[١].

لقد ارتبط شراء الأطعمة ومدى توفرها بالأسعار، فكلما ارتفعت الأسعار أحجم الناس عن شرائها والأخبار تكاد في هذه الفترة – فترة الدراسة– تُجمع على غلو الأسعار بينما القليل منها يذكر رخصها. فقد ارتفعت الأسعار سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٨م) لا سيما القمح، بسبب تعطل الطواحين من عدم نزول الغيث وقلة الماء، كما فُقد السفرجل وغلا اللحم والأرز والدبس وحب الرمان والخضروات والزبيب والسيرج والخبز، فكثُر السؤال وامتلأت طرقات دمشق بالمحتاجين[٢]. وارتفع سعر اللحم سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٤م) بسبب تغيير العملة فتعطلت معايش الناس وغُلقت الأسواق، وعاد ارتفاع اللحم في السنة ذاتها لكن بسبب انقطاع المجلوب – المستورد– وظلم الاستادار حيث أخذ الغنم رخيصاً وتحكم فيه.

وتعرض الأرز للنهب سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) وسنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م) من قبل نائب قلعة الصبيبة لكونه أخذ بعض الأرز وصالح على آخر مما أدى إلى تضاعف سعره[٣]. وغلا سعر القمح والشعير وصغر حجم الخبز سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) فرجم الناس المحتسب لأنه كان يقوم بالطحانة والخبازة ويتاجر بالقمح ويأخذ مشاهرة عن كل صناعة. كما ارتفع سعر القمح سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) لانقطاع الجلب من بلاد حوران بسبب تخريب النائب لبلاد كثيرة ونهبها ومعاداة شيوخها. وفي عام (٩١٩هـ/١٥١٣م) شكى العوام للنائب غلو الخبز ثم بعد حين عزَّ وجوده فهاج الناس بعضهم على بعض[٤]. وقد رفع ابن إياس قصيدة للمحتسب في بدائعه تُظهر الأثر البالغ والوقع السيء الناتج من ارتفاع أسعار الحلويات بسبب ارتفاع السكر والفستق وترجوه الرخص سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) فقال:

وقد صرت في وصف القطايف هائماً	تراني لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضياً بالله محتسباً عسى	ترخُص لنا الحلوى نطيبُ ونرتعُ[٥]

ط- ألعاب التسلية ووسائل الترفيه

اهتم المماليك بالخيول، فاتخذوا ديواناً للاصطبل وأحدثوا له ناظراً تولى شؤونه وشؤون الخيول، وأوجدوا الاصطبلات الشريفة فكان منها اصطبل الخاص للمراكب الشريفة، واصطبل

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٦٦، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٧٨.
(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٥٩، ٢٧٠
(٣) المصدر السابق، م٢، ص٦١٢، ٦١٨، ٩٠٣
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٧١، ٢٣٥، ٣٠٤
(٥) ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٢٤٦– ٢٤٧

البيمارستان لضعاف الخيول، واصطبل الجوق لخيول الخرج للمماليك الكتابية واصطبل البريد والحجورة حيث يُنتخب منها المناسب للعب الكرة[١].

كان اقتناء الخيول لدى بعضهم ولع وهواية ومضرب مثل، نتج عنه حصول مُلاّكها لا سيما شيوخ العربان على الاقطاعات الواسعة والأموال الكثيرة التي ساهمت في زيادة قوتهم وإدخال الرعب على قلوب أعدائهم من القبائل العربية[٢].

ومارس آخرون ألعاب الفروسية كالمبارزة بالرمح والضرب بالسيف والرماية – البولو–، أو اللعب بالكرة والصولجان والصيد[٣]، ففي سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) لعب السلطان الناصر فرج بن برقوق بالكرة في الميدان المخصص لها في دمشق[٤]، وكان الأمير جاردمر بن عبد الله التركي الملقب بسيف الدين (ت٧٩٣هـ/١٣٩١م) ماهراً بها، إضافة إلى إتقانه لعب الرمح ورمي النشاب والضرب بالسيف وصيد الجوارح[٥]. وعُرف عن الأمير حسين بن أحمد (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م) إجادة رمي النشاب ولعب الكرة[٦]، وذُكر عن الأمير أقبغا التمرازي نائب نائب الشام (ت٨٤٣هـ/١٤٣٩م) أنه ركب بعد الفجر ولعب بالكرة في ميدان دمشق ثم لعب بالرمح وغيّر فيه عدة خيول ، كما غيّر البُرجاس وهو هدف يوضع في مكان عال أو على رمح أو نحوه ليرمى، فمال عن سرجه ومات في القاعة عند باب الميدان، وقد قيل في شأنه :"لم تكن شجاعته في الحرب بقدر معرفته لأنواع الملاعيب والفروسية"[٧].

وقد بلغ من شغف المماليك بلعب الكرة أن نظموا فيها شعراً، فقال أحدهم:

يا حسنها كـــرةٌ كالنجم سائرةٌ	قد طال تردادها بين الجواكيـــــــن
تفرق الهم إذا كانـــــت مؤلفةً	بين القلوب بآراء السلاطيـــــــــن
تجبرهم لقلوب الجند إذ لعبوا	مع الملوك وهم بعض السلاطين[٨]

وكان الأمير سيف الدين سودون الظاهري (ت٨٤٣هـ/١٤٣٩م) عارفاً بأنواع الفروسية باجتهاده، وبرع الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير صارم الدين ابراهيم (ت٨٤٤هـ/١٤٤٠م)

---

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة، ص١٢٥، ابن اياس، بدائع، ج١ق١، ص٣٤٩، ٤٨٥
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٧، طرخان، النظم، ص٧٦
(٣) ابن الفرات، تاريخ، م٩ج٢، ص٢٨٠، ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٦١، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠٢، ٢٨٨، احسان عباس، تاريخ، ص١٥٩، الطراونة، الحياة، ص٣٥٣
(٤) ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٧٨٣، وللمزيد حول لعب الكرة ومواكبها انظر الظاهري، زبدة، ص٨٧
(٥) ابن الفرات، تاريخ، م٩ج٢، ص٢٨٠
(٦) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٤٧٣
(٧) المقريزي، السلوك، ج٤ق٣، ص١١٩٦، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٤٧٦– ٤٧٧. غنام، معجم، ص٦٢.
(٨) ابن اياس، بدائع، ج٤، ص٩٣

بلعب الكرة وأنواع الصيد بالجوارح، وأتقن الأمير سيف الدين شاهين بن عبد الله السيفي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) رمي النشاب[١].

ولم تكن هذه الألعاب حكراً على المماليك، فقد مارسها الأهالي، فمثلاً كان الشيخ شمس الدين القونوي الحنفي (ت٧٨٨هـ/١٣٨٦م) ماهراً في الفروسية واستخدام آلات الحرب محباً لمن يتقنهما[٢]. جرى في سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) اجتماع أهل المحلات والنواحي، الركبان والمشاة، ومعهم الصناجق فأشهروا سيوفهم بالميدان والنائب جالس في خيمته ثم انتقل إلى القصر فلعبوا أمامه بسيوفهم قرابة ثلاث ساعات ثم انفضوا[٣].

كان الصيد شائعاً لدى المماليك أيضاً، فقد كان نائب دمشق يتوجه في فصل الربيع من كل سنة إلى الغوطة وجرود وضمير والخربة ومعه الأمراء والجنود فيغيب مدة قد تتجاوز التسعة عشر يوماً يصيد خلالها الغزلان والحمير، وقد يتأخر خروجه عن فصل الربيع بسبب مجيء السلطان أو صوم رمضان[٤].

ومارس أهل دمشق الصيد أيضاً فاصطادوا الطيور والحيوانات المفترسة، ففي عام (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) حضر جماعة تحت القلعة ومعهم وحوش مُصادة على حمير ما بين ضباع وأتياس وعنيزات وثعالب وغيرها[٥]، واصطادوا كذلك الأسماك في الربوة والوادي التحتاني[٦].
التحتاني[٦].   كما لعبوا الشطرنج وتسلوا به، وكانوا بعد اللعب يحتفظون بالشطرنج في علبة من خشب الأبنوس، إضافة إلى لعبة خيال الظل التي أقيمت الحفلات لعرضها أمام جماهير الناس الذين قَدموا لمشاهدتها والتمتع بها، وكانت طريقة عرض اللعبة تبدأ بإنشاد الريّس أبيات فكاهية مسجوعة، ثم يُنادى على شخص أحدب فيخرج للناس، ثم يتبع ذلك غناء بعض الأزجال[٧].

إلى جانب كل ذلك كانت أسواق دمشق في بعض الأحيان تعج بالمتفرجين لرؤية بعض العروض السركية – الفردية- إن صح التعبير، ففي سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٥م) تنافس رجلان شاب وشيخ في حمل رطل شعير على رأس كل واحد منهما ووُضع تحت الرطل نعل بمسامير،

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٤٧٩، ٤٨٢، ٥٢٧- ٥٢٨
(٢) ابن طولون، تاريخ المزة، ص٧٦- ٧٧
(٣)ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٥٥
(٤) ابن صصري، الدرة، ص٧٥، ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٥٧، ٤٣٤، م٢، ص٥٦٣، ٥٦٨، ٥٨٦، ٦٠٣، ٦٠٣، ٦٠٦، ٦٤٤، ٧٢٢، ٨٥٥، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٣٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٨، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٩، طرخان، ص٣١٧
(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص٨
(٦) البدري، نزهة، ص٨٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٩٤
(٧) البصروي، تاريخ، ص١٨٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٢٠، ٣١٦، المحبي، خلاصة، ج٢، ص٢٧٦، ج٣، ص١٠٢، طرخان، النظم، ص٣٢٠، احسان، تاريخ، ص١٦٠

وكان شرط السباق الا يسقط الشعير من رأسيهما وهما يسيران، وكانت بداية السباق قبة يلبغا ونهايته عند الزاوية الرفاعية بقصر حجاج، فغلب الشيخُ الشاب وسط جموع كثيرة من الناس. وفي العاشر من ذي القعدة سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) حمل رجل أعجمي حجراً كبيراً على صدره فضُرب الحجر من آخرين بمطارق ضخمة فلم تؤثر فيه، وحمل في اليوم التالي جملاً معقلاً على باب وعلى جنبي الباب رجلان فصار ينقلهم من سلسلة إلى أخرى، وهو على مكان مرتفع إلى أن أصبح الكل وسط ظهره، ثم وضعهم على الأرض تحت قلعة دمشق(١). كما تواجد غيرهم من أصحاب الملاعيب والمضحكون والحكوية والمسامرون الذين كانوا ينتقون من أخبارهم وأحاديثهم وألاعيبهم ما تستلذ به الأسماع وتسر العيون وتشتاق إليه النفوس صباحاً ومساءً دون كلٍ أو ملل، غير أن المساء كان أكثر فسحة من النهار(٢).

ومن وسائل التسلية التي ذاع صيتها بين الشاميين احتراف الغناء والإنشاد مع الجوق الفنية والعزف على الآلات الموسيقية كالضرب على القانون والعود والدف والشبابة، وقد كان يُفرض على دور الغناء ضريبة سميت بضمان المغاني، تم إبطالها من قبل السلطان الملك الظاهر برقوق بمدينتي الكرك والشوبك(٣). وانتشرت الخمّارات وازداد روّادها فقد كان عددها سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) نحو مائة خمّارة في دمشق وحدها. وانتشرت أيضاً المسكرات الأخرى كالحشيش، كما شاع وجود البغايا (بنات الخطى) وحماية الدولة لهن، واللواط بين المردان ولعب القمار(٤).

بالإضافة إلى كل ما سبق فقد اعتاد أهل دمشق قضاء أوقات فراغهم بالذهاب إلى المتنزهات العامة المنتشرة في المدن الشامية ونواحيها. وفد فاقت الربوة غيرها من المتنزهات بهجةً وجمالاً، فكان مرتادوها يسيرون إليها من جامع يلبغا فيمشون بين أشجار ومياه وثمار وظل ظليل يحجبهم عن رؤية الشمس حتى يصلون إلى عين ماء باردة يقال لها (الملثم) بها سويقتان يقطعهما نهر بردى، وعين ماء حارة تسمى (السخنة) عليها قبة بين نهر بردى والقنوات وشماليها أربع عيون اثنتان حارتان واثنتان باردتان. وإلى الشرق من الربوة توجد الجبهة التي تنحدر منها مياه القنوات وبانياس، وبجانبها قطية المشابهة للجبهة، وإلى الشرق منها

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١١٧، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٠٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٩٢، وللمزيد حول هذا النوع من التسلية انظر ابن اياس، بدائع، ج٥، ص٢٥٢- ٢٥٢، المحبي، خلاصة، ج٣، ص٤٣٨.

(٢) البدري، نزهة، ص٦٣

(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨١٢، ٨٣٧، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٨٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٠٤، النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٣٣، ابن علوان، نسمات، ص٢٥٤، ابن اياس، بدائع، ج١ق٢، ص٥٣٢، ٥٣٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٣١٠

(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٨٨، البصروي، تاريخ، ص٢٠٥، ابن طوق، التعليق، ص٥٨، ٢٥٤، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢، ١١٥، ١٤٥، ١٧١، ١٧٥، ١٦٧، ١٨٧، ٢٣٤-٢٣٥

القصر الأبلق[1]. وفي الربوة يشاهد المتنزه صيادوا الأسماك وبجانبهم القلايون الذين يقلونه، كما يَرى ذبائح لحم الغنم التي تذبح يومياً والبالغة خمسة عشر رأساً، عدا عن اللحم المجلوب من المدينة، وكانت تُطبخ مع غيرها وتُباع في الزبادي والصحون كما يباع الخبز والفواكه، فيُقبل المشترون عليها مدفوعين برخص الأسعار وإتقان العمل. وبالإضافة إلى الربوة يوجد متنزه البهنسية وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار مع عيون الماء. ومتنزه ست الشام وهو مرجة خضراء بين غياض بها عين ماء باردة وعذبة وبرزة شمال قرية ضمير[2]. وبالجملة فإن جمال غوطة دمشق وحسنها فاق الوصف والخيال، ولعل هذا ما دفع السلطان قانصوه الغوري سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م) إلى غرس أشجار وأشتال أتته من الشام في صناديقها عددها نحو مائة وخمسين غرساً حوَت أشجار تفاح شامي وجوز هند وكمثري وسفرجل وقراصية وكروم عنب وأشتال ورود وزنبق، وضعها جميعاً بالميدان تحت القلعة، فصارت متنزهاً مصرياً يُنزل إليه في كل يوم ويُعمل به المواكب، كما يقيم به "وقد صار هذا الميدان مثل غوطة دمشق ما بين أشجار ومياه جارية"[3].

وهناك متنزه اليلكي بالغوطة بين قريتي سطرا ومقرا حيث كان يجتمع فيه الناس وقت زهر السفرجل فيلعبون بالماء تحت الأشجار كما يوقدون قشور البيض ويُطلقونها في الماء ثم يعلقون قشور النارنج وهي موقدة على الأشجار، فيضربون خيامهم في بستان الحاجب ويقضون أجمل الأوقات. وكان أهل دمشق يجتمعون للفرجة كذلك وقت زهر اللوز، وقد ذكر ابن حجي سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م) أن شيخ المالكية برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم الصنهاجي قد توفي فغسّل ودُفن، وكان عدد من حضر جنازته قليل لأن أكثرهم كانوا يتفرجون في زهر اللوز. وانتشرت أيضاً الدواليب بمراجيح تدور للرجال والنساء[4].

---

(١) البدري، نزهة، ص٨١، العلبي، دمشق، ص١٢٩- ١٣٠، الشلي، بلاد، ص١٨٢- ١٨٣
(٢) البدري، نزهة، ص٨٣، ٢٥٤، ٢٦٠- ٢٦١، لابدوس، مدن، ص٨٠
(٣) ابن اياس، بدائع، ج٤، ص١٠٢
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥١، البدري، نزهة، ص٢٧٤، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٧٠، ٣٢٥، كرد علي، غوطة، ص٥٤.

الفصل الثالث

مظاهر الظلم الاجتماعي

تناولت المصادر التاريخية الظلم الاجتماعي الذي كان سائداً في نيابة دمشق بشيء من التفصيل حتى خُيّل للقارئ أن حياة المماليك جُبلت بهذا الظلم وأصبحت ممارسته عنواناً لبسط سيطرتهم وإحكام قبضتهم على الرعية، ولم يدر بخلدهم ولو للحظات أن ذلك سبيل لكراهية الناس لهم وتصميمهم على التخلص منهم ومن جورهم وجبروتهم.

لقد تفنّن المماليك في عقوباتهم، وتجاوزوا الحدود بحيث شُبّهت هذه العقوبات بالأحكام الفرعونية، وأصبحت كلمة "ظلم" مألوفة في مجالس رعاياهم(١)، فضلاً عن الخوف والرعب الذي كان ينتاب من تقرر عليه العقوبة، مما دعا بعضهم إلى إظهار الفرح وسماع الأغاني والتخلق بالزعفران ورفع أصوات الزغاليط لمجرد بطلان سفره إلى القاهرة لما شكى عليه أحدهم إلى السلطان(٢)، كما قام غيره بتوديع نسائه وأولاده قبل العقوبة لايقانه بالهلاك وعدم عودته ثانية إلى بيته. ومن مظاهر العقوبات:

١- السجون

وكان يتم فيه الاعتقال، وقد وُجدت سجون في مدينة دمشق وأخرى في أقاليمها، أما أشهر سجون دمشق فهي:

- **سجن قلعة دمشق** في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة، وقد أعتبر من حيث البناء والتشييد والإمكانيات أكثر السجون الدمشقية قوة، بحيث كان يوضع فيه المساجين الذين ألفوا الهروب في غيره من السجون، فيعجزون عن تنفيذ ذلك فيه إلا إذا اتفقوا مع الحراس ورجال القلعة(٣). ومن المساجين الذين اعتُقلوا فيه أرغون مملوك أزدمر الكاشف الذي قضى نحبه فيه بعد أن عوقب بمختلف العقوبات سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦) لأخذه أموال الناس ظلما، كما اعتُقل فيه الأمراء العاصون على السلطان سنة (٨٠١هـ/١٣٩٩م) وسنة (٨٠٢هـ /١٤٠٠م) وسنة (٨١٠هـ /١٤٠٧م) وسنة (٨١٣هـ /١٤١٠م)(٤)، غير أن أهم من سُجن فيه السلطان فرج بن برقوق من قبل الملك المؤيد شيخ المحمودي(٥) سنة (٨١٥هـ /١٤١٢م)، وقد انتهى أمره

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٣٥، ٤٦٣، ١٠٢
(٢) المصدر السابق، ص٣٥٨
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٨٨، ٧٣
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٨٤، ٤١٨، ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٢١
(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٦٤، ١١٥

بأن قُتل من قبل أربعة فداوية فيه[١]. ويبدو من خلال استقراء الأحداث وتفحصها أن معظم المعتقلين في هذا السجن كانوا من الأمراء[٢]. لم يكن سجن القلعة المكان الوحيد المُعَد للحبس فقط، فقد وُجد بجانبه جامع القلعة وكان مخصصاً لآلة الحبس، كما وُضع فيه بعض المساجين[٣]، وبرج القلعة[٤] وسجن الخيّالة[٥].

- **سجن باب البريد أو حبس الدم** بمحلة باب البريد على الجهة الغربية من الجامع الأموي[٦]. ويظهر أن هذا السجن قد نال حظّاً أكثر من غيره في حديث المؤرخين فقد ذُكر سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) أن رجلاً حبس فيه بعد أن وُضعت القيود والأغلال في يديه، كان قد اتُهم بالكفر ثم حُكم بإسلامه. وتم سجن آخر سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م) اتُهم بالزندقة فكُشف رأسه ثم وُضع في يديه الحديد واعتُقل[٧].

وتم عزل دواداراً من منصبه سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) وقُيّد في جنزير ثم اعتُقل حافي القدمين مكشوف الرأس في هذا الحبس لتجرّأه على الدوادار الجديد أمام النائب[٨].

- **سجن باب الصغير**، ويقع في منطقة باب الصغير بجوار مسجد واثلة بن الأسقع[٩] في الجهة الجنوبية الغربية من دمشق عند حي الشاغور[١٠]. وتم فيه سجن رجل اسمه إبراهيم، قيل أنه كان يشاكل في مركز الشهود، كما قام بهجاء أحد القضاة فضُرب بالدرة وطيف به البلد ثم حُبس[١١].
- **سجن السد**[١٢]: وقد سُجن فيه سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦م) خطيب زرع محمد بن علي (ت٨١١هـ/١٤٠٨م)، وكان في عنقه جنزير ورأسه مكشوف وحافي القدمين، لانحيازه إلى أعداء السلطان ووقوفه مع أخيه في إحدى قضايا الفساد[١٣].

---

(١) ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٨١٩-٨٢٠
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٠
(٣) المصدر السابق، ص٧٣، ٩٦، ٢٨٣
(٤) ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٨٢٠، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٩
(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١١٣، م٢، ص٨٦٤، ابن طولون، قضاة، ص١٣٨
(٦) ابن المبرد، ثمار، ص٩١، ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص٨٩، خريسات، التوسع العمراني، ص٤٢١
(٧) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٨، ١٦٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٤٨
(٨) ابن طولون، مفاكهة، ص٨٧، وللمزيد حول هذا السجن انظر كذلك الصفحات ١٠١، ١٣٠، ٢٠٦، ٢٧٩، ٣٠٠، وابن طوق، التعليق، ص٤٣٤
(٩) واثلة بن الأسقع: هو آخر الصحابة موتاً في دمشق، توفي سنة (٨٣هـ/٧٠٢م)، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٣٠٧- ٣٠٨
(١٠) ابن المبرد، ثمار، ص٦٤
(١١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤١
(١٢) لم تحدد المصادر مكان وموقع هذا السجن.
(١٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٦٩، ١٧٤

- **سجن القاضي:** يقع هذا السجن بنواحي السبعة[١] تجاه دار الأطعمة[٢] خارج باب توما قريباً قريباً من مسجد القصب، وقد سُجن فيه أحد الفلاحين ثم نُقل منه إلى القلعة سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م)[٣].
- **سجن دوادار السلطان** ويقع غربي جامع التوبة في محلة العقيبة[٤].
- **سجن الدير:** ذكر هذا السجن في حوادث سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) دون تحديد موقعه، وقد تم فيه اعتقال شاب شافعي المذهب اسمه موسى العلماوي، أخطأ في حق الذات الإلهية فقال "ما يخرج من هذا المكان ولو حارب العزة" فتم حبسه من قبل القاضي المالكي نائب الحكم آنذاك، ثم حكم بإسلامه نائب القاضي الشافعي فغضب المالكي وزاد من التضييق على الشاب أكثر مما كان فوضع في يديه القيود والأغلال إلى أن شفع فيه أحد الشيوخ فأُطلق من السجن[٥].
- **سجن دار السعادة:** ورد ذكر عدة أماكن في دار السعادة خُصصت للاعتقال منها علِّية دار السعادة، وقد قُيّد فيها واعتُقل الأمير سودون المحمدي سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م)[٦] بسبب مخالفته لأوامر السلطان الملك الناصر فرج. وهناك مكان آخر للاعتقال في دار السعادة سمّي بيت دار السعادة سُجن فيه سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م) القاضي شمس الدين الأخنائي (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) لهروبه وعدم مناصرته للأمير شيخ المحمودي لما خرج عن طاعة السلطان فرج بن برقوق[٧]. وذُكر منها موضع ثالث للاعتقال وهو مسجد الملك الأشرف موسى (ت٦٣٥هـ/١٢٣٨م) او مسجد دار السعادة، وفيه اعتُقل ابن قاضي القضاة ابن المزلق سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) لعجزه عن دفع ما فُرض عليه على سبيل المصادرة للدولة[٨].
- **المدرسة العذراوية:** تقع بحارة الغرباء داخل باب النصر المسمى بباب دار السعادة، وقد نُسبت إلى الست عذراء بنت أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٥٩٣هـ/١١٩٧م)، وكانت المدرسة وقفاً على تدريس الشافعية والحنفية غير أنها استُخدمت أحياناً كسجن لتنفيذ حكم الترسيم، فقد قبض النائب الأمير سيف الدين تاني بك الظاهري سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٥م)

---

(١) سميت بنواحي السبعة لأن فيها مرقد سبعة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ابن المبرد، ثمار، ص٢٢٢
(٢) النعيمي، الدارس، ج١، ص٥٢٦
(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٣٩
(٤) ابن المبرد، ثمار، ص١٠٠- ١٠١، ١٦٦، ١٨٩، ٢٠٢-٢٠٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٣٤، النعيمي، الدارس، ج٢، ٢٩٢، ٤٢٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٤
(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص٣١
(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧١٣
(٧) المصدر السابق، م٢، ص٩٠٥، ابن طولون، قضاة، ص١٢٧
(٨) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٩٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٥

على دواداره ورسم عليه فيها ثم رفعه إلى القلعة[١]، وتـم فـي السنة نفسها الترسيم على أحد القضاة لإنكاره وجود حجة إرث عنده[٢]، وتم بعدها بسنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦م) طلب القاضي شرف الدين عيسى الغزي (ت٧٩٩هـ/١٣٩٧) إلى دار السعادة ثم رسم عليه في المدرسة لحين إقامة طلب حساب المدرسة الرواحية[٣] وغيرها حسب طلب النائب[٤].

أما فيما يتعلق بأقاليم دمشق فقد وُجد في قلاعها سجون كالتي في عجلون وبعلبك وصرخد وحمص وحماة وصفد[٥]. ومن السجون قلعة الصبيبة في بانياس[٦] حيث اعتُقل فيها أميران سنة (٨٠٢هـ/١٤٠٠م)، كما اعتُقل ثالث سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) بسبب نيابة الشام، وكان السلطان قد اختاره ليتولاها فرفض عرضه[٧]. وذُكرت قلعة بانياس واحدة من السجون، فقد فقد وضع النائب قانصوه البرجي المحمدي فيها دواداره سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، بعدما قيده بالحديد وأخذ ماله[٨]. وأُضيف إلى ذلك سجن المرقب في طرابلس حيث نُقل إليه من قلعة دمشق مجموعة من الأمراء سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م)[٩].

ولم يكتف المماليك بسجون نيابة دمشق، بل كانوا في بعض الأحيان ينقلون مساجينهم إلى سجن المقشرة[١٠] وخزانة شمايل في القاهرة[١١]، فقد ضُرب القاضي شهاب الدين القرشي قاضي قضاة دمشق بخزانة شمايل إلى أن مات سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م). وسُجن إمام قبة الصخرة الشريفة فيها بعد أن ضُرب ضرباً مبرحاً سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م) لانحيازه للأمير شيخ

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص ٨٧، ٩٠.
(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٠٠، النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٧٣
(٣) المدرسة الرواحية: شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي، شمالي باب جيرون، انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٦٥، ٢٧٣
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٥٨
(٥) ابن صصري، الدرة، ص١٨، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٦٦، ابن اياس، بدائع، ج٢، ص٧
(٦) القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٠٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٩
(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٨٠، ابن طوق، التعليق،ج١، ص٣٨
(٨) ابن طولون، مفاكهة، ص ٢١٥-٢١٦، ٢١٨
(٩) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٣٣، م٢، ص٩٢٥، المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٠٩، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٣، ص٣٢
(١٠) سجن المقشرة: يقع بين باب الفتوح والجامع الحاكمي، كان يتكون من أحد الأبراج في سور القاهرة وبجواره مقشرة للقمح، فلما هُدمت خزانة شمايل أمر نائب الغيبة بتعليمات من السلطان بتحويل البرج والمقشرة إلى سجن سنة (٨٢٨هـ/١٤٢٥م)، ويظهرأن هذا السجن كان مخصصاً لأصحاب الجرائم الكبيرة، والدليل أن السخاوي كان كلما مر ذكره قال فيه "حبس اولى الجرايم"، التبر، ص٤٢، ٩٠، القططي، عبد الرؤوف جبر، السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية (٥٦٧ـ٩٢٣هـ/١١٧١ـ١٥١٧م)، رسالة ماجستير، اشراف رياض مصطفى شاهين، الجامعة الاسلامية ـ غزة، (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، ص٣٢
(١١) خزانة شمايل: سميت بهذا الاسم نسبة إلى علم الدين شمايل والي القاهرة في عهد الكامل ابن العادل ابي بكر بن أيوب، وموقعها جوار باب زويلة، وُصفت بأنها أشنع السجون وأقبحها، وكان يُحبس فيها من وجب عليه القتل أو من أُريد هلاكه، قام بهدمها الملك المؤيد شيخ المحمودي سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م) وبنى مكانها مدرسته وجامعه، العيني، السيف، ص٤٦

المحمودي ضد السلطان، كما حُبس قاضي قضاة الشافعية بطرابلس تقي الدين عبد الرحمن بن حجي بحبس المقشرة سنة (٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، وتوفي معلم السلطان ابن الزفيك الحلبي بسجن المقشرة سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م)(١) بعد ضربه بالعصي والمقارع(٢). كما حُبس فيه سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) أيضاً شهاب الدين الرملي لتصميمه على عدم إعطاء السلطان ما كان مقرراً عليه من أموال ثم أُطلق(٣). ويبدو أن السجون لم تكن حِكراً على الرجال، فقد وجد بجانبها سجن للنساء ذكره ابن طوق دون أن يفصل الحديث عنه(٤).

عانى السجناء الدمشقيون أشد المعاناة في السجون الآنفة الذكر، وكانت معاناتهم تبدأ لحظة إلقاء القبض عليهم، حيث كان يتم ذلك أمام أعين الناس وفي وضع مهين من كشف الرأس ووضع القيود والأغلال في اليدين والجنازير في الرقاب والضرب بالعصي، وقد وصل الأمر بالمعاونين زيادة على ذلك أن نهبوا بيوت المسجونين قبل سَوقهم إلى السجن(٥). وحينما كان يصل السجين إلى الحبس يتم ضربه بالسياط كما يتعرض لأنواع مختلفة من العذاب فيقوده هذا في بعض الأحيان إلى الجنون أو الموت(٦). وكثيراً ما لجأ المساجين إلى الهروب من السجون للتخلص من الأذى والعقاب المستمر الذي كانوا يتعرضون له، فقد نُقّب حبس الخيّالة بالقلعة سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٤م) وهرب من فيه من المساجين سوى واحد لضخامته، ثم مُسكوا في عكا وتم توسيطهم وتوسيط السجّان الذي أعانهم. وقام الامراء سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) بكسر قيودهم وفتح سجن القلعة والخروج منه غير أن الحاجب ومن معه قاموا بإعادتهم، ولما سُئلوا عن سبب هروبهم أجابوا بأن الدافع وراء فعلهم الجوع(٧). وفي سنة (٨٩٦هـ/١٤٩١م) نُقّب حبس دوادار دوادار السلطان وخرج منه جماعة. واستخدم الأمراء سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) الحبال عند هروبهم من حبس القلعة، إلا أنهم أُعيدوا إليها مرة أخرى(٨).

وفي بعض الأحيان كان آخرون سواء أهل السجين أو معارفه يقومون بتهريبه، ففي سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) كُسر سجن القاضي بنواحي السبعة وخرج المساجين، كما كُسر حبس باب

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص٢٥، ج١٣، ص٩٨، ج١٥، ص٤٤٧
(٢) ابن طوق، التعليق، ص٧٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٤٢
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٠
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٠، ابن طوق، التعليق، ج٣، ص١٢٤١.
(٥) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٥٦، ٨٦٤، ابن طوق، التعليق، ص٣٨، ١٦٨، ٣٨١، ٤٩٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٧، ١٢٧، ١٣٠، ٢٨٥، ٣٠٠
(٦) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٨٤، م٢، ص٩٣٢، ابن طوق، التعليق، ١٢٧، ١٦٥، ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٧٩٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٨، ١٢٨، ٢٧٩، ٣٠٩
(٧) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦٣٠- ٦٣١، ٩٣١- ٩٣٢، وانظر أيضاً للمزيد حول هروب الأمراء ص١٠٣٣
(٨) ابن طولون، مفاكهة، ص١١٤، ٢٢٠، وللمزيد حول استخدام الحبال في الهروب انظر ص٦٨

البريد من قبل جماعة من القابون يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنة (٨٩٩هـ/١٤٩٤م) فأخرج السجناء منه، ثم تقاتل مماليك النائب مع المنقذين فقتلوا عدداً منهم ومن أهل الصالحية ما قُدّر بمائةٍ وخمسين رجلاً عند باب البريد وباب العنبرانيين وعند قبر زكريا بالجامع الأموي فتخبطت دمشق وامتنع القضاة من الحضور يوم الاثنين بدار العدل(١). وقد يُفك أسر المساجين بأمر من السلطان أو النائب أو بشفاعة آخرين ووساطتهم أو بغرامة من المال، فقد حدث سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) أن عُيّن شرف الدين شيخ نائباً جديداً لدمشق فرَسم بإطلاق بعض المسجونين بقلعة الصبيبة(٢). وقام نائب دمشق قجماس الاسحاقي الظاهري (ت٨٩٢هـ/١٤٨٧م) سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) بإطلاق سراح المحابيس تقرباً إلى الله(٣)، وحذا حذوه نائب دمشق سيباي سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) فقام بالإفراج عن المحابيس بعد شفائه من الأوجاع التي أصابته نتيجة سقوطه عن الفرس(٤).

٢- أشكال العقوبات

- **المناداة والتعزير**(٥)

وتعني أن يُمسك المذنب فيطاف به في أنحاء المدينة ثم ينادى عليه ويُشهر فعله، وقد يركب حماراً بالمقلوب وتوضع الأجراس في رقبته ويكشف رأسه(٦). والأمثلة على هذا النوع من العقاب عديدة منها ما حصل سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) لما عُزر ابراهيم الملكاوي (ت٨٠٤هـ/١٤٠٢م) وضُرب أسواطاً ثم نودي عليه فأُطلق وأُعيد ضربه ضرباً مبرحاً مرة أخرى ونودي عليه وبولغ في آذاه ثم حكم بسجنه من قبل أحد القضاة. وتم القبض سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م) على جماعة من قطّاع الطرق شرقي دمشق فأُخذ ما معهم من المسروقات وأُدخلوا دمشق راكبين بالمقلوب والزمر بين أيديهم، وفي سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م)عُزر أحد قضاة حمص لحكمه بغير ولاية ثم سُجن بالقلعة(٧). وضُرب أحد العربان سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) ضرباً مبرحاً ثم جُرّس من المصطبة إلى المدينة، اتهم بأنه جاسوس لابن

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٣٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٣١، ٦٢، ٦٥، ٢٠٦، ٢٤٢، ٢٥٢
(٢) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧١٦
(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٦٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٦، ٦٨
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٨، إعلام، ص١٩٧
(٥) غوانمة، دمشق، ص١٠٦.
(٦) ابن طوق، التعليق، ج٢، ص ٩٤٠، ج٣، ص١٤٩٢، المحبي، خلاصة، ج٣، ص٣٠١، غوانمة، دمشق، ص١٠٦
(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤٥٣، ٥٢٩، م٢، ص٨٦٧، وللمزيد ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٢،٦٢

عثمان. وقام القاضي المالكي سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) بضرب أحد القضاة ثم أركبه حماراً مقلوباً وكشف رأسه وجرسه[١].

- **العصر**[٢]

وهو نوع من التعذيب ويتم بسحب الشخص إلى آلة تسمى المعصرة، تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما يوضع بينهما وجه المذنب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ثم تُشد الخشبتان شدّاً وثيقاً ويُضغط عليه حتى تكاد تخرج روحه، ويترتب على ذلك في أغلب الأحيان كسر العظم المعصور بين الخشبتين[٣]. نال هذا العقاب ناظر جيش دمشق سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م) وألزم بدفع ستة آلاف دينار ثم أفرج عنه[٤]. كما نُفذ هذا العقاب في والي الولاة الذي كان مسجوناً سنة سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦م) وطُلب منه مال جزيل. وعوقب به شاهين الطواشي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) ليُقر على أموال النائب، وبعد عصره ضُرب فمات. وفي سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) قبض السلطان على القاضي الشافعي والمالكي وعلى الوزير، فرُسم على القاضيين وضُرب الوزير وعُصر ثم ألزم الجميع بدفع مال[٥].

- **التسمير والصلب والتوسيط**[٦]

التسمير: أحد أنواع العقاب الذي اشتهر به المماليك، وكيفيته تكون بإحضار أداة تسمى لعبة التسمير أو صليب من خشب يُجر بالعجل، ودق مسامير حديد في أكف المذنب ورجليه ثم وضعه على هذه الأداة ساعات أو أياماً حتى يموت فيكون تسميره تسمير عطب أو هلاك. وهناك تسمير آخر سُمّي تسمير سلامة، كان يتأذى بواسطته المذنب ثم يُفك منه التسمير ويُعفى عنه[٧].

أما التوسيط فهو أحد طرق الاعدام، ويتم بأن يُعرى الشخص من الثياب ثم يُشد إلى خشبة موضوعة على الأرض فيُضرب بالسيف تحت سُرته بقوة حتى يُقسم جسمه نصفين فتخرج أمعاؤه إلى الأرض[٨]. وممن نفذ في حقه التسمير مجموعة من الأمراء سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) وقفوا مع الحاجب ضد السلطان الملك الظاهر برقوق، وبعد تسميرهم أُركب

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٢٩، ابن طولون، مفاكهة، ص١٤٤

(٢) انظر حوله: غوانمة، دمشق، ص١٠٨.

(٣) القططي، السجون، ص١٥٠

(٤) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٢، ص٢٠

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٧٣، ٤٢٥، م٢، ص٧٩٩

(٦) انظر للمزيد: غوانمة، دمشق، ص١٠٨.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٣، ص١١٤٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٥، ص٣٢٦، ابن اياس، بدائع، ج٢ ج٢ ق١، ص٢٧٤، ٣٣٣، ٣٦٨، ٣٧٠، ج٣، ص٢٣٢، القططي، السجون، ص١٤١

(٨) ابن أجا، تاريخ الأمير يشبك، ص٧٧، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٧٣، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٧٨، إعلام، ص١٠٢

كل مملوكين على جمل وظهر أحدهما إلى ظهر الآخر ثم وُسّطوا. وتكرر عقاب الأمراء بالتسمير من قبل السلطان الظاهر برقوق سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م) وسنة (٧٩٣هـ/١٣٩١م)[١]. وممن نفذ في حقه التسمير أيضاً جماعة من المنسر ــ السرّاق- كانوا قد اقتحموا الدور والحوانيت والطواحين سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م) وأخذوا ما كان موجوداً وقتلوا من قاومهم من الناس، فسُمّروا تسمير هلاك ثم عُلّقوا بكلاليب في أعناقهم[٢].

ففي سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م) تم القبض على سُراق من قبل مقدم بلاد الزبداني، فسُمّر نحو ستة منهم وخلال ذلك أقر قسم عن بعضهم البعض وامتنع آخرون فأمر الحاجب بشنكلتهم فشنكل ثلاثة أشخاص تحت القلعة بالمشنقة حتى أقرّوا على نساء ورجال. وفي سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) تمكن نائب صفد من مسك والي بانياس ثم استولى على ما معه، وأرسله إلى النائب فدخل مشهّراً ومسمّراً ثم نودي عليه بالعصيان فأمر النائب بقتله قرب باب الاصطبل[٣]. وأشد عنفاً من هذه الحادثة ما حصل سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) عندما دخل قاتل أحد الأمراء مسمّراً، ثم سُلخ وحُشي تبناً وطيف به في أرجاء دمشق[٤].

أما فيما يتعلق بالتوسيط[٥] فيظهر أنه أكثر العقوبات قسوة وشدة بحيث كان أرباب السيوف إذا أرادوا حث وإجبار الآخرين على الاستجابة لمطالبهم قاموا بتهديدهم بالتوسيط[٦]. والأخبار عن التوسيط ونتائجه كثيرة منها ما تم سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) لما تقاتل أميران فقام أحدهما بتوسيط الآخر فقتله، وسنة (٨٠٧هـ/١٤٠٥م) عندما أمر النائب بتوسيط قطّاع طرق كانوا قد هربوا من سجن القلعة، كما وسّط السجّان والذين أعانوهم على الهرب.

وحدث سنة (٨٩٩هـ/١٤٩٤م) أن وُسّط نصراني بحارة النصارى أمام منزله بسبب قتله لزوجته كونها فرضت عليه دراهم لإرضاع ولديهما[٧]. ووسّط نائب الغيبة شاب شريف سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) من غير جرم فثار الغوغاء وهجموا على حارة العبيد وقتلوا جماعة منهم ونهبوا بيوتهم وبيوت من حولهم لا سيما ما كان قريباً من بيت نائب الغيبة، وكادوا يُمسكون به لولا تدخل نائب القلعة ومناداته بالأمان فعُزل نائب الغيبة وتم تعيين دوادار السلطان

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٤، ج١٢، ص٣٤

(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٣٦، وللمزيد حول التسمير انظر أيضاً ص٥٦، ٧٩، ٢٢٩، ٥٢٣، م٢، ص٨٠٣، ٨٣٠، ٨٨٤، ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٤، ص٢٦٣.

(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٠- ١٥١، وللمزيد ص٢٧٩، ابن طولون، مفاكهة، ص٩١

(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٢١٩، للمزيد حول التسمير انظر الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٤٥٤.

(٥) انظر حوله: غوانمة، دمشق، ص١٠٩.

(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٤٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٥

(٧) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٦٣١، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٨٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢٦، وللمزيد حول التوسيط انظر فيه الصفحات ١٥٢، ١٦٠، ١٨٣- ١٨٤، ٢٣٣، ٢٢٨، ٢٩٦، ٣١٦، ٣٣٢

بدلاً منه فسكنت الفتنة. وسعى دوادار السلطان سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) لدى النائب في إعدام خمسة من أهل المزة بعد أن دُفع له مبلغ مائة دينار، فتم توسيطهم واحداً بعد الآخر[١].

- **الضرب بالمقارع والخوزقة[٢]**

المقرعة: هي السَّوط، وهي خشبة في رأسها سَيْرٌ يضرب به البغال والحمير، وكان سيْر المقرعة لدى المماليك يسمى "شيب".

أما الخوزقة: فهي تتم بغرس عصا من حديد مدببة في الأرض ثم يوضع المذنب عليها لتدخل في دبره[٣].

تنوعت عقوبات الضرب فكان منها الضرب بالدرة والعصي، وقد عوقب بهما على سبيل المثال سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) أحد المتهمين من قبل القاضي الأخنائي، فقام بضربه ضرباً مبرحاً على رجليه بالعصي وبين كتفيه بالدرة ثم أودعه السجن بسبب ما نُسب للرجل من النميمة والكذب وإلقاء الفتن بين الناس[٤].

وأُضيف نوع آخر إلى هذا النوع وهو الضرب بالسياط، وقد ضُرب به أحد المساجين البعلبكيين في حبس الدم سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م) كان قد صرّح بألفاظ كفر، وبعد أن ضُرب أشهر وأُعيد إلى الحبس ثم حُكم باسلامه فأُطلق. كما استخدمه القاضي المالكي عندما أراد تأديب رجل من الكرك أساء إلى الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وبعد الضرب طيف به بدمشق ثم سُجن[٥].

أما النوع الثالث فهو الضرب بالمقارع، ويظهر أن هذا النوع كان أكثر الأنواع شيوعاً وشهرة، وقد تم استخدامه في سنة (٧٩٣هـ/١٣٩١م) عندما ادعى شخص من أهل الشام على أحد القضاة بأنه أخذ له قماش ومال، فأحضر السلطان الظاهر برقوق القاضي وضربه بالمقارع ثلاثة وثلاثين شيباً وقيل خمسين ثم سلمه لوالي القاهرة فضربه مرة أخرى بالمقارع ثم أودعه خزانة شمايل فتوفي فيه مخنوقاً[٦]. وفي سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م) توفي شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن الأعرج بعد أن عوقب بالمقارع بسبب استيلائه على أموال الناس والدخول فيما لا يعنيه وإتباع سبيل الشر. وتم في سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) ضرب استاددار النائب

---

(١) ابن طولون،، مفاكهة، ص٢٢٦، ٣٠٣
(٢) انظر حوله: غوانمة، دمشق، ص١٠٧.
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٢، الطراونة، الحياة، ص٢٢٤، القططي، السجون، ص١٤٦
(٤) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٤١، م٢، ص٩٤٢، وللمزيد حول هذا النوع انظرأيضاً: ابن طوق، التعليق، ص٥٤، ٤٩٣
(٥) ابن طوق، التعليق، ص١٦٥، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٢٧٣، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٤، وللمزيد ص١٨٣
(٦) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٣٥، ابن الفرات، م٩، ج٢، ص٢٧٥

بالمقارع على باب دار السعادة. وقُبض في سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) على جاسوس من الصعيد كان يعمل لحساب العثمانيين فضُرب ضرباً مبرحاً بالمقارع وجُرّس من المصطبة إلى المدينة(١). وهجم والي البرمع جماعة النائب على نقيب الأشراف سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) فعرّاه النائب ليضربه بالمقارع فرأى أثر ضرب المقارع على جسده فسأله عن خبرها فأجابه بأن جان بلاط (السلطان الأشرف) لما كان نائباً لحلب قام بضربه بالمقارع فأمر بأن يلبس، وجيء بابنه فضُرب بالمقارع أمامه ثم أُخرجا إلى حبس الدم مقيدين بالحديد ومكشوفا الرأس وحافيا القدمين، وأخذ السجان منهما ثلاثمائة درهم ثم نُهب بيت النقيب وهُتكت حريمه.

لكن أغرب الحوادث ما حصل سنة (٩١٦هـ/١٤١٠م) حيث شكى رجل يُعرف بابن سليمان على أبيه لدى النائب بأنه يملك صطلين من الذهب، فساقوه ليُضرب أمام ولده بالعصا، فلم يرض الابن بالعصا بل بالمقارع، وطلب منهم بعد أن يفرغوا من والده أن يحضروا أمه ليضربوها هي الأخرى بالمقارع!(٢).

أما عقوبة الخوزقة فقد نُفذت على مماليك الحاجب الكبير وسريتي قاضي القضاة سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) بسبب قتل الأخير من قبلهم وسرقته، وقبل الخوزقة أُلبست السرية الكبرى طرطور المساخر فأُغمي عليها قرب باب السعادة، وتم إدخال الجميع على النائب في الاصطبل فأمر بخوزقتهم على أوتاد ممدودة بجانب الخندق فمات رجلان واستمرت السرية حية وهي مخوزقة فأمر النائب بخوزقتها مرة أخرى فماتت. وحُكم على رجل أزعر من الصالحية سنة (٩٠٥هـ/١٥٠٠م) بأن يُخوزق هو وابنة خطا اسمها جان سوار. كما حُكم على آخرين من زعر الصالحية مجرمين قاتلين سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) فأمر بخوزقتهما(٣).

- **الشنكلة والشنق**

الشنكلة هي تعليق المحكوم بكلاليب معقوفة تحت إبطيه حتى ينزف بشدة فيموت(٤). وقد وقد عوقب بهذا العقاب جماعة من المناسر ــ السُرّاق- حيث قبض عليهم النائب وعلّقهم بكلاليب في أفواههم وكبس بيوتهم سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م)، فشكر السلطان فعل النائب وأرسل له خلعة. كما عوقب بعض الحرامية بهذا العقاب فتم شنكلتهم سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م)، ونال غيرهم هذا العقاب بعدهم بعام فاتُهموا بالسرقة ثم شُنكل أحدهم وبقي على حاله حتى أشرف على

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٨٤٢، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٢٩، للمزيد انظر، الصيرفي، نزهة، ج٣، ص٢٥٦.
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٦، ٢٨٣، وانظر كذلك الصفحات ١٢٨، ١٦١
(٣) المصدر السابق، ص١٤٢، ٢٣٢
(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٠، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٤، القططي، السجون، ص١٤٠

الموت[١]. واستخدم هذا النوع من العقوبة دوادار السلطان جان بلاط سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) فقام بالقبض على أحد زعر الصالحية المجرمين فسيق إلى النائب فأمر أن يُشنكل ليعترف بما نهبه من الناس، وعُلّق على شجرة قرب دار السعادة، فلما أراد النائب السفر لقتال ابن الحنش نبّه جان بلاط النائب إلى خوفه من أهل الصالحية أن يأتوا ويُنزلوا المشنكل من الشجرة فأمر بإنزاله وتقريعه وشنقه، فتم ذلك والنائب راكب على فرسه[٢].

أما الشنق فكان يتم أولاً تحت قلعة دمشق ثم أصبح سنة (٨٩٩هـ/١٤٩٤م) على تل عالي بجانب مئذنة الشحم القريبة من الجامع الأموي. وورد ذكر المشنقة في الساحة الكبيرة عند مرجة القصارين في دمشق عند محلة بين النهرين وقد شُنق فيها أخو الأمير ابن القوّاس الذي كان مسجوناً بقلعة دمشق سنة (٩٠٧هـ/١٥٠١م) نكايةً بأخيه الذي عصى نائب الغيبة[٣]. كان الشنق يتم بتعرية النصف العلوي للمذنب ثم يُلف حبل المشنقة حول عنقه، وطرفه الآخر يدور حول بَكرة مثبتة في عارضة المشنقة، فيقوم المشاعليه بشد الحبل فيرتفع المحكوم إلى أعلى، وفي الوقت ذاته تضيق الحلقة التي حول رقبته إلى أن يموت[٤].

ومن حوادث الشنق التي تسترعي الانتباه ما تم سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي الحجة حيث قام شخص بضرب بضرب آخر فجرحه، وبعد عدة أيام مات المضروب، فاجتمع العوام واستغاثوا بالنائب وكادوا يرجمونه، فطلب من القاضي المالكي أن ينفذ فيه حكم الله، فأرسل وراء نائبه وامتدت القضية في دار النيابة إلى قريب العصر دون أن يُنفذ الحكم فلجأ القاضي إلى منزله والعوام ينتظرون، ولما طال انتظارهم أخذوا يرجمون بيت القاضي إلى أن أسكنهم النائب بمناداته بالأمان والاطمئنان، ثم قام يوم الجمعة ليلاً بشنق القاتل خوفاً من العوام. وقام رجل سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) بشنق نفسه قرب إحدى القنوات، وشنق النائب شاباً في السنة نفسها لمجرد رؤيته يحمل سكيناً وهو سكران[٥].

ومن حوادث الشنق الأخرى ما تم سنة (٨٩٦هـ/١٤٩١م) حيث قُبض على حرامي بدمشق اعترف بسرقة عملات كثيرة فأمر النائب بشنقه في الحال فأنكر الناس فعله، وما حصل سنة (٩١٨هـ/١٥١٢م) لما قامت امرأة غريبة عن دمشق كانت تسكن بمحلة السويقة المحروقة في الميدان التحتاني، بحرق بنتاً صغيرة بعد سرقة حلقها وأسورتها وخلاخيلها، ثم قامت بإخفائها وهي قتيلة في منزلها، فشاهدها طفل فأقرّ عنها فضُربت واعترفت بجريمتها، فأُمر بشنقها

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٥٠- ١٥١، ٢٨١، ابن اياس، بدائع، ج١ ق٢، ص٦٤٦
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص١٧٤، وللمزيد حول هذا النوع انظر ابن طولون، التعليق، ص١٥٠، ٢٨١
(٣) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٦٣، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣١، ١٩٩- ٢٠٠، العلبي، دمشق، ص١٤٢
(٤) الطراونة، الحياة، ص٢٢٠
(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٢٠- ١٢١، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٣٥

فشُنقت قرب منزلها، ثم أُنزلت بالحبل الذي عُلقت به وسُحبت إلى جانب أحد الأنهار ثم دُفنت[١].

- **عقوبات أخرى**

تمت الإشارة إلى بعض أنواع التعذيب التي لم تكن بمستوى العقوبات الآنفة الذكر ذكراً واهتماماً، ومنها: الخنق، وقد استخدمه السلطان الملك الناصر زين الدين فرج ابن الملك الظاهر (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، حيث قام بقتل الأمير تنم نائب الشام والأمير يونس الرماح نائب طرابلس بقلعة دمشق خنقاً بعدما قررهما على الاموال التي أخذوها من العباد سنة (٨٠٢هـ/١٤٠٠م)[٢].

ووُجد بجانب الخنق التغريق، وقد لجأ إليه نائب دمشق سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) فأمر بتغريق سرية حُبلى اشتركت في سرقة وقتل سيدها مع آخرين، فعُرّيت وثُقّلت بحجارة ثم أُلقيت في ماء عميق بنهر بردى[٣]. وذُكر من انواع العقوبات "المارستان" حيث أشير سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) إلى وضع أحد المرافعين الشاميين الكذابين في المارستان في الحديد في القاهرة. وتكررت العقوبة تلك في السنة ذاتها ولكن بشيء من الايضاح، فقد تشاجر شامي مع أحد المرافعين من بني قومه، وكانت بينهما عداوة، فأمر الأمير الكبير بوضع المرافع في المارستان في الحديد مع المجانين كما فعل بالمرافع الذي سبقه وقال: كل مرافع يأتي إلى القاهرة أفعل فيه هكذا![٤].

وكان لحوادث الزنى عقوبة خاصة وهي الإخصاء، فقد نُفّذت بنائب بعلبك سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) لما أقرت عليه امرأة فعل بها الفاحشة كان قد ادعى أنها أخته، وأخذها من دمشق إلى بعلبك بعدما طلقها زوجها، فطلبه النائب فجاء ماشياً وواجهه بما فعله بدار العدل ثم أمر بإخصائه فأُخصي. وحدث سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) أن اتُهم شيخ سوق الدهشة الواقع شرقي الجامع الأموي بأنه وُجد على باب احدى النساء فرُفع أمره إلى النائب فأمر بإخصائه، فقدم مالاً لقاء التخلص من العقوبة قُدّر بخمسمائة أشرفي، وأخذ النائب من والد المرأة ألف دينار[٥].

أما عقوبة الشعراء فهي الأخرى من نوع خاص، وكانت تتم بقطع جزء من اللسان وبعض الأصابع، وقد نُفّذت في الشاعر الدمشقي ابن الزعفراني أحمد بن يوسف (ت٨٣٠هـ/١٤٢٧م) حيث أمر السلطان فرج بن برقوق سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م) بقطع لسانه وعقدتين من أصابع يده اليمنى لوضعه أبيات من الشعر تنبئ بزوال حكمه، وجرى تنفيذ الحكم

---

(١) ابن المبرد، ثمار، ص٥٠، ٢٣٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١١٢، ٢٣٥، ٢٩٩

(٢) الصيرفي، نزهة، ج٢، ص٥٧، ابن اياس، بدائع، ج١ ق٢، ص٥٨٣، ٨١٩، وللمزيد حول الخنق انظر أيضاً ابن طولون، مفاكهة، ص١٨٨، إعلام، ص١٢٩

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١٤٢

(٤) ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٧٦

(٥) ابن المبرد، نزهة، ص٢٢، ابن الحمصي، م١، ص٣٨٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٩٢

فقُطع جزء من اللسان لا كله لأن منفّذ العقوبة أشفق عليه وحزن لحاله، فأظهر الشاعر الخرس لحين وفاة السلطان ثم عاد لنظم الشعر[١].

وبالإضافة إلى هذه الأنواع، ورد ذكر لعقوبة سقي المحكوم الكلس والماء وضربه، وقد طُبّقت على أحد الحرامية سنة (٩٠٦هـ/١٥٠١م) لنزع اعترافه غير أنه مات قبل أن يقر على شيء.

وأُشير كذلك إلى عقوبة النفي من مصر إلى بلاد الشام أو العكس، ويظهر أن هذه العقوبة كانت تُنفذ في أغلب الأحيان على الأمراء والمماليك، فقد تم نفي عدة مماليك سنة (٧٨٦هـ/١٣٨٤م) قصدوا قتل السلطان، كما نُفي غيرهم من الأمراء سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) وسنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م). وفي بعض الحالات تم استخدامها مع الدوادارية والقضاة، وقد عدّ القاضي الشافعي سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م) نفي قاضي حنفي من دمشق إلى مصر أعظم تعزير فقال مخاطباً السلطان آنذاك "وأي تعزير أعظم من حمله من دمشق إلى مصر[٢]. لجأت بعض المصادر إلى استبدال كلمة "نفي" بـ "تسفير"، حيث ذكر ابن طولون في حوادث سنة (٩٠٦هـ/١٥٠١م) أنه تم القبض على الأمير قصروه نائب دمشق ورُسم بتسفيره إلى مكة المكرمة بطالاً محتفظاً عليه وجماعته.

- **الرميات والمصادرات**

الرميات: كان من عادات حكام المماليك في نيابة دمشق أنه إذا قُتل قتيل في حارة، فإنهم يفرضون عليها غرامة حتى وإن عُرف القاتل وقُبض عليه، واتسع المعنى فشمل حوادث القتل دون وجود قاتل، كالذي تم في سنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) لما سقط صبي في إحدى القنوات ففُرض على المحلة القريبة من القناة والمحلات المجاورة مالاً، وحدث سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) أن شنق رجل نفسه فوُضع على محلته أيضاً مالاً[٣].

واستُخدم تعبير مرادف للرميات وهو المصادرة، فقد وُجد صبي مذبوحاً في محلة قصر حجاج ظاهر باب الجابية سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٥م) فصودر أهل المحلة، وصودر أهل محلة قيسارية الخواجا ابن الرسام جوار المدرسة الطبرية لمقتل ناظرها[٤].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤ ق١، ص١٧٧، ج٤ ق٣، ص١٢١٢، ١٢١٧- ١٢١٨، وللمزيد حول هذا النوع، ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٩٨، المنهل، ج٢، ص٢٧٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٤٣

(٢) ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٣٧، ٢٤٢، ٣٠١، ج١٢، ص٩٧، ج١٥، ص٤٤٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٩٥

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٢١٦، ٢٣٥، إعلام، ص١٠١

(٤) ابن المبرد، ثمار، ص١٢٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٣٥، ٢٣١، وللمزيد حول ترادف المعنى ص٢٥٥، ٢٩٦

لقد تكرر اللجوء إلى الرميات في نيابة دمشق بسبب القتلى، فمنها ما تم سنة (٩٠٥هـ/١٥٠٠م) وسنة (٩٠٦هـ/١٥٠١م) وسنة (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) وسنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) وسنة (٩١٧هـ/١٥١١م)، واتخذت الرميات منحى آخر في بعض الأوقات، ففُرضت على أهل دمشق دون وجود قتيل، فقد ورد مرسوم سلطاني سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) برمي مال على أعيان دمشق ما يغطي خمسة آلاف غرارة من الشعير، وفي سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) وُلّي النائب استاددارا مقابل مال فرمى الأخير على أهل ميدان الحصا قبلي البلد من الخارج قرب جامع المصلى قريب ألف دينار، وعلى أهل الصالحية نحو خمسمائة[1]. وفي العام نفسه أراد مملوك أخذ حمل تبن من رجل دون حق، فتوجه الرجل إلى النائب ودواداره شاكياً، فرُمي على حارة الرجل مائتي دينار وجُعل كذلك على حارة باب المصلى مثلها وعلى ميدان الحصا نحو ألف دينار وعلى القراونة والشاغور قرب باب الجابية مثلها. ولما اقترب موعد وصول الحجاج إلى دمشق سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) نودي على أهل دمشق بالسفر لاستقبال الحجاج، ورُمي على الحارات مالاً لأجل المشاة الذين سيخرجون لملاقاة الحجاج. كما رمى النائب سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) مالاً على الحارات بسبب خروجه لقتال العربان. وتم في سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) قطع الماء عن الجامع الأموي بسبب انسداد مصارفه فرُمي على الحقوق مالاً كثيراً. وآخر ما وصلت إليه الحيل لدى المماليك في الرميات ادعاء خاصكي سرقة سيفه وبقجته وترسه في الميدان الأخضر فقام برمي مالاً على أهل هذه الحارات بهذه الحجة[2].

كان للرميات الأثر السيء على أهل دمشق، لا سيما إذا تزامن حصولها مع الأخطار السياسية الخارجية المحدقة بالنيابة من عصيان وتهديد إضافة إلى الأعباء المالية الداخلية من مشاهرة المحتسبين ورمياتهم واستيلاء الزعر على أموالهم وحوانيتهم وارتفاع الأسعار، فألجأهم ذلك إلى إجراءات وقائية تجنباً للرميات فقاموا بقتل عرفاء الحارات أو غيرهم من المسؤولين عن جمع أموال الناس ومن ثم سحبهم إلى المقابر أو إلى أي مكان بعيد عن محلتهم أو حارتهم. وحينما يكون مال الرمية كثيراً يسعون إلى تقليله بمراجعة النائب كالذي حدث سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) لما رُمي على أهل دمشق نحو مائة دينار ثم جُعل ثلاثين ألف دينار فامتنع الناس من الدفع وأصر النائب على الثلاثين ألف دينار، فأخلى الناس منازلهم وأُغلقت الأسواق فاضطر النائب على جعلها عشرين ألف دينار. وقد ينتدبون أحد الأكابر للتوسط بينهم وبين النائب في منع الرميات أو تخفيض مقدارها[3].

---

(١) ابن المبرد، ثمار، ص١٩٥، ابن طولون، مفاكهة، ص٥٧، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٤١، ٢٩٤

(٢) ابن المبرد، ثمار، ص١٠٦ــ١٠٧، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٢، ٢٢٢، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٧٧

(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٦، ٢١٢، ٢٢١- ٢٢٢، ٢٢٥- ٢٢٦، ٢٥٦

ومن الوسائل الأخرى التي ارتأوها التكبير في الجامع الأموي أو مواجهة النائب وجهاً لوجه، ومن ثم تعهده أمامهم بالكف عن الرميات أو بإشهار المناداة بين الأهالي بالامتناع عن ممارستها أو إصدار المراسيم ووضعها في جميع الحارات على حيطان الحجر ثم عدم الالتزام بها، أو اللجوء إلى اسكات المعترضين عن دفعها بالقوة. وقد عجز الدمشقي عن مقاومة الرميات في بعض الأحيان فانتهي به المطاف إلى الهروب فالموت، كما حصل مع أحد التجار سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) عندما هرب من دمشق إلى الصالحية بسبب كثرة الرميات والظلم، ثم عاد بعد يومين إلى منزله مهموماً وضعيفاً فمات[١].

المصادرات: سببت المصادرات الأذى والضجر للدمشقيين، وكانت مختلفة الأشكال، كما أنها فُرضت على فئات متنوعة من الناس[٢]، لكن أبرزها ما تم سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) حيث استمر بناء قلعة دمشق بعدما فرغ من غالب سورها والأبراج في مدة سبعة شهور، وتمت العمارة بأموال الناس المصادرة ومن الذهب والفروض على القرى والأملاك، وكان أكثره قد وُضع في خزانة النائب لأغراض أخرى غير عمارة القلعة. وما تم سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م) لما صودر السيد شهاب الدين ابن نقيب الأشراف بأكثر من خمسين ألفاً فباع الطاحون التي عمّرها عند باب توما بثمن بخس لايفاء المبلغ، ثم أُمر بسجنه وسجن آخران معه، فأُطلقا من غير أن يؤخذ منهما شيء رغم مقت الناس لهما وأُخذ من الشريف! وفي سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) كانت وفاة استاددار شيخ المحمودي تغري برمش، وكان قد عُين نائباً لبعلبك فأخذ في جمع أموال أهلها ومصادرتهم وهرب بكل ذلك إلى السلطان فأعطاه ما صادره وولاه استاددارية الشام، فلما وصل غزة والرملة قام بمصادرتهما ومارس الظلم، وحينما وصل الشام صادرها أيضاً، فاشتكى الناس وتوسلوا إلى السلطان أن يكف يده عنهم، فقام بعزله ومصادرته وضربه ثم سجنه في القلعة حتى مات[٣].

وصودر شعير لجماعة من الناس في دار الطعم سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) لورود مرسوم من السلطان بذلك. وحينما توفي ابن علوان سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) حضر خاصكي إلى دمشق وقام بمصادرة ورثة المتوفى ورسم على زوجته وطفله وعلى آخرين فصادرهم بنحو ثلاثة آلاف دينار. وصادر دوادار القاضي الشافعي وجماعته، وبعد ذلك بعام قام خاصكي آخر بمصادرة أهل الذمة. وحدث سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) أن تولى الخواجا زين الدين بن النيربي نظر

---

(١) المصدر السابق، ص١٨٤، ١٩٠، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٤١- ٢٤٢، ٢٧٥، ٢٧٦
(٢) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٥٧، ١٦١، ٢١٨، ٢٢٧، م٢، ٧٣٣، ٧٨٣
(٣) المصدر السابق، م٢، ص٧٩٨، ٨٩٩، ٩٤٤

الأسواق ووكالة السلطان وغيرها من الوظائف، فحضر إلى دمشق قادماً من مصر ومعه مرسوم بمصادرة أهلها بسبب مال كبير التزمه للسلطان[١].

ولم تسلم الأوقاف من المصادرة، حيث قام خاصكي بتوجيهات السلطان سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) بمصادرتها فاستولى على غالبها ثم مات، فشرع نائب القلعة بمصادرة الباقي. وتعرض العربان كذلك للمصادرة فكانت ردة فعلهم أن قاموا بمصادرة الحجاج في سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م) وسنة (٩٢١هـ/١٥١٥م)، ثم صالحوهم على مال محدد جُبي لهم[٢].

كانت المصادرات عامل قلق وخوف لدى الدمشقيين، فأدت ببعضهم إلى الهرب كما حدث لأحد أفراد جماعة القاضي الشافعي سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) فقد هرب من دمشق خوفاً من المصادرة. وزاد استياء الناس من المصادرات لما كانت تتم متزامنة مع الطرح والرميات وغلاء الأسعار، فتقف أحوال الناس وتتعطل مصالحهم بسببها[٣].

- الفساد الاداري[٤]

- **التزوير**

اتخذ التزوير في نيابة دمشق ثلاثة أنواع، كان أولها تزوير السكة أو ما يسمى "بالزغل"، وتزوير المعاملات والكتب الرسمية، وآخر الأنواع هو شهادة الزور. ومن الأخبار التي تشير إلى النوع الأول ما حصل سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م) فقد قُبض على شريف بالقاعة الغربية بجامع تنكز ظاهر باب القصر تجاه حكر السماق على نهر بانياس، ووُجد عنده الآلات التي كان يستخدمها في تزوير الدراهم، فوُضعت الأغلال في رقبته وأُحضر إلى دار السعادة وهو حسر اللباس، وتبيّن أن سبب سلوكه التزوير كونه سعى في مصر لنيل وظيفة وكالة بيت المال فنالها بمرسوم، وذاع الأمر بين الناس ثم بطل، فقدم دمشق واستعار هذا المكان من أحدهم ففعل فيه ما فعل. وفي سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٥م) قُبض على رجل يضرب الزغل، فأقر بأنه كان يغش في العملة قبل ذلك عند القاضي الحنفي، فكُتب محضر بشهادته وربما أصاب القاضي المذكور أذىً بسبب هذا[٥].

أما النوع الثاني من التزوير وهو تزوير المعاملات والكتب الرسمية فقد تمكن أحد السمرة من استخدامه سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣م) فقام بتزوير مرسوم يُظهر إعادة الحجوبية لأحدهم

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٣٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٩٢، ١٠٧- ١٠٨، ٢٠١
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٢٣، ٢٦٦، ٣١٥
(٣) المصدر السابق، ص٧٧، ٢٣٦، ٢٤٢، ٢٥٥
(٤) انظر حوله: غوانمة، دمشق، ص١١١.
(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٣٥٢، م٢، ص٦٨٠، ابن المبرد، ثمار، ص٢٠٢

بعد فصله منها، ولما افتُضح أمره أجاب قائلاً "أكرهني"، وصرّح بأنه تعمد عدم كتابة التاريخ على المرسوم ليظهر بأنه مزوراً، فتم ضربه[١]. وكان أحد القضاة الشافعيين سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٤م) قد طلب معلوماً على الوظائف التي كان يشغلها، واستعان في إثبات الوظائف والأنظار بتوقيع، فظهر أنه مزوراً لا يوثق به. وأظهر أحدهم سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) كتاباً مزوراً، كان نائب القاضي الشافعي الساعي في ذلك[٢].

اتخذ التزوير جانباً آخر سنة (٩٠٣هـ /١٤٩٨م) حينما عصى الدوادار أقبردي السلطان، فجمع من حوله آخرون ضد الطائعين المؤيدين للسلطان، فأتى رجل من السعاة وأظهر للطائعين أن معه مراسيم شريفة، فتبين أنها مزورة من العصاة وهدفها إرباك الطائعين وزعزعة ولائهم للسلطان، فقُطع لسان الرجل ويده ونودي عليه بذلك. وقام أحد الشهود بأبواب الترك سنة (٩١٥هـ/١٥٠٩م) بتزوير مرسوم، فضُرب ضرباً مبرحاً ثم طيف به على حمار مكشوف الراس، ونودي عليه بالتزوير[٣].

ولم يكتف الشهود بتزوير الكتب الرسمية، بل لجأوا إلى قول الزور شفاهاً تلبية لمصالحهم الشخصية، ومن ذلك ما تم سنة (٨٨٩هـ/١٤٨٤م) عندما أوصى رجل أعجمي قبل وفاته بثلث ماله للمارستان، فشهد زوراً بسماع الوصية بعض الشيوخ والقضاة وثبت بطلان الشهادة، فاغتاظ القاضي الشافعي وأرسل لنوابه يأمرهم بأن لا يحكموا شيئاً.

وتكرر نعت بعض القضاة بشهادة الزور كالقاضي الشافعي محيي الدين بن محمد الامام وولده، وهما من شهود باب الصغير سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م)[٤]. وكما نُعت الشهود ـــ شهود المراكز– سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) بذلك عندما وضع نائب دمشق يده على حمام ملك الأمراء بيدمر وكان وقفاً على الأيتام، فأخفى الشهود كتاب وقف الحمام وشهدوا لصالح نائب دمشق. وقد علّق ابن طولون على ذلك فقال: "اللهم أظهر الحق، واخف شهود الزور، وستُكتب شهادتهم ويُسألون"[٥]. ولم تقتصر شهادة الزور على شهود المراكز، بل تعدتهم إلى المعمارية والمهندسين والمهندسين والحفارين، حيث وقف هؤلاء بجانب كاتب السر محب الدين الأسلمي سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م) فشهدوا زوراً لصالحه لما قام ببناء حيطان قبلي قبة الشيخ رسلان على مقابر المسلمين ونبش قبور جماعة، فقام القضاة بهدم الحيطان وما بناه وتغريم كاتب السر، ثم

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٥٦٠
(٢) المصدر السابق، م٢، ص٦٠١، البصروي، تاريخ، ص٢٠٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٨، ٢٩٤– ٢٩٥
(٣) ابن طولون، مفاكهة، ص١٥٤، ٢٧٠
(٤) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٩٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٥١
(٥) ابن طولون، مفاكهة، ص٣٠٨، وللمزيد ص٢٩٤

أعاد الأخير بناء ما هدم فشهد الحقارون والمهندسون والمعمارية بعدم البناء، ووقف بجانبهم بعض القضاة[١].

- **البراطيل والرشوة والبلص**[٢]

من مظاهر الفساد الإداري في نيابة دمشق الرشوة، وهي ما يُقَدّم للغير لقضاء مصلحة دون استحقاق، وقد دُعيت أيضاً بالبراطيل. أما البلص فهو أخذ المال ظلماً أو من دون وجه مشروع[٣].

اشتُهرت البراطيل وانتشرت انتشاراً واسعاً بين الناس حتى قيل فيها شعراً مثل:

فبَرطِل إن أردت الحال يمشي فما يمشي سوى حال المُبرطل

كما ترددت على ألسنة بعض الناس عبارة "البرطيل حكيم، والدنيا محبوبة، والرياسة فيها مطلوبة". ومن الطريف أن الحيوانات عرفوا أهميتها وأدركوا أن انقضاء شغلهم يكون باتّباعها حسبما أشار بذلك ابن صصري[٤].

استخدمت الرشاوي في مختلف الأعمال والمناصب ومنها القضاء، ففي سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٤م) خلع على القاضي الشافعي خلعة استمرار، كان قد سعى للحصول عليها برشوة جماعة بمال كثير، وقام آخرون بالاقتداء به كذلك مما جعل ابن حجي يقول "انحطت رتبة منصب القضاء في هذه السنين إلى أن تطاول له كل قاصر واستشرف له كل وضيع، وصار لا يوصل إليه بالعلم بل بالمال المحض"[٥].

ومن اللافت أن الرشوة لم تكن تُدفع بإرادة أصحابها فقط بل أصبح أرباب السيوف كالنائب يطلبونها جهاراً ممن يريدون تسيير أعمالهم. واستخدم المحتسبون والنواب الرشوة، حيث بيع رطل اللحم سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) بثلاثة دراهم رغم أن ثمنه نصف درهم، لأن الباقي كان برطلة للنائب، كما استخدمها مقدمو البلاد كمقدم جبة عسال الذي عُرف عنه الظلم الزائد مما دعا قومه للاستغاثة بالشيوخ من أجل التخلص من آذاه وبلاه فاستُجيب لهم وتم عزله[٦].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٥٧- ٢٥٨، ٢٦١- ٢٦٢

(٢) انظر حولها: غوانمة، دمشق، ص١١٢.

(٣) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٦١٩، البصروي، تارخ، ص١٣٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥١٤، ابن طولون، مفاكهة، ص٧، غوانمة، دمشق، ص١١٢

(٤) ابن صصري، الدرة، ص٢٩، ٤٠

(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٤، ٣٨٠، وللمزيد حول رشاوي القضاة، م٢، ص٥٠٦، ٦٥٢، ١٠٣٠، البصروي، تاريخ، ص١٣٣، ابن طوق، التعليق، ص٨٨، ابن طولون، مفاكهة، ص٧، ٩٥

(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٣٨، ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٦٢، ٢٧٧

أما فيما يتعلق بالبلص فقد انتشر هو الآخر بشكل واسع بين أرباب السيوف، ففي سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) أخذ مال من أحدهم كما طُلب غيره بلصاً لقاء توليه الحسبة فاستعفى منها[١]. وفي سنة (٨٨٧هـ/١٤٨٢م) قُدمت شكوى من قبل جلابة غنم تركمان ضد المحتسب بسبب أخذه بلصاً عن كل رأس من الماعز والغنم، فذهب شيخان وأطلعا النائب على الشكوى فأمر بتبطيله والمناداة بدمشق بما قرره، ثم انتهت القضية بعد حين على أن يأخذ المحتسب نصف سمسرة على كل رأس ولم تذكر الضريبة. واشترك دوادار ورأس نوبه ونقيبان وآخرون في بلص أحد الأشخاص سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م)[٢]. وذاع أيضاً بين القضاة حتى أصبح صفة ملازمة للبعض مثل نائب القاضي الشافعي شعيب، حيث مارس الظلم والبلص مع الناس لا سيما في سنة (٨٧٨هـ/١٤٧٣م) مما دفع بالقاضي الشافعي إلى عزله سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٩م) ومن ثم إعادته بشفاعة كاتب السر وناظر الجيش محب الدين الأسلمي[٣].

كان البلص يُنفذ من قبل فئات من الناس دُعوا بالبلاصية، كما قام به الزعر أيضاً بايعاز من أولياء أمورهم لقاء مبالغ من المال، ويظهر أن ممارسته من قبل هؤلاء كانت تتم بالقوة وإلحاق الأذى الشديد مما دفع بالناس إلى التذمر والشكوى للنائب، إلا أن الأخير لم يكن في وسعه حل هذه المشكلة وإسكات الرعية إلا بالمناداة بإبطال البلاصية والزعر كما حدث سنة (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) وسنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م)، إلا أن البلاصية غالباً ما كانوا بعد المناداة يعودون إلى سيرتهم الاولى، مما دفع بالعوام إلى قتلهم وحرقهم[٤].

- **التعدي على الأوقاف**[٥]

الوقف في اللغة معناه الحبس، وهو عبارة عن وقف الأرض على المساكين وقفاً أي حبسها[٦]. وفي الاصطلاح "حبس رقبة الأرض أومنافعها دون رقبتها على جهة معينة"، وهناك نوعان رئيسيان من الأوقاف:

- النوع الأول، الأوقاف الصحيحة وهو العقار الذي حكم القاضي بصحته. وينقسم إلى وقف خيري ووقف مشترك قسم منه لعائلة الموقف وآخر للأماكن الدينية، ووقف ذري يُخصص ريعه لذرية الواقف أو لغيره حسب تعيينه.

---

(١) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٦
(٢) المصدر السابق، ص١٩٠- ١٩١، ٥١٤، وللمزيد ص٥٤٠ وابن طولون، مفاكهة، ص١٤٥
(٣) البصروي، تاريخ، ص١٣٣، ابن طوق، التعليق، ج١، ص١٠٢، ابن طولون، مفاكهة، ص٩٥
(٤) ابن طولون، مفاكهة، ص٢٠٣- ٢٠٤، ٢٤٧، ٢٧٠
(٥) انظر حولها: غوانمة، دمشق، ص١١٥.
(٦) ابن منظور، لسان، م٩، ص٣٥٩

- النوع الثاني، الأوقاف غير الصحيحة وهو حبس جزء من واردات الدولة على مصلحة من المصالح فهو إرصاد وليس وقفاً صحيحاً[١].

لقد توسع المماليك في اتخاذ الأوقاف في بلاد الشام ومصر، ولعل مرد ذلك إضفاء بعض الشرعية على حكمهم ومحاولة التقرب إلى شعوبهم، ووجد سلاطينهم بشكل خاص أن الوقف سبيل للمحافظة على أملاكهم في حياتهم، وحتى بعد مماتهم بتأمين مورد دائم لأولادهم[٢].

كان قاضي قضاة نيابة دمشق الشافعي ينفرد عن غيره من القضاة بالنظر في الأوقاف والأيتام في بداية العصر المملوكي أي سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م)[٣] ثم صار القضاة الثلاثة الآخرون ينظرون على الأوقاف التي تتبع مذاهبهم، فيقومون بحفظ الوقف وتنميته وعمارته واستثمار الفائض منه ومتابعة أموره المادية، وضبط ايراداته ومصروفاته، وتوزيع أمواله على المستحقين[٤]، ومتابعة قضايا الاعتداء عليه لا سيما وأن هذا كثر وانتشر في فترتنا، فمن قضايا الاعتداء ما قام به النائب سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) من فرض الأموال الكثيرة على الأراضي وإقطاع الأوقاف والأملاك لأجل عمارة قلعة دمشق، وما فعله آخرون كالأمير يونس الرومي (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م) حيث بنى داراً عظيمةً بجوار المدرسة الشامية البرانية بالعقيبة، فهدم أوقاف الحرمين ومساجد وحماماً وأضافهم إليها وأنشأ في داره بستاناً داخله دار للبقر كانت أصلاً مسجداً أخذه بغير حق[٥]. وما قام به السلطان سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) بتكليف نائب طرابلس من جمع ألف دينار من المدارس عن طريق القضاة والمسارعة في إرسالها من أوقاف المدارس الخراب والعامرة، وما لجأ إليه قاضي الحنفية عماد الدين الناصري (ت٩٠٨هـ/١٥٠٢م) سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) من أكل مال الأوقاف وبيعها دون حق، وسلك الطريق ذاته المحيوي بن يونس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م) الذي قيل أنه قد كثر بيع الأوقاف في وقته بسب توليه قضاء الحنفية. إضافة إلى استيلاء النائب سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) على أوقاف المارستان كلها[٦]، كذلك ما حدث سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) حينما اعتدى الأمير باك باي دوادار

---

(١) المغربي عبد الرحمن ومحبيش غسان، أوقاف الطريقة البسطامية وآل البسطامي في فلسطين (٧٧٠هـ/١٣٦٩م)، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، م٣، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية ــ عمان، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص٤٥ــ ٤٦

(٢) اشتية محمد، الدوري عبد العزيز، موسى نائل، اقتصاديات الوقف الاسلامي، ط٢، المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والاعمار ــ بكدار، (هـ/٢٠٠٦م)، ص١٤

(٣) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٥ــ ٣٦

(٤) البصروي، تاريخ، ص١٧، ٣٢، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٢٦، ٢٤٨، ابن طولون، نقد، ص٨٩، العلبي، دمشق، ص١٩٩

(٥) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٦٦ــ ٧٦٩، النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٧٧، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٦٧

(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٩٢٧، ابن طولون، قضاة، ص٢٣٥، ٣٤٧

الأتابكي على مزرعة بالشام كانت موقوفة على المدرسة العذراوية بدمشق، ووقتها روجع الأمير فيها فأجاب بأنه وضع يده عليها بطريق استبدال، فأمر السلطان بتحري وفحص الأمر. وفي العام نفسه توفي القاضي صلاح الدين العدوي وكيل السلطان بعدما قضى أيامه الأخيرة في العقوبات المختلفة لأجل قطعه أشجار كانت موقوفة على المدرسة الشامية ثم غرسه لها مرة أخرى واستملاكها وأخيراً بيعها مع أرضها للسلطان قانصوه الغوري[١].

لم تقتصر ظاهرة الاعتداء على المتنفذين في نيابة دمشق بل إنها وصلت إلى من دونهم منزلة، ومن مثل هؤلاء شهاب الدين بن المؤيد دلال أوقاف المدارس الذي قال بشأنه ابن طولون: "فكم من وقف أبطله"[٢].

كانت قضايا الاعتداء تواجه بعدة طرق أبرزها إرسال السلطان كاشفاً للأوقاف أو خاصكياً، وظيفته تفقد الأوقاف وتحريها من الناحية المالية، وتغريم ناظرها ومن يقومون بها عند اكتشاف نقصان في حسابها، فقد تم إرسال كاشفاً للأوقاف في السنوات (٨٨١هـ /١٤٧٦م) و(٨٩١هـ/١٤٨٦م) و(٩٠٢هـ/١٤٩٧م) و(٩٠٥هـ/١٥٠٠م) و(٩٠٦هـ/١٥٠١م) و(٩١٩هـ/١٥١٣م)[٣].

كان وجود الكاشف في نيابة دمشق في أغلب الأحيان مصدر ازعاج وتذمرومعاناة ومشقة من قبل الناس لما يقوم به من الاستيلاء على أموال الأوقاف بلصاً، وممارسة الظلم الذي باعتقادهم لولاه لما صار خاصكياً، كما كان يصادر الأوقاف لتكتمل مع هذا الأجراء الصورة التي رسمها أهالي دمشق في أذهانهم عنه بمجرد حضوره إلى النيابة[٤]. فقدومه يعني زيادة الأعباء المادية مع ما يصحبها من الخوف والرهبة من تبعات ذلك. وقد يلجأ السلطان إلى طريقة أخرى للحد من الاعتداءات كأن يأمر بالقبض على المستولي على الأوقاف، أو يرسل مرسوماً شريفاً بإبطال التعرض للأوقاف كالذي حدث سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) عندما أبطل السلطان العادل طومان باي عشر سنوات ما كان يُؤخذ من أوقاف الجامع الأموي ومقداره ألف دينار سنوياً لخزائن السلاح في قلعة دمشق، بعد ما شكى أهل الجامع هذه المشكلة وما ترتب عليها من ضرر وأذى[٥]. وفي العام ذاته أبطل السلطان بيع الأوقاف بعدما اشترى النائب سيباي بن بختجا بختجا المدرسة السيبائية الواقعة خارج باب الجابية، إضافة إلى هذه الطرق فقد لجأ الناس إلى

---

(١) ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٦٣
(٢) البصروي، تاريخ، ص١٠٦، ابن طولون، مفاكهة، ص٣٦، ٢٨٠
(٣) البصروي، تاريخ، ص٨٠، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٠٥، م٢، ص٨٩، ١٣٧، ابن طولون، مفاكهة، ص١٤٥
(٤) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٥٩١، ابن الحمصي، حوادث، م١، ص٣٤٢، ابن طولون، مفاكهة، ص١٤٥، إعلام، ص١٦٢
(٥) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٥٢٧، البصروي، تاريخ، ص٨٠، ابن الحمصي، حوادث، م٢، ص١٩٥

الشكوى من أكل مال الأوقاف إلى قاضي القضاة فعمد الأخير إلى تهديد المعتدي، كما قام بإبطال ما كان يؤخذ من الأوقاف(١).

من جانب آخر، فقد سلك البعض طريق الإرشاد والموعظة الحسنة في مجابهة الاعتداء، فقد حدث سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م) أن أتى شريف مغربي كتب بخط يده كلمة وعظية سلّمها للنائب فيها تحذير للفقهاء والقضاة من أكل مال الأوقاف والوقوع في الحرام(٢). ويبدو أن أخذ الأوقاف انتشر وعمّ شرره وآذاه مما جعل قاضي قضاة دمشق شهاب الدين الأموي الشافعي (ت٨٤٠هـ/١٤٣٧م) سنة (٨٣٢هـ/١٤٢٩م) يأمر بإبطالها كأول عمل بعد تقليده القضاء في الجامع الأموي. وقد سبقه في العفة والنزاهة وضبط الأوقاف قاضي قضاة الشافعية سري الدين بن الخطاب محمد بن قاضي القضاة جمال الدين (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٧م) وشهاب الدين أبو العباس الناصري الباعوني (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)(٣).

- **الفساد الأخلاقي**

ظهر الفساد الأخلاقي في نيابة دمشق فوجدت بيوت الفسق والفجور بحيث بلغ تعداد الخمّارات وحدها سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) ما يقارب مائة خمّارة(٤)، وأضيف إلى الخمر أنواع من المسكرات كالحشيش وغيره، ومورس الزنى في دور بنات الخطا (البغايا) وفي الخانات والأزقة من قبل بعض الفئات الاجتماعية(٥). وكان المماليك من جانبهم يعمدون إلى إغلاق البيوت أو ختمها أو وضع علامات تُشير إلى توقف أعمالها(٦)، كما كانوا يحققون في الشكاوى المنسوبة إلى مرتكبي الزنى في مصر كما حدث سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) لما شكت امرأة للسلطان من نائب حماة أنه تعرض لها بالفاحشة(٧). ولجأوا أيضاً إلى تغريم الزاني أو إخصائه أو خوزقته مع الزانية أو قتلها عندما يهرب شريكها في الفاحشة(٨). واشترك الشيوخ أحياناً في إزالة المنكرات وإراقة الخمور كما حدث سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)(٩).

كانت هذه الطرق وسائل ناجحة في الحفاظ على عراقة وأصالة المجتمع الدمشقي والتزام أفراده بالعادات والتقاليد التي تتفق مع تعاليم الإسلام أو تلائم مجتمعهم المحافظ.

---

(١) ابن حجي، تاريخ، م١، ص١٣١، النعيمي، الدارس، ج١، ص٥٣٠، ابن طولون، مفاكهة، ص٢٨٢
(٢) ابن طولون، مفاكهة، ص٥٦
(٣) ابن حجي، تاريخ، م١، ص٢٣٠ـــ ٢٣١، ابن طولون، قضاة، ص١٢٢ـــ ١٢٤، ١٥٩، ١٦٢
(٤) البصروي، تاريخ، ص٢٠٥، ابن طولون، مفاكهة، ص١٧١، ٢٤٣
(٥) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٥٨، ١٦٤، ٢٣٣، ٣٤٣، ٣٦٦، ابن طولون، مفاكهة، ص١٢، ٢١
(٦) ابن حجي، تاريخ، م٢، ص٧٣٤، ابن طوق، التعليق، ص١٢٤
(٧) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٢٣٧
(٨) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٦١، ابن طولون، مفاكهة، ص٨٨، ٩٢، ١٧٩
(٩) ابن طوق، التعليق، ج١، ص٣٦

الخاتمة

عالجت هذه الرسالة الحياة الاجتماعية في نيابة دمشق في عهد المماليك الجراكسة في فترة زمنية قاربت قرناً وثلث، فامتدت من الربع الأخير للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وقد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

١- أن المجتمع الدمشقي في عهد المماليك الجراكسة مجتمع طبقي البنيان تختلف أوضاع الأفراد فيه بحسب الفئة التي ينتمون إليها مع وجود بعض الاستثناءات.

٢- أن مجتمع نيابة دمشق كان يتكون من ثلاث فئات رئيسية كبيرة هي: المماليك، المتعممون، العامة. ولكل واحدة منها ملابسها وطعامها ومساكنها وعاداتها وتقاليدها.

٣- أن نظام الإقطاع الذي طبقه المماليك في نيابة دمشق كان قطب الرحى الذي تدور حوله معظم مناحي حياتهم.

٤- إن تطور نيابة دمشق في عهد المماليك الجراكسة اعتمد على العامل العسكري فوجود سوق الخيل وصناعة النصول والسروج والدباغات والمتاجرة بها دلائل على تفوق العنصر العسكري آنذاك واستمرار إثرائه.

٥- أن الأسرة الدمشقية أسرة محافظة كان اهتمامها منصباً على تربية أبنائها تربية صالحة بما يتلاءم مع تعاليم الدين الإسلامي والأعراف والتقاليد التي سار عليها من سبقهم.

٦- أن العادات والتقاليد في نيابة دمشق تنقسم إلى خاصة وعامة بحسب النظام الطبقي الذي قام عليه مجتمع نيابة دمشق. كما أن هذه العادات كانت متأثرة بالبيئة الدمشقية سواء البيئة الطبيعية الزراعية أو أعراق السكان ودياناتهم.

٧- أن الظلم الاجتماعي نتيجة طبيعية للنظام الطبقي غير أن هذا الظلم كان شديداً بارزاً مما جعل علامات الاستفهام تدور حوله.

المصادر والمراجع

١) المصادر المخطوطة

- ابن اياس، محمد بن أحمد اياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، **نشق الأزهار في عجائب الأقطار**، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، شريط رقم ٣٥٨.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، **تاريخ الخلفاء والسلاطين**، شريط رقم (٥٦٣)، الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات.
- الخالدي، محمد بن لطف الله العمري، (ت بعد ٩ هـ/١٥م) **المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى ديوان الانشا**، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ١٠٢٧.
- الشجاعي، شمس الدين (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده**، مكتبة الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات، رقم المخطوط ١٠٤٢.
- مغلطاي، ابراهيم، (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، **تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها**، الجامعة الأردنية، مكتبة الجامعة، رقم المخطوط ١٠٤٢.
- **سجلات المحاكم الشرعية**، مدينة دمشق، الجامعة الأردنية، مركز الوثائق والمخطوطات، سجل رقم ١٨٩.

٢) المصادر المطبوعة

- ابن أجا، شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الجلبي (ت ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م)، **تاريخ الأمير يشبك الظاهري**، (تحقيق عبد القادر أحمد طليمات)، دار الفكر العربي – مصر، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)
- ابن اياس محمد بن أحمد اياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، (تحقيق محمد مصطفى)، ط٢، ٥ج، الهيئة المصرية – القاهرة (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ٢ج، المكتبة العصرية – بيروت، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، ط١، (تحقيق كمال الدين عز الدين)، عالم الكتب- مصر، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- ـــــــ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والارشاد القومي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ج١١، ج١٢، ج١٣، ج١٥، (تحقيق الدكتور إبراهيم علي طرخان)، الهيئة المصرية العامة، ١٣٩١هـ/١٩٣١م.
- ـــــــ، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، ج١، (تحقيق محمد محمد أمين)، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٢، (تحقيق محمد محمد أمين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ج٣، (تحقيق نبيل محمد عبد العزيز)، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٤، (تحقيق محمد محمد أمين)، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ـــــــ، **مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة**، م٢، (تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد)، دار الكتب المصرية- القاهرة، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- ـــــــ، **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، ط٣، (تحقيق فهيم شلتوت)، دار الكتب المصرية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٣م)، **تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير)**، ط١، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م) ، **إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ**، ط١، ج٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- ـــــــ، **ذيل الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية**، ط١، (تحقيق أحمد فريد المزيدي)، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)
- ابن الجيعان، بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، **القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف، أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام**، ط١، (تحقيق عمر عبد السلام تدمري)، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، جروس – برس.
- ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي (ت ٧٣٧هـ/١٣٢٦م)، **مدخل الشرع الشريف على المذاهب**، ٤م، دار الفكر.

- ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، ج١، (تحقيق محمد محمد أمين)، دار الكتب، (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م)، ج٢، (تحقيق محمد محمد أمين)، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.
- ابن حجي، شهاب الدين أبو العباس أحمد (ت ٨١٦هـ/١٤١٢م)، **تاريخ ابن حجي**، ط١، ٢م، تعليق أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- ابن الحمصي، شهاب الدين أحمد بن محمد، (ت٩٣٤هـ/١٥٢٧م)، **حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران**، ط١، ٣م، (تحقيق عمر عبد السلام تدمري)، المكتبة العصرية – بيروت، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (تاريخ بن خلدون)**، ٦ج، مؤسسة الأعلمي – بيروت، (١٣٩١هـ/١٩٧١م).
- ـــــــــــــ، **مقدمة ابن خلدون**، (تحقيق أبو مازن المصري)، كمال سعيد فهمي، المكتبة التوثيقية.
- ابن دقماق، ابراهيم بن محمد ايدمر العلائي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، **الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين**، (تحقيق محمد كمال الدين)، ط١، ٢ج، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (ت بعيد ٩٢٦هـ/١٥٢٠م)، **صدق الأخبار (تاريخ بن سباط)**، (تحقيق عمر عبد السلام تدمري)، جروس برس، طرابلس – لبنان، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، (تحقيق بولس راويس) باريس المطبعة الجمهورية، (١٣١٢هـ/١٨٩٤م).
- ابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٥٨م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ مدينة دمشق**، (تحقيق سامي الدهان)، دمشق، (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)
- ابن صصري، محمد بن محمد (ت٨١٠هـ/١٤٠٧م)، **الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية**، (تحقيق وليم م. برينر اكسفورد)، مكتبة بودليان، (١٣٨٢هـ/١٩٦٣م).

- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، ط٢، ق١، (تحقيق محمد أحمد دهمان)، دمشق، (١٤٠١هـ /١٩٨٠م).
- ـــــــ، **تاريخ المزة وآثارها**، ط ١، (تحقيق محمد عمر حمادة)، دار قتيبة – دمشق، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م).
- ـــــــ، **اعلام الورى لمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، (تحقيق محمد أحمد دهمان)، دمشق، (١٣٨٣هـ/١٩٦٤م).
- ـــــــ، **نقد الطالب لزغل المناصب**، ط١، (تحقيق محمد أحمد دهمان)، خالد محمد دهمان، دار الفكر المعاصر – بيروت، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- ـــــــ، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (١٤١٨هـ /١٩٩٨م).
- ـــــــ، **فص الخواتم فيما قيل في الولائم**، ط١، (تحقيق نزار أباظة)، دار الفكر– دمشق، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- ـــــــ، **قضاة دمشق الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام**، (تحقيق صلاح الدين المنجد)، المجمع العلمي العربي بدمشق، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م).
- ابن طوق، شهاب الدين أحمد (ت ٩١٥هـ/١٥٠٩م)، **التعليق، يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، مذكرات كُتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي**، (٨٨٥ ــ ٩٠٨هـ/١٤٨٠ ــ ١٥٠٢م)، ج١، (تحقيق الشيخ جعفر المهاجر)، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ــ سوريا، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ج٢، المعهد الفرنسي، دمشق، سوريا، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٣، المعهد الفرنسي، دمشق، سوريا، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤، ج٤، المعهد الفرنسي، دمشق، سوريا، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- ابن عربشاه، شهاب الدين أبو محمد أحمد بن محمد (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، **عجائب المقدور في أخبار تيمور**، ط١، (تحقيق أحمد فايز الحمصي)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت٥٧١هـ/١١٧٦م)، **تهذيب تاريخ دمشق الكبيرة**، ط١، (تحقيق عبد القادر بدران)، دار المسيرة ــ بيروت، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- ـــــــ، **تاريخ مدينة دمشق**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- ابن العراقي ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، **الذيل على العبر في خبر من غبر**، ط١، ق٢، مؤسسة الرسالة - بيروت، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، **تاريخ الدول والملوك، نشر باسم تاريخ ابن الفرات**، نشر قسطنطين زريق.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م)، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، (تحقيق عدنان درويش)، ج٣، دمشق، (١٣٩٨هـ / ١٩٧٧ م)، ج٤، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، سوريا، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، **أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري**، رمادي للنشر.
- ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) **البداية والنهاية**، ١٤ج، مكتبة المعارف – بيروت، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- ابن كنان الصالحي الدمشقي، محمد بن عيسى (ت١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، **المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**، ٢ق، (تحقيق حكمت اسماعيل)، وزارة الثقافة – دمشق، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- ـــــــــ، **حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين**، ط١، (تحقيق عباس صباغ)، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٠٠م،
- ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي (ت٩٠٩هـ /١٥٠٣م)، **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، (تحقيق محمد أسعد أطلس)، ج٣، بيروت، (١٣٦١هـ/١٩٤٣م).
- ـــــــــ، **كتاب الطباخة**، مجلة المشرق، السنة ٣٥، بيروت، (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م).
- ـــــــــ، **نزهة الرفاق عند شرح حال الأسواق**، نشر حبيب زيات، مجلة المشرق، سنة ٣٧، (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)،
- ـــــــــ، **رسائل دمشقية**، ط١، (تحقيق صلاح محمد الخيمي)، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ابن مماتي، أسعد أبو المكارم بن مهذب بن مينا بن زكريا (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، **قوانين الدواوين**، (تحقيق عزيز سوريال عطية)، مطبعة مصر (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، **لسان العرب**، ط١، ١٥م، دار صادر ــ بيروت، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- ابن الوردي، زين الدين بن عمر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ط١، ج١، (تحقيق أحمد رفعت البدراوي)، دار المعرفة، بيروت- لبنان، (١٣٨٩هـ/١٩٧٠م).
- أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع – المعروف بــ الذيل على الروضتين**، دار الجيل، ط١، (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)، ط٢ (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
- ـــــــــ، **الروضتين في أخبار الدولتين**، ٢ج، دار الجيل، بيروت.
- أبو الفداء، عماد الدين بن أيوب (ت٧٣٢هـ/١٣٢١م)، **المختصر في أخبار البشر**، ٤ج، دار المعرفة، بيروت- لبنان.
- ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٣هـ/٧٩٩م)، **كتاب الخراج**، دار المعرفة، بيروت- لبنان، طبعة منسوخة عن مخطوطة في الخزانة التيمورية سنة (١٣٠٢هـ/١٨٨٥م).
- البدري، أبو البقاء عبد الله بن محمد (ت٨٩٤هـ/١٤٨٩م)، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، المطبعة السلفية – مصر، (١٣٤١هـ/١٩٢١م).
- البرزنجي، جعفر بن حسن (ت١١٧٧هـ/١٧٦٤م)، **النفح الفرجي في الفتح الجته جي، دراسة قافلة الحج الشامي وتحقيق المخطوط**، (تحقيق مازن يوسف الغنيمي)، جامعة دمشق، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
- البصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت٩٠٥هـ/١٤٩٩م)، **تاريخ البصروي**، ط١، (تحقيق أكرم حسن العلبي)، دار المأمون، دمشق، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
- الجزيري، عبد القادر بن محمد الأنصاري، (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م)، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة**، ط١، (تحقيق محمد حسن إسماعيل)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- الحسيني، محمد بن عبد الله، (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٩م)، **رحلة الشتاء والصيف**، ط١، دار السويدي، أبو ظبي، والمؤسسة العربية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- الحلاق، أحمد بديري، **حوادث دمشق اليومية (١١٥٤-١١٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م)**، (تحقيق أحمد عزت عبد الكريم).

- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب،** ط١، ١٠م، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، دار ابن كثير، دمشق ــ بيروت.
- الخيّاري، ابراهيم بن عبد الرحمن المدني (ت١٠٨٣هـ/١٦٧٢م)، **رحلة الادباء وسلوة الغرباء،** ٣ج، (تحقيق رجاء محمود السامرائي)، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، العراق.
- الدوادار، ركن الدين بيبرس (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة،** ط١، (تحقيق دونالدس ريتشاردز)، بيروت (١٤١٩هـ /١٩٩٨م).
- الدوداري المنصوري، أبو بكر بن عبد الله (ت٧٣٦هـ/١٣٢٥م)، **كنز الدرر وجامع الغرر، الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب،** (تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور)، (١٣٩٢هـ /١٩٧٢م).
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، **دول الاسلام،** ج١، (تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى)، الهيئة المصرية (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
- الزبيدي، أبو الفيضي أبو محمد بن مرتضى (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، **تاج العروس من جواهر القاموس،** ١٨ج، (تحقيق عبد الكريم العزباوي)، مطبعة حكومة الكويت، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢).
- السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، **طبقات الشافعية الكبرى،** ٦م، م٥، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ـــــــ، **معيد النعم ومبيد النقم،** (تحقيق محمد علي النجار وآخرون)، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)، **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- ـــــــ، **الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة،** (تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبح)، الدار المصرية، القاهرة.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، **حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،** ط١، (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد)، المكتبة التجارية، مصر، عام (١٣٧١هـ/١٩٥٣م).
- شيخ الربوة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي (ت٧٢٧هـ/١٣٢٧م) **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.**

- الصيرفي علي بن داوود الجوهري (ت ٨٧٩هـ/١٤٧٥م)، **إنباء الهصر بأبناء العصر**، ج١، (تحقيق حسن حبشي)، دار الكتب، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ج٢، (تحقيق حسن حبشي)، دار الكتب، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج٣، (تحقيق حسن حبشي)، دار الفكر، (١٣٨٩هـ/١٩٧٠م).
- ــــــ، **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، (تحقيق حسن حبشي)، وزارة الثقافة، مصر، (١٣٩١هـ/١٩٧١م).
- علوان، علي بن عطية بن الحسن بن محمد الهيتي (ت ٩٣٦هـ/١٥٣٠م)، **نسمات الأسحار في مناقب وكرامات الأولياء والأخبار**، ط١، (تحقيق أحمد فريد المزيدي)، دار الكتب العلمية- بيروت، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
- العليمي، مجير الدين بن عبد الرحمن بن محمد (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ٢ج، مكتبة المحتسب، عمان، الأردن، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
- العمري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين**، ط١، (دراسة وتحقيق دور وتيا كرافولسكي)، المركز الاسلامي للبحوث، (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م).
- ــــــ، **التعريف بالمصطلح الشريف**، (تحقيق سمير الدروبي)، جامعة مؤتة ، الكرك، الأردن، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- ــــــ، **مسالك**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي، القاهرة، **مسالك قبائل العرب، في القرنين السابع والثامن الهجريين**، ط١، (دراسة وتحقيق دور وتيا كرافولسكي)، المركز الإسلامي للبحوث، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- العيدروسي، محي الدين عبد القادر بن عبد الله (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٩م)، **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)
- العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)، **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"**، (تحقيق فهيم محمد شلتوت)، دار الكاتب العربي، القاهرة، (١٣٨٥ــ١٣٨٦هـ /١٩٦٦ــ ١٩٦٧م).
- ــــــ، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر**، (تحقيق هانس أرنست)، دار إحياء الكتب العلمية، (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م).
- ــــــ، **عقد الجمان في تاريخ الزمان**، حوادث (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)، (تحقيق عبد الرازق الطنطاوي القرموط)، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

- الغرسي، زين الدين عبد الباسط بن خليل (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م)، **نيل الأمل في ذيل الدول**، ط١، (تحقيق عمر عبد السلام تدمري)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- القرماني، أحمد بن يوسف، (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)، **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ**، ٣م، ط١، (تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد)، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٢م)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ١٣٧٨هـ/١٩٦٠م.
- قساطلي، نعمان أفندي (ت بعد ١٣٠١هـ/١٨٨٣م)، **الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء**، بيروت، (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م).
- القلشقندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ١٤ج، المؤسسة المصرية.
- ـــــــــ، **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، (تحقيق ابراهيم الأبياري)، دار الكتب الحديثة – القاهرة.
- مجهول معاصر للسلطان قايتباي، **تاريخ الملك الأشرف قايتباي**، ط١، (تحقيق عمر محمد عبد السلام تدمري)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- المحبي، محمد أمين بن فضل الله (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م)، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، دار صادر، بيروت.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج١ ق٢، ج٣، ق٢، ج٤ ق١، ج٤ ق٢، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) (تصحيح مصطفى زيادة).
- ـــــــــ، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، ٢ج، دار صادر، بيروت.
- ـــــــــ، **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، ط١، (تحقيق جمال الدين الشيال)، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

- النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، ٢ج، (تحقيق جعفر الحسيني)، مكتبة الثقافة الدينية، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- النويري، شهاب الدين أحمد (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج١١، (تحقيق يحيى الشامي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج٣٠ -٣١، (تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت قشلي فواز)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، ج٣٣، (تحقيق إبراهيم شمس الدين)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد اليمني المكي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٧م)، **مرآة الزمان**، ط١، ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، **معجم البلدان**، ٤م ، ط١، دار احياء التراث، بيروت، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، (تحقيق أحمد حطيط)، ط١، عالم الكتب، بيروت، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٣) المراجع العربية والمترجمة:

- آ، آشتور، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى**، (ترجمة عبد الهادي عبلة)، دار قتيبة، دمشق، (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م).
- اشتية، محمد، وعبد العزيز الدوري وموسى نائل، **اقتصاديات الوقف الاسلامي**، ط٢، المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والاعمار، بكدار، (هـ/٢٠٠٦م).
- أيبش، أحمد، **حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام**، (٩٢٦-٩٥١هـ/١٥٢٠-١٥٤٤م)، صفحات مفقودة تنشر للمرة الأولى من كتاب مفاكهة الخلان من حوادث الزمان لابن طولون الصالحي، دمشق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- البخيت، محمد عدنان، **مملكة الكرك في العهد المملوكي**، وزارة الثقافة، عمان، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).
- برغوت، عبد الودود، **جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق**، من مخطوطة أحمد بن أحمد بن طوق، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ط١، (١٣٩٣هـ/١٩٧٤م).

- بيات، فاضل، **بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة، (٥١هـ/١٥٤٤م – ٩٧٣هـ/١٥٦٦م)**، ج١، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
- جبارة، تيسير وآخرون، **تاريخ القدس**، جامعة القدس المفتوحة، عمان، (١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م).
- الحاج خليل، مقبولة حسن، **مدينة القدس في العهد الأيوبي**، وزارة الثقافة، عمان، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- الحجي، حياة ناصر، **أحوال العامة في حكم المماليك (٦٧٨-٧٨٤هـ/١٢٧٩-١٣٨٢م)**، ط١، الكويت (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).
- حمادة، محمد ماهر، **الوثائق السياسية والادارية للعصر المملوكي (٦٥٦-٩٢٢هـ/١٢٥٨- ١٥١٦م)**، دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة.
- خريسات، محمد عبد القادر، **التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي لبلاد الشام**، مؤتمر بلاد الشام في العصر العباسي، القسم العربي، (تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد يونس العبادي)، عمان، الأردن، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- درادكة، صالح ، **طرق الحج الشامي في العصور الاسلامية**، ط١، وزارة الثقافة، عمان، الاردن، (١٤١٨م/١٩٩٧م).
- دهمان، محمد أحمد، **ولاة دمشق في عهد المماليك**، ط٢، دار الفكر، دمشق، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- ـــــــــ، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، ط١، دار الفكر، دمشق، سوريا، (١٤٠١هـ/١٩٩٠م).
- رافق، عبد الكريم، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت**، (١٥١٦- ١٧٩٨م)، ط٢، دمشق، (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).
- ـــــــــ، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني**، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- زكار، سهيل، **من ملامح الحياة الاجتماعية في دمشق، دمشق أقدم مدينة في التاريخ**، ندوة آذار الفكرية/ مكتبة الأسد، دمشق ــ سوريا، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- زكريا، أحمد وصفي، **عشائر الشام**، ط١، دار الفكر، دمشق، سوريا، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

- زيادة، نقولا، **دمشق في عصر المماليك**، مؤلف ومترجم، نُشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، مكتبة لبنان، (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).
- السيد، محمود، **عرب الشام في العصر المملوكي**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.
- شرّاب، محمد محمد حسن، **معجم بلدان فلسطين**، ط٢، الأهلية للنشر، عمان، الأردن، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- الشلي، فيصل ، **بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية (١٣٨١ـ١٥١٧م)**، ط١، دار الزمان- دمشق، (١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م).
- الصبّاغ، ليلى، **الجاليات الاوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرن السادس عشر والسابع عشر**، العاشر والحادي عشر الهجريين، ط١، ٢ج، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- ـــــــ، **المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني**، وزارة الثقافة، دمشق، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
- طافور، **رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي**، (ترجمة حسن حبشي)، بورسعيد، القاهرة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- الطراونة، مبارك محمد، **الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة**، (٧٨٤- ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢-١٥١٦م)، ط١، دار جليس الزمان، عمان، الأردن، (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- طرخان، ابراهيم علي، **النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى**، دار الكاتب العربي، القاهرة، (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، **العصر المماليكي في مصر والشام**، ط٢، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).
- ـــــــ، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، ط٢، دار النهضة العربية، القاهرة، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- ـــــــ، **بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى**، دار الأحد، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٧٧م.
- عباس، احسان، **تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك**، عمان، الجامعة الأردنية، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)
- العسلي، كامل جميل، **وثائق مقدسية**، ط١، م٢، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان.

- العظمة عبد العزيز، **مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها**، تحقيق نجدة فتحي صفوة، ط١، دار الفكر، دمشق، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- العلبي، أكرم حسن، **دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين**، ط١، الشركة المتحدة، دمشق، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- عمارة، محمد، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، ط١، دار الشروق، بيروت، القاهرة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- غنام، رياض، **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية الدخيلة**، ط١، بيسان للنشر، بيروت، لبنان، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- كرد علي محمد ، **خطط الشام**، ٥ج، ط٣، مكتب النوري، دمشق (١٤٠٢هـ/١٩٨٣م).
- ـــــــــ، **غوطة دمشق**، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- غوانمة، يوسف حسن، **دمشق في عصر دولة المماليك الثانية**، ط١، دار الفكر، الأردن، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
- القاسمي، ظافر، **المظاهر الاجتماعية في قاموس الصناعات الشامية**، المؤتمر الدولي الثاني، لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق، (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩ م).
- الكوثري، محمد زاهد، **مادة جركس**، دائرة المعارف الاسلامية، أحمد الشيناوي وآخرون، م٦، ع١.
- كيال، منير، **الحمامات الدمشقية**، دمشق، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).
- لابدوس، ايرا، **مدن اسلامية في عهد المماليك**، نقله إلى العربية، علي ماضي، الأهلية، بيروت، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- لومبارد، موريس، **الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الاولى**، ط٢، (ترجمة عبد الرحمن حميدة)، دار الفكر، دمشق، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- ل.١. ماير، **الملابس المملوكية** ، (ترجمة صالح الشيتي)، الهيئة المصرية العامة.
- المغربي، عبد الرحمن ومحبيش غسان، **أوقاف الطريقة البسطامية وآل البسطامي في فلسطين (٧٧٠هـ/١٣٦٩م)**، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، م٣، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).
- هارتمان، **دمشق**، دائرة المعارف الاسلامية، م٩، ع١.

٤) الرسائل الجامعية

- أبو خديجة، هنادي بنت ابراهيم حمزة (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، **المرأة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي، (٦٥٨-٩٢٣هـ/١٢٦٠-١٥١٧م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، اش جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية.
- خصاونة، حسين أحمد سعيد(١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، **طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد، الاردن.
- خليل، سعيد صالح موسى(١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، **التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية (٧٨٤- ٩٢٢هـ/١٣٨٢- ١٥١٦م)**، اطروحة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الاردن.
- الشوامرة، نافذ محمد عبد ربه(١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، **الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (٦٨٤- ٩٢٢هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخليل، الخليل، فلسطين.
- العملة، عبد الجبار أحمد محمد(١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م)، **نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري (٧١٢ -٧٤٠هـ / ١٣١٢- ١٣٣٩/١٣٤٠م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
- كوكش، أحمد يحيى(١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، **المقريزي مؤرخاً للحياة الاقتصادية في مصر في عصره**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، الاردن.
- القططي، عبد الرؤوف جبر(١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، **السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية (٥٦٧ـ٩٢٣هـ/١١٧١ـ١٥١٧م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاسلامية، غزة، الاردن.

٥) الأبحاث والدراسات في الدوريات العربية:

- اسكندر، توفيق (١٩٥٦)، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط، **المجلة التاريخية المصرية**، م٥.
- رابيعة، ابراهيم حسني صادق (شوال ١٤٢٩هـ/ تشرين أول ٢٠٠٨م)، نهاية دولة المماليك، دراسة تحليلية، **مجلة جامعة القدس المفتوحة**، العدد ١٤.

- زكي، عبد الرحمن (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، صناعة السيوف الاسلامية في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، **المجلة التارخية المصرية**، م٥.
- الزيات (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)، الجوالي، أو جزية رؤوس النصارى في الاسلام، **مجلة المشرق**، ج٢، سنة ٤١.
- ـــــــ (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، اليهود في الخلافة العباسية، **مجلة المشرق**، ج١، سنة ٣٦.
- ـــــــ (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م)، الصيارفة في الإسلام وإفلاسهم من إلحاح الناس في أخذ أموالهم، **مجلة المشرق**، سنة ٣٥.
- ـــــــ (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م)، أيام السبوت بدمشق في عهد العباسيين، **مجلة المشرق**، ج١، سنة ٣٦.
- ـــــــ (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م)، مشمش دمشق، **مجلة المشرق**، سنة ٣٥.
- سوفاجيه، جان (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر، **مجلة المشرق**، ج١، سنة ٣٤، نيسان – حزيران.
- العريني، السيد الباز (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)، الفارس المملوكي، **المجلة التاريخية المصرية**، مجلد ٥.
- عواد، ابراهيم (١٣٦١- ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٢-١٩٤٣م)، لبنان في عهد المماليك، **مجلة المشرق**، مجلد ٤٠.
- الكواكبي، سعد زغلول (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، الحمامات في حلب عبر التاريخ والأدب، **مجلة عاديات حلب**، الكتاب الأول.
- لبيب، صبحي (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)، التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، **المجلة التاريخية المصرية**، م٤.
- محمد محمد ليلى (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، عادة ارتياد النساء لحمامات دمشق، **مجلة الحرس الوطني**، العدد ٢٧، السنة ٢٢.
- المنجد، صلاح الدين (١٣٦٨هـ/١٩٤٨م)، خطط الشام، أنهار دمشق، **مجلة المشرق**، سنة ٤٢.
- هاشم، عبد الهادي (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م)، أعراس الشام في أواخر القرن التاسع، **مجلة المجمع العلمي العربي**، ج٢، م ٣٢.

- الهواري، حسن محمد (١٣٥١هـ/١٩٣٣م)، عقد زواج قديم مضى عليه ٦١٨ سنة، **مجلة الهلال،** ج٥، سنة ٤١.
- وثيقة زواج من العصر المملوكي، **مجلة الغرباء الالكترونية،** العدد ٧٧، لندن (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

٦) المراجع الأجنبية

- Aylon, David, (1979), **The Mamluk military society,** London, IV.
- Nicolle PHD, David (1414/1993), **Men – At – Arms series the mamluks 1250-1517,** London.
- Tarawneh, Taha Thalji **(**1987), **The Province of Damascus During the Second Mamluk Period** (784/1382-922/1516).
- Ziadeh Nicola A. (1372/1953), **Urban Life in Syrai under the early mamloks,** Beirut, Lebanon.

قائمة الملاحق

الملحق رقم (١)

سلاطين الدولة المملوكية الثانية

اسم السلطان	مدة الحكم
الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن أنس العثمانى	٧٨٤-٧٩١هـ / ١٣٨٢-١٣٨٨م
(عودة الصالح أمير حاج)	٧٩١-٧٩٣هـ / ١٣٨٨-١٣٨٩م
(عودة برقوق)	٧٩٢-٨٠١هـ / ١٣٨٩-١٣٩٨م
الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١-٨٠٨هـ / ١٣٩٨-١٤٠٥م
المنصور عز الدين أبو العز عبد العزيز بن برقوق	ربيع أول – جماد آخر ٨٠٨هـ – ١٤٠٥م
(عودة فرج) .	٨٠٨-٨١٥هـ / ١٤٠٥-١٤١٢م
الخليفة المستعين	محرم–شعبان ٨١٥هـ / ١٤١٢م
المؤيد أبو النصر شيخ بن عبد الله المحمودى الظاهرى	٨١٥-٨٢٤هـ / ١٤١٢-١٤٢١م
المظفر أبو السعادات أحمد بن شيخ	محرم–شعبان ٨٢٤هـ / ١٤٢١م
الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهرى	شعبان – ذو الحجة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م
الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	٨٢٤ – ٨٢٥هـ / ١٤٢١-١٤٢٢م
الأشرف أبو النصر برسباى الدقماق الظاهرى	٨٢٥-٨٤١هـ / ١٤٢٢-١٤٣٧ م
العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن برسباى	٨٤١-٨٤٢هـ / ١٨٣٧-١٤٣٨ م
الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى	٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م
المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق	محرم – ربيع أول ٨٥٨هـ / ١٤٥٣م
الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائى الظاهرى	٨٥٧-٨٦٥هـ / ١٤٥٣-١٤٦٠م
الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن إينال	محرم–رمضان ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م
الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصرى المؤيدى	٨٦٥-٨٧٢هـ / ١٤٦٠-١٤٦٧م
الظاهر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى (المجنون) .	ربيع الأول – جماد أول ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م
الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهرى	جماد أول–رجب ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م
(الظاهر خير بك)	تسلطن ليلة واحدة

تابع الملحق رقم (١)

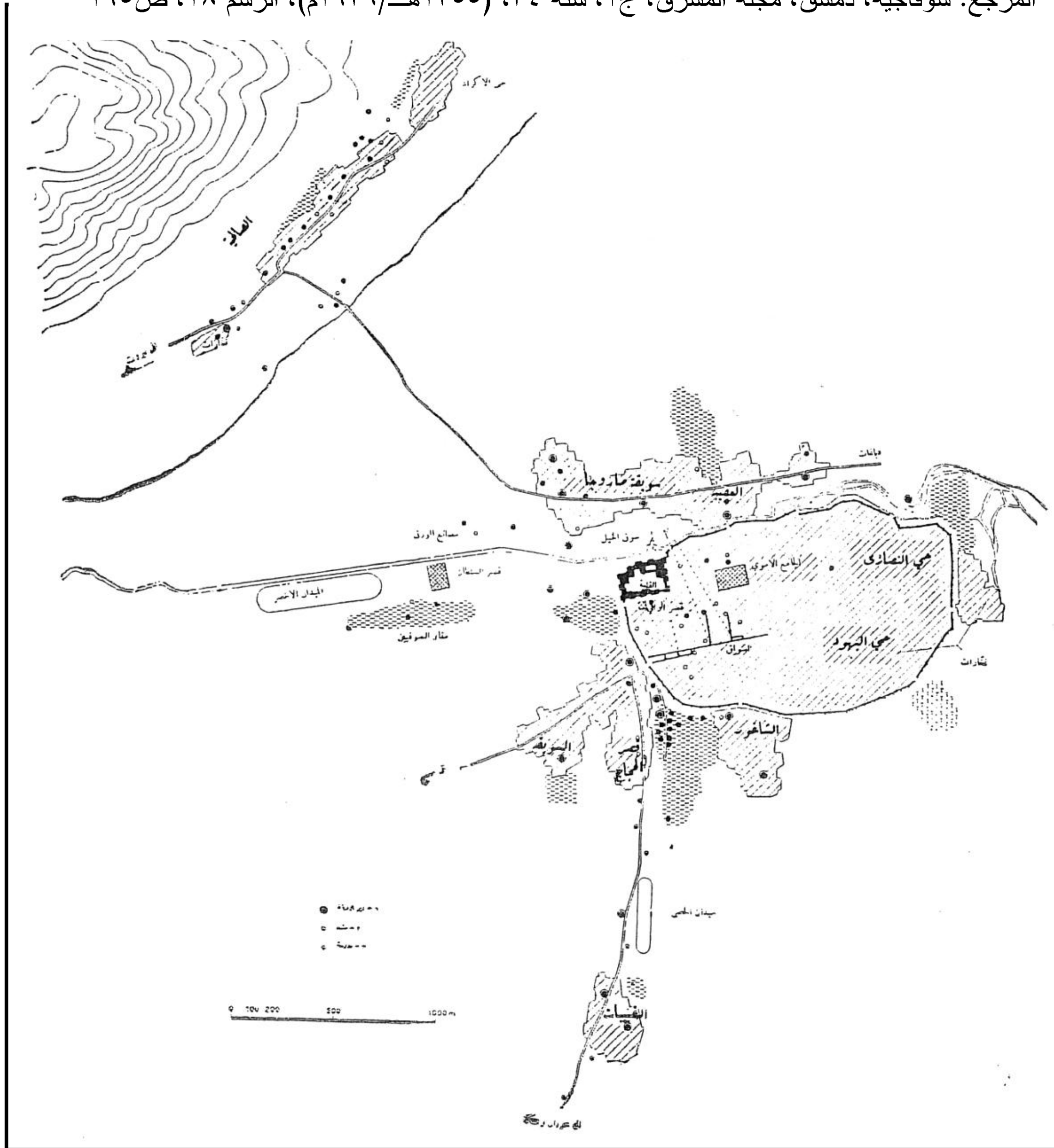
اسم السلطان	مدة الحكم
الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى	
الظاهرى	٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٦م
الناصر أبو السعادات ناصرالدين محمد بن قايتباى	٩٠١-٩٠٢هـ / ١٤٩٦-١٤٩٧م
الظاهرى	٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٦م
قانصوه خمسمائة	٢٨ جماد أول إلى أول جماد آخر ٩٠٢هـ/١٤٩٧م
عودة محمد بن قايتباى	٩٠٢-٩٠٤هـ / ١٤٩٧-١٤٩٨م
الظاهر أبوسعيد قانصوه الأشرفى	٩٠٤-٩٠٥هـ / ١٤٩٨-١٤٩٩م
الأشرف أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى	٩٠٥-٩٠٦هـ / ١٤٩٩-١٥٠٠م
العادل طومان باى بن قانصوه (طومان باى الأول)	٦ من جمادى الآخرة إلى شوال ٩٠٦هـ / ١٥٠١م
الأشرف قانصوه الغورى	٩٠٢-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م
الملك الأشرف أبو النصر طومان باى الثانى ...	٩٢٢-٩٢٣هـ / ١٥١٦-١٥١٧م

المرجع: طرخان، إبراهيم علي، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص٣٥٨-٣٥٩.

الملحق رقم (٢)

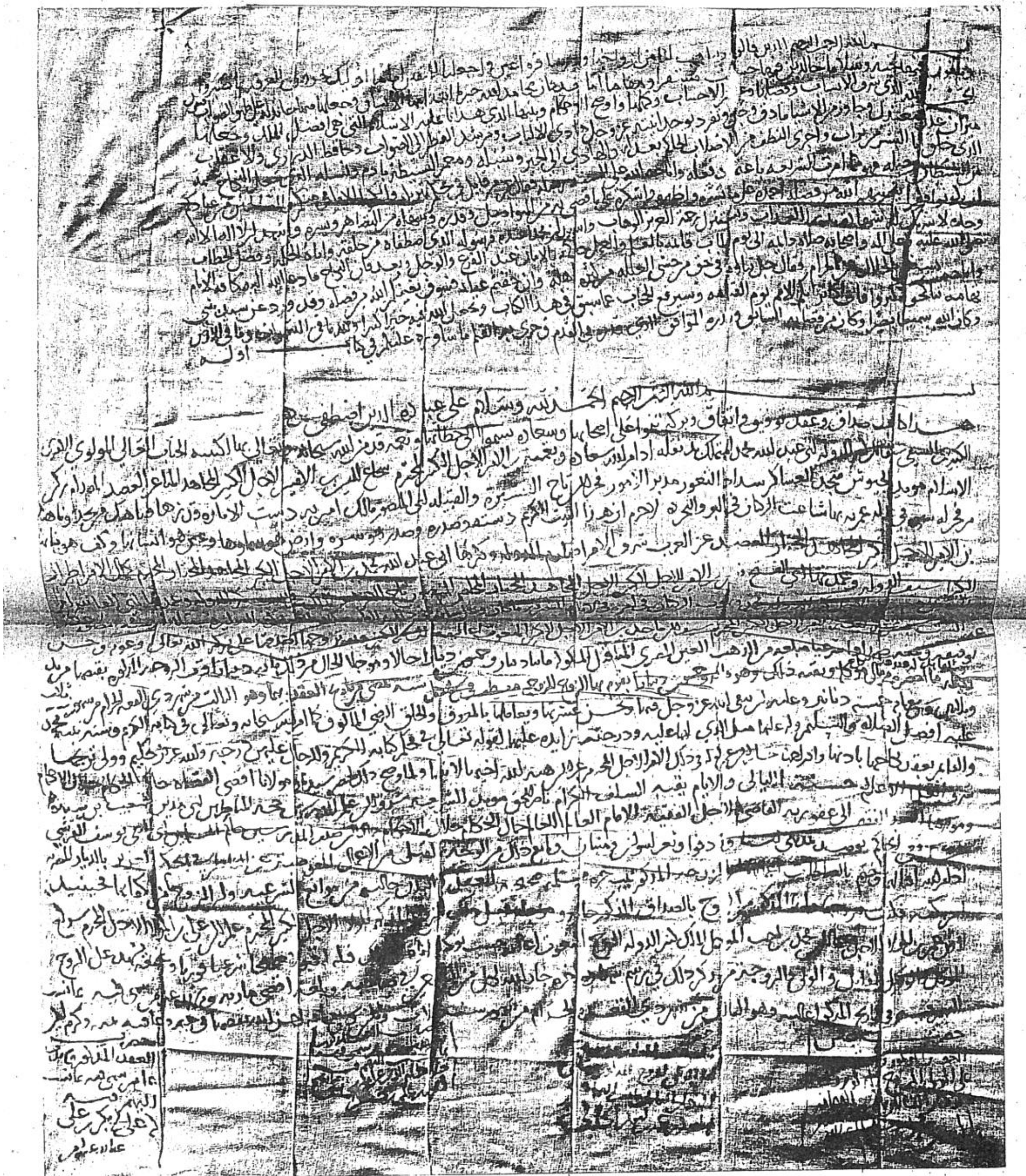
خريطة دمشق في عهد المماليك

المرجع: سوفاجيه، دمشق، مجلة المشرق، ج١، سنة ٣٤، (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، الرسم ١٨، ص١٩٥



الملحق رقم (٣)

صورة عقد زواج في عهد المماليك



يرى القارئ فوق هذا الكلام أقدم صورة لعقد زواج مضى عليه ٦١٨ سنة ، وهي عبارة عن قطعة من حرير أصفر كتب عليها بالمداد الأسود عقد زواج الامير ابي عبد الله المتملك بدقلة على ابنة عمه الاميرة السيدة بشرية بتاريخ ذي العقدة سنة ٧٣٣ الهجرية

المرجع: الهواري، عقد زواج، مجلة الهلال، ج٥، سنة ٤١، (١٣٥١هـ/١٩٣٣م)، ص٦٣٠-٦٣١.

الملحق رقم (٤)

[عقد نكاح ابن الفرفور]

رابع عشره عُقِد عقد قاضي القضاة وليّ الدين ابن الفرفور الشافعيّ على بنت القاضي مُحبّ الدين ناظر الجيش على صداق جملته ستمائة أشرفيّ، وحضره الكافلي نائب الشام سيباي، والقضاة الثلاث[٢] الحنفي، والمالكي، والحنبلي. وكان ذلك بمنزل والدها بالقرب من باب توما، وكان له مجلس مشهود.

(الحمد لله.

صاحبة العقد هذه جدّتي الكبرى، واسمها الستّ فَرَح، وهي أمّ جدّتي أمّ والدي هي السيّدة الكريمة، الزاهدة، الفاضلة، زينب بنت شيخ الإسلام قاضي القضاة وليّ الدين محمد بن الفرفور، رحمهم الله.

عبد الله مصطفى بن أحمد بن زينب بنت فرح المشار إليهما أعلاه)[٣].

(الحمد لله تعالى ذكره

. . . .[٤] جمال الدين هذه السيّدة الكريمة بنت المَقَرّ الكريم جدّي المرحوم القاضي محبّ الدين ابن الإمام قاضي القضاة، ووالدة عدّة أولاد، هم: جدّتي أمّ والدي السيّدة زينب بنت المرحوم العالم قاضي القضاة وليّ الدين بن الفرفور، وشقيقتها السيّدة عائشة، وقد زوّج الجدّة من المَقَرّ الأشرف نجم الدين عمر بن السيد كمال الدين بن حمزة[٥] (. . .)[٦] فلما (. . .)[٧] منه تزوّجها (. . .)[٨] المَقَرّ الأشرف منصور بن محب الدين[٩]، وهي ابنة عمّته. وولدت السيدة عائشة من المَقَرّ الأمير قرقماس بن محمد بن قرقماس. . .[١٠] وأتابك العساكر بالديار. . .[١١] جدّه كان من الدولة الغورية، ووالده نائب حماه في الـ (. . .)[١٢] الرومية. رحمهم الله تعالى أجمعين بمنّه وكرمه)[١٣].

المصدر: الحمصي، حوادث، م٢، ص٢٧٥.

"SOCIAL LIFE IN BEHALF OF DAMASCUS IN THE MAMLUK ERA II"

By

Maqbula Hasan Khalil Al Haj Khalil

Supervisor

Dr. Muhammad Abdel Qader Ikhraisat, Prof.

ABSTRACT

This study aimed at analyzing the social life of Damascus in the era of Circassian Mamluks in a period of time in almost a century and a third, expended from the last quarter of the (eighth/ fourteenth century) to the first quarter of (tenth/ sixteenth century), it is the subject did not get what deserves from the study despite of its importance, this is because we are in Sham particularly affected in our culture, our thinking and even in our customs and traditions in which socially found in Damascus at that time.

Choosing the study of the social life of Damascus is due to the lack of modern literature which dealt with this subject, in addition to its importance in that period of our study being Rod of Sham having preference and excellence than the other prosecutors, and the second capital for Mamluks after Egypt.

The research mentioned in the boot the organization of Damascus in the Mamluki era and its relationship with Mamluki Sultanate in Egypt, its preference to other prosecutors and all areas that were covered by it. In the first chapter mentioned the social groups in Damascus in the era of the Circassian divided them to mamluks and those who located in their space such as heads of swords, owners of office jobs, army men, mamluki princes and the generalized people who refer to Judges, Shariffs, injuries, teachers, preachers and the public who are the merchants, the peasants, zuur,

harafish, slaves, Orban, Kurds and Turkmen. Also in this chapter the definition of each category and the relationship with other groups, its economic level, job site, houses, clothes, customs and traditions are reviewed.

In the second chapter manifestations of social activity in Damascus are reviewed, the family and the first nucleus to be formed that is marriage then having children and what related to that of growth and development, the components of Damascene house and its relation with other houses, customs and traditions that were existed at that time of either private or public, festivals, events, banquet, food, games and entertainments. The Damascenes cared about their families, encouraged marriage but distinguished among them the marriage of senior companions than the others economically and socially. The children, who are the fruit of marriage, found in the Damascene families care since the early stages, as their houses in their planning and relations with other Damascene houses had added beauty to their beautiful morals and good customs and traditions. But the caste system remained in place in all aspects of life, as the customs and traditions of private were different than that of public, also the nature of celebrations between these two groups in festivals, events, banquet, food, games and entertainments were different too. But the vast difference between the two groups is shown better than anything else in the manifestations of social injustice, as the special category which was much like the executioner, while the general category was the victim, the second category fed up of prisons set up by the first category.

In the third chapter the forms of social injustice are described, the name of prisons, their locations and the bad situations that were experienced by the imprisoned, and the types of sanctions that received in these prisons and in others such as calling, tazir, nailing, solidification and centered. Also throws, forfeitures and administrative corruption are

reviewed, such as fraud, barteel, bribery, infringement of Awqaf, moral corruption and deviation were pointed.

And this study concluded that on behalf of the Levant arose after the victory of Mamluks against Tatars in Named Goliath battle and after annexed to Egypt in (1259AD/658AH), got the status of a high position outperformed other prosecutors. The planning and geography contributed to its greatness and the increase in its position among private and public. The beauty of Damascus and its fiefs robbed the core of senior companions layer (the Mamluks), the princes, military personnel and court staff and made them to compete for obtaining positions, even if it caused them to provide the Sultan with enormous money and gifts in order to obtain these positions, and the Sultan in return bestowed on them with fiefs, grants and ranks to ensure the survival of their loyalty to him, but greed and love of more height and gains in often led them to do disobey the Sultan.

In general, what distinguishes this category is the extreme luxury and extravagance in addition to clothing, customs and traditions, so all of these factors formed from them a special layer differed from the rest of the categories. The second category “turbaned” included the scholars, the scientists, the writers, people of mysticism, science students, the teachers, the judges, the preachers and the muhatasibs. Positions in this category were limited on the people of the Levant Arabs, and earned the respect of the Sultans, the Princes and the rest of the Shami community, and characterized by luxury and extravagance which was clear from their gifts to the Sultans and their clothing. The source of their wealth was from the endowments allocated to scientific and religious institutions in addition to the salaries and livelihoods in kind which they received from crown graces whether sultans or Representatives. Some of them had a political role in the current event at that time, and others had a social role in consolidation of relations between the Mamluks and the public.

And the public category occupied the third rank in the Damascene community, included the traders, peasants, zuur, harafish, slaves, Orbans, Kurds and Turkmen. And this category was signed on the shoulders more than others the injustice and arbitrariness as a result of taxes, and different kinds of sanctions were carried out in their right such as calling, tazeer, pressing, nailing, solidification and centering, and also was not safe from seizures and throws. It seems that it reflected negatively on the performance of some of its members and led them to practice forgery, barteel, bribery and infringement to the Awqaf in an effort to fight injustice but in a negative, not positive manner.